رواية

فراش العائلة

محمود شقير

نوفل

محمود شقير

رواية

فرس العائلة

محمود شقير

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدر عام 2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان.

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّة وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

[illegible] الواردة في هذا الكتاب لا تمثّل سوى كاتبها.

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: Fotolia
تصميم – حرف: ميشلين خوري
تنسيق: 53Data

[illegible] 978-9953-00-[illegible]

باستثناء الشخصيّات العامّة والمعلومات المستقاة من مصادرها، فلا علاقة لهذه الرواية بأشخاص أو بوقائع خارجها، وأيّ تشابه في الأسماء والوقائع ليس مقصودًا، وهو من باب الصدفة المحضة.

أسماء الأعلام المعرَّبة لا تخضع لقواعد النحو في حالة النصب.

إلى ابنتي أمينة وحفيدي محمود

1

للبرّيّة أعرافها التي ابتدعها أبناء بسطاء.

منّان هو أحد هؤلاء الأبناء، والبرّيّة لم تعد كما كانت من قبل، أو هذا ما يعتقده منّان. فالريح التي تقبض على الغيوم من أذيالها لتأخذها إلى شتّى البقاع جالبة معها المطر، لا تحضر إلا لتعيث خرابًا في مضارب العشيرة، والمطر منقطع أو هو شحيح في أحسن الأحوال. والأغنام جفّت ضروعها، وسبل العيش أصبحت أكثر صعوبة، وعسكر الانكليز لا يغيبون عن العشيرة حتى يظهروا في أفقها من جديد، والنساء صرن يكثرن من الدعاء لربّ العالمين بأن يبعد الشرور. خوفهنّ لم يكن ليمرّ بسهولة، صار يسبّب قلقًا للرجال.

منّان اتّخذ بعد طول تفكير قرارًا بالرحيل، وبالتوجّه غربًا إلى مشارف المدينة. هناك يمكنه أن يحقّق ما تصبو إليه نفسه من رغبات، ويمكن لأبناء عشيرته العثور على فرص شتّى للرزق. ولم يكن قراره سهلاً، فهو ولد في البرّية وعاش طفولته وشبابه فيها، وهو الآن كهل، وله فيها ذكريات.

بعض رجال العشيرة لم يرقهم قرار منّان. تهامسوا في ما بينهم واتهموه بأنّه يضحّي بأمن العشيرة من أجل أطماعه الخاصّة. وصل

الهمس إلى منّان ولم يأبه له. ولم تشكّ أمّه صبحاء في صدق نواياه. ربّما كانت له تطلّعات، لكنّها لا تصطدم بمصالح العشيرة ولا تنتقص منها. أمّه لها أسباب أخرى. قالت إنّها لا تحبّ مغادرة البرّيّة حيث ولدت وعاشت. فهي ابنة البرّ ولا يمكن تدجينها. وكيف يمكنها هجر المكان الذي يحتضن قبر زوجها والعيش في مكان آخر بعد هذا العمر؟ هي التي لم تزر المدينة إلا عددًا قليلًا من المرّات، ولم تغادر البرّيّة إلا حينما ذهبت إلى بيت الله الحرام لتؤدّي فريضة الحجّ صحبة زوجها. بذل ابنها جهودًا متّصلة لإقناعها بالرحيل، ووعدها بأنْ يأتي بها إلى البرّيّة كلّما رغبت في زيارة قبر أبيه.

ظلّت أمّه متمنّعة، وكذلك زوجته مثيلة وعمّه عبد الجبّار وآخرون. لم يكن مرتاحًا لتمنّعهم وهو مختار العشيرة. بعد أشهر من احتلال الانكليز للبلاد أصبح مختارًا، وها قد مرّت خمس عشرة سنة، ولا بدّ له من أن يكون قريبًا من المدينة ومن دوائر حكومة الانتداب. في زمن الأتراك كان والده محمّد هو المختار، وكان الابتعاد عن مراكز الحكّام مطلوبًا آنذاك انصياعًا للحكمة التي تقول: لا تمرّ من قدّام حاكم ولا من ورا بغل. الآن، عليه أن يغادر البرّيّة، لأنّ زمنًا جديدًا ابتدأ منذ أن أصبحت البلاد تحت حكم الانكليز.

مهيرة، زوجة أبيه، وزوجة عمّه بعد موت أبيه، تحمّست للرحيل الذي يقرّبها من القدس. وقعت مهيرة في حبّ المدينة منذ زيارتها الأولى لها. جاءت إليها وهي تركب الفرس خلف زوجها. أخته من أبيه، معزوزة التي كبرت ولم تتزوّج بعد، شجّعته على الرحيل. معزوزة منذ أن أنهت حدادها على حبيبها الذي قتل عند الحدود، لم تظفر بعريس. ولم تكفّ منذ مقتله عن الهديل مثل حمامة. في الليل، يملأ

هديلها البيت ويفيض نحو الخارج فيسمعه الجيران، وتكثر جرّاء ذلك تأويلات النساء، فهو نداء الشهوة يصعد من قلب معزوزة ولا تستطيع التهرّب منه مهما بذلت من محاولات، أو هو حزنها على حبيبها الذي لا يغادر قلبها، أو لعلّه التذكير بضرورة الأخذ بثأر الحبيب القتيل.

معزوزة رغبت في هجر البرّيّة لعلّها تنسى هديلها وتستريح. شجّعت أخاها على تنفيذ قراره من غير إبطاء، إلا أنّ أمّه والآخرين أوقعوه في بلبلة، فهو يحبّ البرّيّة مثلهم، وهذا لا يعني البقاء فيها إلى أبد الآبدين.

كان كلّما ألَحّوا عليه بالبقاء فيها يغادر مضارب العشيرة ويتّجه نحو الخلاء الفسيح على صهوة فرسه. تركض الفرس في السهل وصولاً إلى سفح الجبل، والسماء مجلّلة بغيوم بيضاء حيث لا مطر، والقحط يأكل وجه الأرض. ينزل عن فرسه ويقودها على مهل، ثم يجلس فوق صخرة مطلّة على المضارب وعلى الجبال البعيدة وعلى المدى الممتدّ نحو الغرب، ولا تغيب عن باله الأيّام التي قضاها هنا وجعلت لحياته مذاقًا لا ينساه.

في أيّام الصيف القائظة، كان ينصبُ بيتًا من شعر الماعز في الطرف القصيّ من بيوت العشيرة، تهرّ من حوله كلابه وتنبح نباحًا متقطّعًا، ويجثم قطيع الماعز الذي يملكه في الحظيرة المحاطة بسلسلة حجريّة، تنبعث منه أصوات تتراوح بين طقطقة أسنان الماعز وهي تمضغ ما تجترّ من طعام، وبين ثغاء بعض الجديان أو تناطحها العابث الودود، أو "بعبعة" تيس هائج يحاول عنزة متمنّعة. ولا يندر أن تهبط على طرف الحظيرة في المساء بومة، تطلق نعيبها المشؤوم، يركض نحوها، يطردها، ويستعيذ بالله من خبر مؤلم أو مأساة.

بعد أن تنشر العتمة رداءها الخفيف على البرّيّة تحت قمر متلألئ في السماء، يخفّ الضجيج وتضطرم نفس منّان بمشاعر شتّى، ويبدو مستعدًّا لأيّ عراك. يبدو في الوقت نفسه متعطّشًا للحظات من اللذّة، يتفحّص بعينيه الحادّتين أطراف السهول الساكنة في جلال الليل، تحسّبًا من ذئب غادر أو من سارق، فلا يرى أو يحسّ ما يكدّر صفوه، ينضو عنه ثوبه، يتبدّى بالشعر الكثيف على جسده كأنّه من وحوش البريّة، يسارع إلى زوجته المستلقية في فراشها، يعرّيها بلا استعصاء، كما لو أنّها كانت تنتظره، يتلألأ جسدها تحت النور الخافت الذي يرسله القمر، يلتحم بها وهي تحمحم مثل فرس، يشعر بأنّه سلطان هذه البرّيّة الشاسعة. تمتدّ يده إلى بطنها، يتحسّسه كما لو أنّه يستعجل قدوم طفله الأوّل.

تهمد حركته إلى جوارها، ولا يغفو على الفور. تطلّ عليه الهموم، يتذكّر هجمة الجراد التي ما زال ضررها ماثلاً للعيان. ويتذكّر ما قاله الضابط التركي لوالده الشيخ محمّد حينما داهم مضارب العشيرة بحثًا عن الشباب لإرسالهم إلى الحرب التي ابتدأت قبل عام. غادر الشباب المضارب في اللحظة المناسبة واختفوا في الجبل. اختفى منّان أيضًا في الجبل. وقال الضابط إنّ أخوّة الدين تفرض على كلّ رعايا السلطنة أن يهبّوا للجهاد. قال: هذه المرّة أنتم مطالبون بالدفاع عن القدس.

لم يستجب الشيخ لهذا الكلام. صحيح أنّه يحبّ القدس، إلا أنّ كلام الضابط لم يهزّ مشاعره، ففي مداهمات سابقة لمضارب العشيرة اقتاد لأتراك أربعة من أخوته واثنين من أبنائه مع آخرين إلى حروب السلطنة. وكانت النتيجة فادحة: قتل ابناه وثلاثة من أخوته، والرابع

تمرّد على أوامر ضابطه التركيّ فأودع السجن، وتمكّن من الفرار بعد أن واجه الموت غير مرّة. ظلّ يتغذّى بالحشائش والجنادب والسحالي وهو تائه في الدروب البعيدة، إلى أن قُيّضت له العودة، فلم تكد زوجته تعرفه، وحينما عرفته احتضنته أمام الرجال، في مشهد ظلّت صبحاء، أمّ منّان، تتحدّث عنه طويلاً للأبناء وللأحفاد كلّما حانت ساعة سمر.

لم يستجب الشيخ، ولم يرف له جفن، وهو يستمع إلى كلام الضابط. قال له: كفاية علينا اولادنا واخوتنا اللي انقتلوا في الحرب.

قال الضابط: يعني لن تدافعوا عن القدس!

لم يجبه الشيخ. أخذ الضابط التركي يتفرّس في وجوه أبناء العشيرة الكهول الواقفين أمامه، ولم يكن فيهم واحد في سنّ الجنديّة. في ما مضى كان بوسعه أن يكون أكثر تشدّدًا معهم. الآن، لم يعد هذا ممكنًا خوفًا من تمرّدهم، بعد الخسائر التي تكبّدوها في حروب السلطنة، وبعد أن ضعفت قبضة السلطنة على العشائر التي تجد لها ملاذًا في الجبال الوعرة وفي الأماكن النائية. ظلّ الضابط ملتزمًا جانب الحذر. ابتسم ابتسامة صفراء، حدّق في وجه الشيخ وسأله: أنت مختار العشيرة؟

– نعم.

قال في استعلاء كمن يقرأ نصّاً مكتوبًا في ورقة: بهذا تحكم أنت وأبناء العشيرة على أنفسكم بأنّه لا قيمة لكم، وستظلّون جنكلة مثلما أنتم الآن.

ظلّ الشيخ صامتًا، ما جعل الضابط التركي موقنًا من أنّه لم يعد ثَمّة كلام يمكن أن يقال. استاء منّان حينما عرف أنّ القدس كانت محور الكلام. نقلت له كلَّ ما قيل والدتُه صبحاء التي كانت تصغي

إلى كلام الضابط وهي واقفة عند مدخل البيت. ردّد منّان الكلام مرّات غدّة كما لو أنّه يعذّب نفسه على وقع الكلام: نظلّ جنكلة، بدوًا رحّلاً لا قيمة لنا! وقالت له أمّه إنّ الضابط ضغط على بطن حصانه بحركة غاضبة من ساقيه، وصاح في الشيخ محمّد ومن معه: تفرّقوا من أمامي يا جنكلة، تفرّقوا.

ابتعدوا مفسحين في الطريق للضابط وللعسكر الذين مرقوا فوق خيولهم مسرعين. ثارت خلفهم سحابة من غبار انعقدت فوق البيوت وحظائر الأغنام. ظلّ الرجال يرقبون الخيول المتراكضة عبر السهل، وحينما انقشعت سحابة الغبار، عادوا إلى النظر في وجوه بعضهم بعضاً. أطرق الشيخ محمّد برأسه نحو الأرض، ثم توجّه إلى المضافة وتبعه الآخرون.

جلسوا وتأمّل الشيخ ما جرى وشعر بامتعاض. فقد ألحق الضابط إهانة به وبعشيرته. وحين عاد منّان وبقيّة الشباب إلى المضارب قيل كلام كثير. تحمّس منّان وعدد من أبناء العشيرة لفعل سريع، فهم لم يحتملوا الإهانة. حاول الشيخ تخفيف العبء عن نفسه، دخل في مماحكات مع مَنْ حوله. قال لابنه منّان: كنت جيت من الجبل وتكلّمت مع الضابط.

– لو جيت وتكلّمت ما خلصت من زعلك.

صمت الشيخ لحظة، حدّق في وجوه مَنْ حوله. وراح يبحث عن تبريرات وقال: لا تنغرّوا بكلام الضابط عن القدس، اسألوني أنا عن الأتراك.

استمرّ الحوار وهو يتراجع الشيخ محمّد عن موقفه. وحينما وجد منّان أنّ مواصلة الكلام لن تفضي إلى نتيجة، رغب في مناكفة

بيه وقال: صدق مَنْ قال إن جدّنا أبو لهب (قالها أحد الخصوم مندّدًا بعشيرة العبد اللات، متّهمًا إيّاها بالكفر، وظلّ رجال العشيرة يتناقلون هذا الكلام على سبيل المزاح).

ابتسم الشيخ رغم ما يعتريه من ألم.

بحث بين الجالسين عن أخيه عامر الذي هرب من سجن الأتراك، فلم يره. لاذ بالصمت ولم يعد يصغي إلى ما يدور في المضافة من كلام. ولم يتمكّن منّان من تدارك غلطة أبيه، حاول تداركها في الأسابيع التالية، وحينما انتبه الشيخ محمّد إلى ما ينوي ابنه والآخرون الإقدام عليه، منعهم من مغادرة مضارب العشيرة، فانصرف منّان على مضض إلى النظر في شؤونه الخاصّة، وكان عليه أن يخفّف من قلق فاطمة التي أنجبت طفلها بعد سبعة أشهر من الزواج.

فاطمة كانت خائفة من الفضيحة، وعلى العكس منها كان زوجها منّان، ابتهج أثناء عودته من المرعى والنساء يباركن له بالمولود. فاستقبال العائلة لمولود ذكر يعزّز مكانتها، ويخفّف من وقع الإهانة التي لم يستطع هو ووالده نسيانها.

ترك القطيع يمضي نحو الحظيرة، ومضى إلى بيت والده. وجده جالسًا في المضافة على فرشة من صوف، ومن حوله عدد من رجال العشيرة. جلس وهو يتلقّى التبريكات. تنحنح الشيخ محمّد، وسأل: ما اسم المولود يا منّان؟

قال من غير تردّد: محمّد.

أحنى الشيخ رأسه وقد أثقلته النشوة.

اندلعت في فضاء البرّيّة الزغاريد، وغنّت النساء لمحمّد الجدّ ولمحمّد الحفيد.

ولم يسلم شرف فاطمة من مرّ الكلام. راجت شائعة تقول إنّها كانت حاملاً قبل الزواج. وظلّت الشائعة تسري من بيت إلى بيت حتى تدخّل الشيخ محمّد واعترض سريانها. كان لهيبته أثرها على أبناء العشيرة، فاعتبروا الولد سُباعياً، وقالوا إنّ الولد السباعي يشبّ وهو على قدرٍ من الشجاعة. ولم يتوقّف الهمس في جلسات النساء.

منّان لم يكترث للهمس. ولن ينسى تلك اللحظات عند سفح الجبل: هو الشاب المملوء عفويّة وبراءة يرعى أغنام أهله. وعلى مسافة منه، ترعى فاطمة أغنام أهلها. هي الأخرى مملوءة عفويّة وبراءة، ثوبها ينساب على جسدها باسترسال، وخدّاها متورّدان. وجد نفسه وحيدًا معها. هذا يحدث في العادة، والسماء كانت مجلّلة بالغيوم، فكأنّها تهب غطاء لمن يريد التكتّم على أمر ما.

جلس فوق العشب، وقال لها: اتركي الأغنام ترعى، واجلسي.

جلست بالقرب منه، شعرت بخجل وبشيء من الخوف، وكان الخلاء مفتوحًا على احتمالات شتّى. دار بينهما حديث متقطّع عن الرعي والأغنام، عن المطر والغيوم. عن الأمكنة البعيدة التي تقع خلف الجبال، وعن النساء والرجال الذين يعيشون هناك حياة أكثر رغدًا من حياتنا هنا. هذا ما يقوله الذاهبون إلى القدس لبيع الصوف وحليب الأغنام.

ضحكت وهي تستمع إلى حديثه عن الشتاء الذي تحياه العشيرة في هذه البرّيّة النائية. شعر بارتياح وهو يصغي إلى ضحكتها التي تمسّ القلب. تداخل قطيعه مع قطيعها حتّى لم يعد ممكنًا التمييز بينهما. ولم ينتبه إلى القطيع، انتبه إلى حُمّى تسري في بدنه لم يشعر بها من قبل. شمّر ثوبه وبان جسده الأسمر الفتي. ارتبكت فاطمة وهي

تلمح تكوينات جسده. فعل منّان هذا مرارًا في السنوات الماضية وهو طفل يرعى الأغنام، فعله أمام فاطمة وأمام غيرها من البنات لدوافع لا تحتمل أيّ التباس: مرّة لكي يبول، وأخرى لكي يسبح في بركة ماء، وثالثة لكي يعرّض بدنه للشمس. ولم يكن يشعر بأيّة حُمّى تسري في بدنه، وفاطمة لم تكن تعير انكشاف جسده أيّ اهتمام. هذه المرّة، ارتبكت وأشاحت بوجهها عنه.

جذبها إلى جواره حتى لامس جسدها جسده. تمدّدت على العشب ومشاعر مبهمة تعتريها. التحما فوق العشب على نحو لم يتوقّعاه، ولم يعرفاه من قبل، وظلا ملتحمين وقتًا وهما لا يحسّان سوى وجيب الدماء التي تسري في عروقهما.

بعد أن همدت حركتهما، وانجلت الأحاسيس الحارقة التي اضطرمت في جسديهما، بكت فاطمة واضطربت: أمّي رايحة تنجن إذا عرفت.

قال لكي يطمئنها: أتزوّجك.

أبهجتها فكرة الزواج التي لم تدر بخلدها من قبل، أو ربّما استبعدت وقوعها بمثل هذا الاستعجال. كانت بين مصدّقة ومكذّبة، وظلّت تذكّره بوعده لها شهرين كاملين. وذات مساء، تجمّع رجال العشيرة وبعض رجال العشائر المجاورة في ساحة وسط المضارب. وتجمّعت النساء في مكان قريب من الساحة للاستماع إلى أحاديث الرجال، وهنّ في حالة من التحفّز والترقّب. جلست فاطمة على حجَر وهي مطرقة برأسها إلى الأسفل، ورموشها تنسدل فوق عينيها الواسعتين. رفّ جفناها ورمقت منّان وهو جالس أمامها على حجر. سدّد نظرة نحوها وقال: أنتِ على حجر وأنا على حجر.

بلعت ريقها وقالت: أنا الأنثى وأنت الذكر.

زغردت النساء حالما سمعن كلماتها التي سرت في صدورهنّ مثل سريان النسيم في الحقول. أطلق الشيخ محمّد أعيرة ناريّة من بنادقه احتفاء بالمناسبة، تبعه بعض أفراد العشيرة في إطلاق أعيرة ناريّة من بنادقهم، جعلت قطعان الماشية تجفل في مرابضها، واضطرّت الكلاب إلى الاحتماء بحواشي المضارب.

سهرت العشيرة سبع ليالٍ احتفاء بعرس منّان وفاطمة. حطبٌ كثير أشعلته العشيرة في ليالي العرس، والرجال انتظموا في السامر وسحجوا، ثم عقدوا حلقة الدبكة ودبكوا على أنغام الشبّابة، والنساء رقصن وغنّين وزغردن. والبنات اللواتي لم يتزوّجن بعد، أظهرن مفاتنهنّ أمام أمّهات الشباب لعلّهن يخترنهنّ عرائس لأبنائهن.

ولم يفارق منّان زوجته طوال الأسابيع الأولى للزواج. اعتاد أن يصطحبها معه إلى المرعى. يمضيان النهار معًا، يأكلان الطعام معًا ويشربان حليب الأغنام معًا، والأغنام ترعى على مقربة منهما، ثم يجمعان الزعتر البرّي معًا من سفح الجبل. ويعودان إلى الجلوس فوق العشب وهما متلاصقان، يتبادلان الكلام المهموس، ويستعيدان المتعة التي اقتنصاها هنا في الخلاء. منّان يبدو في غاية الانتعاش، وفاطمة أيضًا، لولا بعض مشاعر من خشية وإحساس بالإثم جرّاء ما فعلت قبل الزواج، يعتريها هذا الإحساس فجأة ثم تقصيه من وعيها كي لا يعكّر عليها بهجة اللحظات التي تقضيها مع زوجها ولا تتكرّر في كلّ الأوقات.

هزّت الفرس رأسها وأطلقت صهيلاً خافتًا كأنّها تنبّه منّان إلى أنّ الوقت يمضي وهو مستغرق في تأمّلاته. هزّ رأسه هو الآخر ونظر إلى

المكان الذي جمعه بفاطمة أوّل مرّة هنا فوق العشب قبل سنوات. الآن لم تعد فاطمة على قيد الحياة، ولا يوجد عشب. أرض جرداء فقط تنتظر المطر وليس ثمة مطر. ركب فرسه وعاد إلى المضارب منتظرًا اقتناع أمّه بالرحيل.

ابنه محمّد الكبير رحل نحو الغرب قبل عام. صار لقبه الكبير تمييزًا له عن أخيه محمّد الصغير. لم يستشر محمّد الكبير أباه. افتقده ذات صباح، ولم يعثر عليه في مضارب العشيرة ولا في الأماكن القريبة منها. قيل إنّه في القدس، وقيل إنّه في يافا يعمل في مواخيرها حيث تكثر اليهوديّات ونساء من جنسيّات أخرى، وقيل إنه وقع في عشق فتاة يهوديّة وتزوّجها. ومنّان لا يصدّق أنّ ابنه الذي تحدّر من صلبه يمكن أن يعمل في ماخور.

في طريقه إلى المضارب مرّ بمقبرة العشيرة. هنا يرقد زوج حفيظة الأخير وثلاثة من أقاربه الذين قتلوا بسببها. هنا قبر والده الشيخ محمّد، وقبور جدّه الشيخ عبد الله قتيل الماء، وجدّته مهيوبة التي كانت متميّزة بين النساء، وزوجته فاطمة. هنا قبور الأجداد والجدّات. قرأ الفاتحة على أرواحهم جميعًا وهو يتذكّر كم تألّم والده من كلمات الضابط التركي!

كان الشيخ محمّد كلما تذكّر موقفه أمام الضابط شعر بألم واستياء، ولم يخفّف من ألمه واستيائه سوى الجندي التركي الذي احتمى بالعشيرة، فكأنّ الشيخ كان على موعد معه. إذ بعد مجيء الضابط بأسبوعين، والحرب في ذروة اندلاعها، وصل علي أوغلو مضارب عشيرة العبد اللات. استجار بالشيخ وقال إنه ضلّ الطريق، ولم يعد قادرًا على الالتحاق بالجيش الذي انسحب من مواقعه وأعاد

التموضع في مكان جديد. قال إنّه ملّ حياة العسكر ولم يقل إنّه هرب من الحرب كي لا يسخر منه رجال العشيرة. تعاطف معه الشيخ وأجاره وخصّص له زاوية في مضافته ينام فيها، إلى أن يتمكّن من تدبير أحواله على نحو ما.

غير أنّ مقام علي أوغلو في العشيرة طال، وأصبح مع الزمن واحدًا من أبنائها. اعتقد الشيخ محمّد منذ البداية أنّ وراء علي أوغلو أمرًا يستدعي بقاءه هنا، وخَمّن أنّه هارب من الجيش، وهو يخشى العقاب ولا يفكّر بالعودة إلى موطنه، رغم ما في ذلك من معاناة.

ظلّ الشيخ يمنحه عطفه ورعايته، وفي ما بعد حينما أصبح منّان، ابن الشيخ محمّد مختارًا للعشيرة، وتوطّدت علاقته مع الدوائر الحكوميّة، قدّم لإحدى هذه الدوائر أوراق علي أوغلو ممهورة بختمه وهي تحمل اسمه الجديد: علي حسّان عبد الله، فأصبحت لديه هويّة فلسطينية شَرْعنتْ بقاءه في البلاد وحمته من عسكر الانكليز، وظلّ اسمه المتداول بين رجال العشيرة ونسائها: علي أوغلو. قال له الشيخ محمّد ذات مساء: أنت يا علي ولد من أولادنا.

اطمأنّ له رجال العشيرة وهو يروي نتفًا من سيرة حياته، وصار يلازم المضارب حينما يغادرها الرجال إلى المراعي أو إلى أشغال أخرى تتطلّب غيابهم عن بيوتهم. كان ينظّف حظائر الأغنام في الصيف وفي الشتاء، ويحرص على تفقّد الأقنية المحيطة بالمضارب كي لا تدهمها أمطار الشتاء. وبدا أنّ حياته استقرّت في البرّيّة، لكنّه ظلّ يشعر بالحاجة إلى امرأة. عزّزت هذا الشعور لديه كثرة الزيجات في العشيرة، كما لو أنّ رجالها لم يُخلقوا إلا للزواج بالنساء اللواتي يتباهين بكثرة إنجاب الأولاد.

ولم يستطع منع نفسه من التحديق في أجساد النساء كلّما خرجن لإحضار الماء، أو اتّجهن نحو الحظائر لحلب الأغنام أو لتقديم الطعام لها. كانت طبيعة الحياة في البرّيّة حيث القسوة وشظف العيش تدفعه إلى ذلك، وكان طقس البرّيّة المتنوّع واتساع المدى فيها يشعل الأشواق في قلبه، فيجعله مشدودًا إلى الرغبات الجسديّة التي تبحث عن إشباع. ولطالما أعجبته الأجساد الممشوقة الملفوفة في ثياب سوداء، أجساد يحرّض حجبها وإخفاؤها على التفكير في النقيض المتمثّل في الكشف والإظهار. وكثيرًا ما هيّجت عواطفه العيون الواسعة والخدود التي موّهت شمس البرّيّة بياضها البهيج. وهو لا ينكر بينه وبين نفسه أنّ ثمة نساء في العشيرة يرسلن إليه كلّما حانت فرصة مواتية نظرات تنمّ عن عواطف مشبوبة، وفيها رغبات لا تحتاج إلى دليل أو برهان. علي أوغلو لم يكن يمضي مع تلك النظرات إلى النهاية لسبب وحيد: الوفاء لمن أجاروه واعتبروه واحدًا منهم. ثم إنّه لا يستطيع أن يحزر ما يفكّرن فيه، فلربّما كانت نظراتهنّ المغوية مجرّد لعب بالأعصاب.

وظلّت تلحّ عليه فكرة واحدة: التقرّب من الشيخ محمّد حتى يرضى بتزويجه من إحدى بنات العشيرة. علي أوغلو يريد امرأة ينام في فراشها بالحلال. هذا ما كان يردّده في الأشهر القليلة الماضية. وسيظهر من بين أبناء العشيرة من يتّهمه بإقامة علاقات خفيّة مع بعض النساء، وسيولد في العشيرة بعد إقامته في مضاربها أطفال، يؤكّد المشكّكون أنّ لهم ملامح علي أوغلو، في حين سيظهر في الوقت نفسه من يقول إنّ هذا التشابه ناتجٌ عن وحام النساء، اللواتي حبلن بأطفالهن في وقت كنّ يرين فيه علي أوغلو الطويل القامة صاحب الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين.

بعد انتظار، ظفر علي أوغلو بامرأة، وقال إنّه مدين مدى الحياة للشيخ محمّد الذي لم يعد مستقرًّا على حال. صارت تتناوشه أفكار شتّى وحسابات. خطرت الرغبة في الزواج مرّة سابعة بباله. ربّما كان السبب راجعًا إلى البلبلة التي أعقبت حواره مع الضابط التركي وظلّت تطارده، أو إلى تكثير الذكور في العائلة، أو إلى الأمرين معًا. همّ بإبداء هذه الرغبة ثم وجدها مربكة له، فآثر تأجيلها ريثما يتزوّج ابنه منّان الذي رغب في الزواج من امرأة ثانية، كما لو أنّ رغبته هذه كانت ردّ فعل على حالة الضعف التي ظهرت عليها العشيرة في الآونة الأخيرة، فلم يبد أيّ اعتراض، بل إنّ فكرة انبثقت في رأسه، بحث عن منّان فوجده قريبًا من حظيرة الأغنام، قال له: نزوّجك ونزوّج أخوتك الثلاثة.

– أخوتي صغار يا والدي.

– لا مش صغار، أكيد بلغوا مبلغ الرجال من سنة.

لم يجد منّان سببًا لمزيد من الاعتراض على كلام أبيه. ليتزوّجْ أخوته، ولتعمر البرّيّةَ أعدادٌ كبيرة من هذا النسل المبارك، ولتجد الصبايا متعتهنّ الحلال مع أبناء عمومتهنّ وأبناء أخوالهنّ، ومع أبناء العشائر الأخرى الراغبين في تغريب النكاح.

اقترن منّان بابنة أحد شيوخ العشائر. لم يكن رآها من قبل. قالت له أمّه صبحاء: بنت حلوة وجهها مثل القمر.

كلمات أمّه جعلته متحمّسًا للزواج بالفتاة. والفتاة نفسها لم تكن تعرف عن منّان شيئًا، أمّها قالت لها إنه ابن شيخ يعرفه أهل البرّيّة كلّهم، ولم تفكّر الفتاة كثيرًا بالأمر، بل إنها تغاضت عن وجود زوجة أولى لمنّان، وكانت راغبة في الزواج منذ أن بدأت الشهوة تلحّ عليها في ليالي أرقها.

بنى منّان لزوجته الجديدة بيتًا على مقربة من بيت زوجته الأولى، وانقطع عن الخروج إلى المضارب سبعة أيّام بلياليها. فسّرت بعض النسوة ذلك بأنّه عائدٌ لجمال مثيلة ولقدرتها على اجتذاب الذكر إلى فراشها أطول مدّة ممكنة. حينما علم الشيخ محمّد بذلك أدرك أنّ جيلاً جديدًا آخذٌ في الانتشار فوق البرّيّة، ما أشعره بشيء من البهجة، وراح يفكّر في الزواج مرّة أخرى.

في زمن سابق، امتلك الشيخ الجرأة على تحقيق رغبته في الحال. هذه المرّة تلكّأ لأسباب عدّة، ثم وجد أنّه أصبح أسير تداعيات متضاربة. وبدا مشتّت الذهن، يمضي ساعات طويلة كلّ يوم محدّقًا في دوّامات الغبار التي تثيرها الرياح، لا يكلّم أحدًا ولا يستمع إلى أحد. كانت تؤرّقه بين الحين والآخر الإهانة التي تلفّظ بها الضابط التركي.

وذات صباح، انحدرت الدموع من عينيه، فبلّلت شعر ذقنه الفضيّة، وقرّر في حشد من أبنائه وبناته وأقاربه التوجّه إلى مكّة المكرّمة لأداء فريضة الحج. قال والدموع ما زالت تسحّ من عينيه: ملاك أبيض زارني في المنام، وبشّرني بأنّي مقبل على زيارة بيت الله الحرام وقبر رسوله عليه السلام.

وقال إنّه لن يذهب إلى الحج، إلا بعد أن يتزوّج بإحدى بنات العشيرة وتحبل منه، ثم يغادرها ضاربًا في الصحراء، متوجّهًا بقلبه وعقله إلى بلاد الحجاز. لم يناقشه أحد ممن استمعوا إليه في ما قال. كلمة الشيخ لا تصير اثنتين. الأبناء تلفّتوا نحو بعضهم بعضًا وقالت عيونهم كلّ ما لم تقله ألسنتهم: أبوهم قرّر الزواج ولا رادّ لمشيئته، والبنات ابتسمن ابتسامات ماكرة حاولن تغليفها بالطلب إلى ربّ العالمين أن يهب والدهنّ العمر المديد.

اقترن بأرملة شابّة في السابعة والعشرين، قُتل زوجها غدرًا أثناء عودته من المدينة. حدبت مهيرة على الشيخ الذي يكبرها بثلاثين سنة، وجعلته يتذوّق طعم الحياة من جديد. ظلّ ملازمًا لها شهرين كاملين قبل أن يحلّ موعد ذهابه إلى الحج، ما أثار غيرة نساء الشيخ الأخريات. وما أثار غيرتهنّ أيضًا، أنّ لمهيرة مشية ناعمة، فهي تدرج على الأرض بسلاسة واسترخاء، وفي الأثناء تتساقط من بين ساقيها كرات ذهبيّة، والنساء يحاولن التقاطها، ينحنين نحو الأرض فلا يعثرن على شيء. وحينما تغسل رأسها فإنّ الماء النازل من خصلات شعرها يتحوّل إلى خيوط من ذهب، والنساء يحاولن القبض على الخيوط ولا يقبضن على شيء، وتبلغ بهنّ الحيرة منتهاها، ولا يتوقّفن عن الانشغال بأمر مهيرة، ويستقرّ رأيهنّ أخيرًا على أنّ ما يتساقط من بين ساقيها هو دم الحيض. صرن يلصقن بها التهم كلّما اصفرّ العشب في المراعي والحقول، فأينما مشت وهي حائض فلا حياة للعشب، ما جعلهنّ يهمسن في جلسات النميمة بضرورة منعها من مغادرة بيتها للحدّ من أذاها ولحصره في أضيق نطاق.

لم يلق الشيخ محمّد بالاً لكلام النساء، ولم يغب عن بال مهيرة كيدهن، فاحتاطت لكلّ شيء بدقّة وانتباه. ولم تكترث لكلّ ما قيل عنها وما سوف يقال

وافق الشيخ على تزويج علي أوغلو واحدة من بنات العشيرة. كانت لدى حفيظة ابنة تجاوزت الثالثة والعشرين ولم يأتها خطّاب. قال له: أزوجك زريعة.

وافق علي أوغلو على الحل.

وصل الخبر حفيظة التي قتل بسببها عدد من الرجال، كان آخرهم زوجها الذي عتيل قبل سبع سنوات. توقّعت أن يرمي واحد

من أخوة زوجها عباءته عليها معلنًا رغبته في الزواج بها، فلم يحدث ما توقّعته، ولم تكترث لما آل إليه حالها. أقصت شهواتها بعيدًا، وربّت من دون تذمّر بناتها الأربع وابنها الوحيد.

طلبت من ابنتها أن تغتسل وترتدي ثوبها المطرّز الجديد. سخّنت زريفة الماء على النار ووضعت اللقن المعدني الدائري في قرنة البيت، ووقفت وسطه واغتسلت، ومشّطت شعرها ثم جمعته في جديلتين. نظرت إليها أمّها بارتياح، وطبعت قبلة على جبينها وقالت: اسم الله عليكِ، ما أحلاك!

جاء الشيخ محمّد وعدد من رجال العشيرة. خطبوا زريفة لعلي أوغلو. وبدا الأمر مفاجئًا لكثير من البنات اللواتي اعتقدن أنّ إقامة علي أوغلو في مضارب العشيرة لن تطول، إلا أنّها طالت.

اقترن بزريفة، وعاشا معًا ثلاث سنوات، ولم يُرزقا بأطفال. كانت زريفة متكتّمة على علاقتها بزوجها، ربّما خوفًا من الحسد أو خشية من تكاثر الشائعات التي بإمكانها إفساد أجمل العلاقات. لم تعرف النسوة الفضوليّات شيئًا عن تفاصيل تلك العلاقة، رغم محاولاتهنّ الدائبة استدراج زربفة للكلام، فلم تتجاوب معهنّ ولم تكشف أمامهنّ أيّ سرّ من أسرارها، ما جعلهنّ يحملن في قلوبهنّ ضغينة لها لم يتخفّفن منها إلا بعد موتها.

وذات ليلة، تحسّست مهيرة بطنها، وقالت للشيخ إنّها حبلى، فامتلأ فخارًا. احتضنها كما لو أنّه ما زال شابًّا في العشرين. وفي الطريق إلى بلاد الحجاز، كانت مهيرة تحتلّ حيّزًا واسعًا في قلبه وهو يقطع الصحراء.

قبل رحلة الحجّ بيوم واحد، توجّه الشيخ في رهط من أبناء عشيرته وبناتها نحو القدس لأداء صلاة الجمعة في مسجدها. اعتبر

هذا الأمر واجبًا يمليه عليه ضميره، وتجديدًا لتعلّقه بالمدينة وولائه لها، وتكفيرًا عن عدم تلبية الدعوة التي وجّهها الضابط التركي إليه للدفاع عنها. الشيخ لم يهبّ للدفاع عن المدينة لانعدام ثقته في حكم الأتراك. والمدينة ظلّت تواصل حياتها رغم الحرب التي تشتعل من حولها. صحيح أنّها أصبحت محاطة بالخطر وقد تسقط في أيدي الانكليز، إلا أنّها ما زالت هناك رغم كلّ شيء، وبالإمكان زيارتها والصلاة في مسجدها.

ركب الرجال الخيول والجمال والحمير والبغال، ومشت النساء على أقدامهن. تمنّت مهيرة لو أنّ الشيخ يردفها خلفه على فرسه الشهباء، فالطريق طويلة وهي لا تحتمل أن تمشي كلّ هذه المسافة، وتلك هي المرّة الأولى التي تزور فيها القدس. ما الغريب في الأمر لو أنّه جعلها تركب الفرس؟ تركب خلفه، وتشعر بمزيد من الحنان حينما يحتكّ جسدها بجسده.

كان الشيخ في تلك الأثناء مشغولاً بهواجسه، فهو على وشك أن يبدأ رحلة مختلفة في حياته، رحلة فيها انتباه للحياة الآخرة، وفيها توبة عن الذنوب، وتغييرٌ للسلوك يقتضيه الحجّ. فالشيخ كانت تغريه الحياة الدنيا، وكانت لديه أطماع ونهم إلى تملّك الأرض وامتلاك النساء. استغلّ حاجة أقرب الناس إليه من أبناء عشيرته ومن أبناء العشائر الأخرى الذين كانت سنوات القحط تدفعهم إلى البحث عن لقمة العيش، فيضطرون إلى رهن أراضيهم أو بيعها بأبخس الأثمان. كانت لدى الشيخ ثروة ورثها عن أبيه، ولطالما تحدّثت عشائر البرّيّة عن جشعه الذي لا يقف عند حد. الآن يشعر بأنّه تجاوز الحدود، وهو لن يتطاول على رزق أحد. ولن يراجع الماضي ويعود عن ظلم اقترفه.

ما مضى مضى والمهمّ لديه ما سوف يكون، ثم إنّه على قناعة بأنّ أبناء عشيرته اغتفروا له ما بدر منه تجاههم، ربّما كانت في قلوبهم أحقاد كامنة، وربّما كانت في نفوسهم مرارة من تصرّفاته. لكنّه يتوقّع أنّ الزمن أنساهم كثيرًا مما كان يعتمل في صدورهم تجاهه.

ولم يكن الشيخ طامعًا في تكثير أملاكه وحسب. كانت له نزوات قبل الزواج وبعده. حينما كان في سنّ المراهقة انهمك والده الشيخ عبد الله في تأمين حصّة العشيرة من المراعي ومن موارد المياه، وهو انهمك في مطاردة النساء. يتعقّبهن وهنّ ذاهبات إلى البئر أو إلى البركة لجلب الماء. يتأمّل جمالهنّ بلهفة، ويطلق كلام الغزل من غير تحفّظ أو احتراس. ولم يقصر مغامراته على بنات عشيرته، بل تجاوزهنّ إلى بنات العشائر الأخرى. ينتظرهنّ لدى عودتهنّ من المدينة، ويبتدع حيلاً شتّى، كأنْ يتقمّص شخصيّة ضرير أبله ليشجّعهن على الاقتراب منه. يشفقن عليه ويجلسن قريبًا منه ويطعمنه من الحلوى التي اشترينها. تغريهنّ شخصيّته البلهاء بالتحلّل من الاعتبارات التي تحرص عليها النساء، فيتبسّطن في الحديث معه ولا يجدن حرجًا في التعبير عن رغباتهن، وهو يستثمر حاجتهنّ إلى ذلك فيضرب على الوتر الحسّاس، وهنّ يطلقن لرغباتهنّ العنان فيصلن معه إلى حدود بلغة الانكشاف، وهو يقود الدفّة بخبث وذكاء، ويقضي أوقاتًا ممتعة معهنّ تتكرّر بين الحين والحين.

وحينما بلغ به التمادي حدوده القصوى، عشق امرأة من عشيرة الرواجفة اسمها حفيظة (ستصبح في ما بعد زوجة لأحد أبناء عشيرته، وسيخطب ابنتها لعلي أوغلو)، انتشر صيت جمالها في البرّيّة، وتزاحم الخطّاب على بيت أبيها، كلٌّ منهم يريدها لنفسه. وحينما عشقها

محمّد ابن الشيخ عبد الله، كانت متزوّجة من ابن عمّها الذي قتل غريمًا له ظلّ متيّمًا بها إلى أن خسر حياته بسببها. اعتاد محمّد أن يركب فرس أبيه ويذهب إلى مضارب الرواجفة بعد الغروب. يكمن قريبًا من المضارب إلى أن تأتيه حفيظة، يقضي معها ساعة ثم يفترقان. وذات مرّة، بلغت بها الرغبة في كسر المألوف حدّ مراهنته على الخروج للقياه من بين النساء، وهنّ يغنّين في بيت العرس الذي سيكون لأحد أبناء عشيرتها. تعجّب محمّد من رغبتها في التحدّي وطاب له أن يدخل هذا الرهان. تسلّل عند بزوغ القمر من الشرق، وكمن على مقربة من البيت الذي كانت النساء يرقصن فيه ويغنّين. انسلّت حفيظة من بينهنّ وخرجت من البيت. رأى طيفها قادمًا نحوه من مسافة ما، وقبل أن تصل إليه فوجئ بعدد من شباب عشيرتها على مسافة منه، وقد انتبهوا إلى وجود فرسه قرب صخرة في المكان. مشوا نحوها وسبقهم هو إليها حينما أحسّ بالخطر يدنو منه. لاحظت حفيظة احتشاد الشباب فتراجعت وعادت إلى بيت العرس. ركب محمّد الفرس ونكزها ومضى مسرعًا ولم يعرفوه، فأتبعوه رصاصة من بندقيّة كانت معهم، فأصيب في كتفه إصابة طفيفة، ولولا أنّه تمكّن من الهرب في اللحظة المناسبة، لأمسى واحدًا من القتلى الذين ذهبوا ضحيّة اللهفة على وصال حفيظة. ولكان قتيل النساء مثلما كان أبوه الشيخ عبد الله قتيل الماء. تكتّم الشيخ على إصابة ابنه، وحينما أدرك أنّه قد يوقعه في فضيحة أو قد يفقد حياته جرّاء نزواته المتكرّرة، بادر إلى تزويجه لعلّه يثنيه عمّا هو فيه. ولم يفكّر باختيار واحدة من بنات العشيرة زوجة له، كان معنيًّا بتمتين أواصر العلاقة مع عشيرة أخرى. قيل له إنّ لدى شيخ المطالقة ابنة جميلة تليق بأن تكون زوجة لابنه.

ولم يعترض محمّد على اقتراح أبيه. خطب صبحاء وأعجبه جمالها وأصبحت زوجته الأولى، وستأتي بعدها ستّ زوجات. محمّد الذي ورث الزعامة عن أبيه، ظلّت عينه فارغة كما يقال، ولم يرتدع عن ملاحقة النساء. ظلّ يلاحقهنّ حتى جاءه خبر مقتل أبيه عند بئر الماء. فأيقن أنّه أوغل في النزوات ولم ينتبه لما يحيط بعشيرته من تحدّيات، فوجد أنّ من واجبه الانتباه. انتبه حينًا وواصل الاستيلاء على أراضي لآخرين حينًا آخر، وظلّت تتجاذب سلوكه شتّى الأهواء.

نفض رأسه ليقصي بعيدًا ما في رأسه من هواجس وذكريات. وبدا كما لو أنّه خَمّن ما تفكّر فيه زوجته التي تمشي خلفه، وكان ينبغي عليه أن يوفّر عليها مغبّة التعب منذ البداية حرصًا على الجنين الذي زرعه في بطنها. أوقف الفرس بالقرب من صخرة، وقال لها: اركبي يا مهيرة.

شعرت بالزهو وهي تعتلي الصخرة، ثم تعتمد على جسد الشيخ قبل أن يستقرّ جسدها فوق الفرس. ركبت خلفه وجعلت ساقيها مضمومتين على جهة واحدة من ظهر الفرس، واستقرّت يدها عند خاصرة الشيخ، وشعرت بأنّها مشمولة بالأمان. والشيخ ابتهج لأنّ زوجة شابّة تركب الفرس خلفه، وترسل إليه رسائل خافتة من يدها من دون أن تبوح بأيّ كلام.

قطع موكبه السهول والجبال والوديان، ومرّ بمضارب للعشائر، وانضمّ إليه بعض أبنائها. واقتربوا من قرى بيوتها مشيّدة من حجارة بيضاء، ومشوا في شارع عريض، ورأوا عربات عسكريّة فيها جنود أتراك، رأوا قوافل من جمال تحمل الأسلحة والذخائر. اهتزّ بدن الشيخ وتذكّر الضابط التركي واختلطت في صدره المشاعر. قال بصوت

سمعته مهيرة وعدد من الرجال: عشنا وسمعنا عن الحرب، حرب في كلّ العالم وفي فلسطين.

ولم يتكلّم أحد، كما لو أنّ الموقف لا يسمح بمزيد من الكلام.

اقتربوا من سور القدس، وربطوا دوابهم في خان داخل السور، ومشوا في سوق تتوزّع على جانبيها الحوانيت، وداعبت أنوفَهم روائحُ اللحوم المشويّة والبخّور والبهارات. ورأوا على يسار السوق كنيسة، وبعد مئة متر كان كنيس.

بدت مهيرة مدهوشة مما ترى، وتمنّت لو أنّها تأتي إلى هذه المدينة مرّة كلّ أسبوع، أو كلّ شهر. وغبطت أهلها الذين يعيشون فيها، واعتقدت أنّ حياتهم أفضل من حياتها التي تحياها هي وعشيرتها في البرّيّة. فيما بعد، عرفت أن أهل المدينة هم جزء من الشعب الذي تنتمي إليه. عرفت أنّها لا تنتمي إلى عائلة العبد اللات الصغيرة، وإلى عشيرة العبد اللات الكبيرة وحسب، بل تنتمي إلى شعب يسكن المدن وقرى الفلاحين ومضارب البدو. عائلتها وعشيرتها تنتميان أيضًا إلى هذا الشعب. ثم تذكّرت العسكر الذين رأتهم في العربات، وارتبكت قليلاً لأنّ المدينة التي أحبّتها منذ الوهلة الأولى، ومعها كل البلاد، في حالة حرب. وحينما سمعت زوجها يقول بهمس مسموع: قدّيش لها هيبة القدس! انتعش مزاجها وغالبت مخاوفها.

ولم يضف الشيخ إلى كلامه أيّ كلام، ومهيرة أيضًا لم تقل أيّ كلام. اكتفت بأنْ تمنّت في سرّها الخير لها ولزوجها ولكلّ أبناء العائلة والعشيرة الذين مشوا بصمت في السوق، واتّجهوا إلى المسجد الأقصى، الذي كانت ساحاته غاصّة بجموع المصلّين من الرجال والنساء. اختاروا لهم مكانًا بين الجموع وصلّوا، وحمدوا الله لأنّه وهبهم نعمة الصلاة في القدس.

بعد الصلاة، انتشروا في أسواق المدينة. أكلوا وشربوا وتكلّموا كثيرًا بعد أن انقشعت الرهبة من نفوسهم. مهيرة كانت مستمتعة إلى أبعد حدّ وعيناها تتملّيان البشر والأماكن والأدراج والأسواق والحوانيت. رأت رجالاً يرتدون العباءات ويضعون على رؤوسهم لكوفيّات مثلما يفعل زوجها، ورأت رجالاً يرتدون البدلات وعلى رؤوسهم طرابيش. رأت نساء مدنيّات بالفساتين التي تظهر من تحتها سيقانهنّ وتعجّبت مما يرتدين، وتساءلت في سرّها: يلبسن هذي لملابس وأزواجهنّ ما يغضبون! كيف؟

حارت في الأمر وتشوّش تفكيرها ثم وجدت أنّ من الأفضل لها تركيز انتباهها على الحوانيت وما فيها من سلع.

أكلت وشربت وتكلّمت وضحكت وراقبت الشيخ بمودّة وحنان، وهو يأكل ويشرب ويتكلّم بصوت مسموع. ولم يبخل عليها بتاتًا، لبّى كلّ رغباتها، وهي رغبات بسيطة على أيّة حال: اشترت حلوى من بائع حلويّات في باب خان الزيت يضع طربوشًا على رأسه، واشترت قماشًا ملوّنًا من بائع كهل في حارة النصارى يضع نظارّات طبّيّة على عينيه. شترت صحونًا وملاعق وسكاكين وكؤوسًا مختلفة الأحجام من بائع في طريق الواد يضع طاقيّة صغيرة سوداء على رأسه، وعادت إلى البرّيّة وفي نفسها شغف بالمدينة لا ينتهي.

❖ ❖ ❖

رَحبت مهيرة بالرحيل وبالاقتراب من المدينة. وجد منّان في موقفها فرصة للتأثير على أمّه صبحاء.

ولطالما أبدت صبحاء عدم ارتياحها من مهيرة كلّما تحدّثت عن ضيقها من العيش في البرّيّة. تقول لها: انت شو بيعرّفك في البرّيّة؟ انت من بنات امبارح.

فلا تدخل مهيرة مع ضرّتها السابقة في نقاش احترامًا لعمرها ولعلاقتها بالبرّيّة، مع أنّها هي الأخرى لم تعد امرأة شابّة بعد كلّ هذه السنوات، وبعد أن تقلّب عليها ثلاثة أزواج. وهي تدرك أنّ صبحاء تحبّ البرّيّة ولا تستطيع مواصلة حياتها بعيدًا منها، كالشجرة التي نبتت في مكان ثم نمت وكبرت، فإن انتُزعتْ من مكانها لتُزرعَ في مكان آخر فإنّها قد تموت. وصبحاء ليست مقتنعة حتّى الآن بالأسباب التي تجعل ابنها راغبًا في الرحيل، أو هي لا تريد أن تقتنع. صحيح أنّ القحط يصيب البرّيّة بين سنة وأخرى، فيزداد شقاء ساكنيها، وصحيح أنّ العيش فيها أصبح أكثر قسوة، لكنّه يظلّ أقلَّ خطرًا من العيش بالقرب من المدينة. ففي البرّيّة لم يتمكّن الأتراك من التحكّم في العشيرة، وفيها لا يأتي عسكر الانكليز كلّ يوم إلى المضارب، ولا يأتي المهاجرون اليهود.

وهي تعي أنّ ابنها لا يريد فرض الرحيل عليها بالإكراه، حاول مرارًا وما زال يحاول إقناعها بالحسنى. يشرح موقفه من عسكر الانكليز ويؤكّد لها أنّ خطرهم واقع على البرّيّة وعلى مشارف المدينة. ويقول: أرضنا هناك، إن ما كنّا قريبين منها يطمع فيها اليهود اللي جايّين من الخارج ويستولون عليها.

يحدّق في وجهها قاصدًا إحراجها: بتقبلي هذا يصير؟

– لا، ما أقبل.

ثم يصمت ولا يستمرّ في مجادلتها كي لا يسبّب لها إزعاجًا. تقول وهي تستذكر زوجها في محاولة لتغيير مسار الكلام: الله يرحم روحك يا حاج محمّد.

تسمعها مهيرة وهي تترحّم على روح الحاج. تترحّم هي الأخرى عليه، وتتذكّر ذلك الصباح حينما غادرها إلى بلاد الحجاز والحرب ما زالت في أوجها. بدت مغادرته كأنّها تحدث يوم أمس مع أنّ سنوات كثيرة مرّت. بكت مهيرة وهي ترى القافلة تغادر مضارب العشيرة، وعلت مع نساء العائلة لتوديع الحجّاج غناء يبعث الأسى في النفوس.

غير أنّها شعرت بالعزاء لأنّها حبلى بطفل الشيخ الذي سيكبر في بطنها أثناء غياب أبيه. اصطحب زوجته الأولى صبحاء، احترامًا لعمرها الذي يؤهّلها للذهاب إلى الحج، ولأنّها ثكلت بولدين في حروب السلطنة، ولم يعد لديها أطفال صغار.

بدت صبحاء مرتاحة لهذا القرار، لأنّ أوقاتًا صعبة مرّت عليها بعد زواجه المتكرّر من ستّ نساء (ماتت واحدة وطلّق اثنتين). كان الشيخ ينقطع عن زيارتها، فتبدو مهجورة ليس لها شأن بين الزوجات. تتبرّم وتثير مشكلات للشيخ ولنسائه الأخريات، تضطرب أحوال العائلة وتتسرّب أخبارها إلى بقيّة عائلات العشيرة. يستاء الشيخ ويهمّ بمعاقبة صبحاء، يقترب منها متوعّدًا مهدّدًا، وحينما يلاحظ أنّها غير مكترثة لتهديده ووعيده، يتراجع، ولا يلبث أن يصل إلى تسوية معها. يخلع نعليه ويقعد في بيتها، فتهشّ وتبشّ له، تضع المساند المحشوّة بالصوف خلف ظهره وتضع المخدّات عند رأس الفرشة لكي يتّكئ عليها ويرتاح. تغلي القهوة وتقدّمها له، ثم تطبخ اللحم على نار الحطب لكي يأكل هنيئًا مريئًا، ويظلّ عندها تلك الليلة ولا يغادرها إلا في الصباح عائدًا إلى بيت واحدة من زوجاته الأخريات. يغيب عنها أسابيع ولا يعود إليها إلا حينما يقع شجار جديد (أثناء غيابه، لا ينقطع عنها ابنها منّان، فهو يعي كم هي محبّة للسمر ولسرد الأخبار وللتعليق

على فضائح النساء. تسرد ما تشاء من حكايات: حديدون اللي ما حد بيقدر يقبض عليه. عوّاد والغولة اللي ضحكت على عقله وقالت له أ أختك وصدّقها والغولة هجمت عليه وأكلته. والبنت المزيونة اللي ما كانت زوجة أبيها تحبّها وتآمرت عليها، وربّنا وقف معها وحماها وجبينة اللي خطفها الغول وحبسها في قصره لولا حبيبها اللي جا وقتل الغول بضربة واحدة من سيفه، الغول قال له: ثنّ، ثنّ. الحبيب قال له: ما علّمتني امّي (لأنّ الضربة الثانية تحييه). حكايات عديد ترويها صبحاء لابنها، وأخبار تتجدّد كلّ صباح وكلّ مساء، وحينه تنتهي من سرد ما لديها من أخبار تصمت لحظة، ثم تلجأ إلى السخري من بعض الأشخاص، فلا تذكر أسماءهم إلا محرّفة أو مجزوءة. وفي بعض الأحيان، تبدأ الحديث عن أيّ شخص قبل أن تذكر اسمه، لكي تستدرج من يستمع إليها للاستفسار عن الاسم المقصود.

ولا يندر أن تخرج عن منهجها هذا في الكلام. تتذكّر ولديها عبد الله وفليحان اللذين قتلا في حروب السلطنة، تسترسل في الحديث عنهما، وتذكر ما كانا يتمتّعان به من خصال. لا يندر أيضًا أن تبدأ الكلام من لحظة محدّدة ثم تواصل إشباع هذه اللحظة وهي متلذّذة بما تقول، ما يدفعها إلى سرد الحكاية الواحدة أو الخبر الواحد مرّات عدّة، وابنها منّان يصغي ويواصل الإصغاء).

ركب الشيخ محمّد جملاً بلون الصحراء، وركبت صبحاء جملا سار قريبًا من جمل الشيخ. ومن خلفهما سار عدد من نساء العشيرة ورجالها وهم يركبون الجمال التي حمّلوها بما يحتاجونه أثناء مسيرة طويلة إلى الجنوب.

صعد منّان قمّة جبل قريب من المضارب، وتبعه عدد كبير من رجال العشيرة ونسائها وأطفالها، ومعهم علي أوغلو. نظروا بعيون

حزينة صوب القافلة التي تنتظرها مصاعب جَمّة على طريق ليست آمنة، فإذا نجا الشيخ ورفاقه من خطر الوحوش، فقد لا ينجون من غارات قطّاع الطرق، وإذا استطاعوا مغالبة هؤلاء، فقد لا يستطيعون مغالبة تقلّبات الطبيعة، أو الثبات أمام وطأة الأمراض.

شيّع منّان والده ووالدته والجمع الموغل في النأي عن مضارب العشيرة، وهو يشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه منذ الآن، باعتباره أكبر أبناء الشيخ، والوريث الشرعي لزعامة العشيرة بعد أبيه. قال بصوت مشوب بالأسى: الله يسهّل طريقهم.

ردّدت من بعده أصوات: آمين يا ربّ العالمين.

تلفّت الشيخ محمّد لآخر مرّة خلفه قبل أن تغيّبه الطريق عن المضارب. شعر بمرارة الفراق منذ اللحظات الأولى لمغادرته زوجاته وأبناءه وأقاربه، مع أنّ وجود صبحاء معه يعزّيه وينسيه بعض همومه التي تزايدت بعد مقتل أبيه. لو أنّ أباه لم يُقتل وهو بعدُ كهل له هيبته، لما تجشّمَ ابنه كلّ هذا العناء، ولما تصدّى للأعباء وللمخاطر دفاعًا عن العشيرة، في سنٍّ مبكّرة.

فبينما كان الشيخ عبد الله يركب فرسه ويقترب من بئر الماء، على مسافة من مضارب عشيرته، برز له عدد من فرسان عشيرة الفرارجة واشتبكوا معه وأردوه قتيلاً ثم لاذوا بالفرار. كان العداء مستحكمًا بين العشيرتين بسبب المراعي وموارد المياه. سقط الشيخ صريعًا، وظلّت فرسه تحمحم بالقرب من جثّته، وحينما اشتمّت رائحة دمه المتخثّر، راحت تشبّ رافعة قائمتيها الأماميّتين إلى أعلى، كأنّها تطلب النجدة. وحينما لم يصل أحد، انطلقت تعدو مثيرة النقع خلفها، ولم تتوقّف إلا أمام مضارب العشيرة. أبصر محمّد فرس أبيه تعود من دونه، فأدرك أنّ أمرًا فادحًا وقع. استصرخ أبناء العشيرة: وين راح النشامى؟

جاءته أصواتهم من كلّ الجهات: ابشر، إحنا معك.

هبّوا يبحثون عن الشيخ. خَمّنوا من هم القتلة، فقرّروا الإغارة على عشيرة الفرارْجة، ووقعت مصادمات تكبّدت فيها عشيرة الشيخ القتيل خسائر أخرى.

كان محمّد يعلم، وهو يقود أبناء عشيرته، أن لا طاقة له على إلحاق الهزيمة بقتَلَة أبيه. تصدّعت همّة العشيرة أمام وطأة الخصوم، وكادت ترفع رايات الذلّ والاستكانة، لولا أن هبّت ثلاث من عشائر البرّيّة مدفوعة بالرغبة في حقن الدماء، فأخذت عطوةَ دمٍ بين العشيرتين المتقاتلتين، ثم تلاها صلح أسفر عن اتّفاق على صيغةٍ تنظّم حقوقهما بالتساوي في المراعي وموارد المياه.

رغم هذا الصلح، ظلّ الشيخ محمّد بعد أن ورث الزعامة، يعتقد أنّ دماء أبيه الذي كان مختار العشيرة ذهبت هدرًا، وبات يؤرّقه الإحساس بضعف عشيرته أمام العشائر الأخرى، فقرّر الإكثار من الزوجات، لاستيلادهنّ أعدادًا كبيرة من الأولاد. بكّرت زوجاته بحمل البنات، ثم ولدن عددًا من الأولاد الذكور حصدت حروب السلطنة اثنين منهم، ولهذا ظلّ يتحسّب من دخول المخاطر، فكان موقفه الذي اتخذه أثناء استنجاد الضابط التركي. تذكّر علي أوغلو، وأيقن أنّ خذلانه للضابط هو الذي دعاه إلى منح الجندي الهارب من الجيش إقامة في مضارب العشيرة.

وحينما قتل الشيخ عبد الله عند بئر الماء شقّت مهيوبة ثوبها عن صدرها. هالة مريعة نشرها الموت على الصدر والوجه والقوام. نثرت شعرها حتى غطّى وجهها وكتفيها، ونعفت التراب على رأسها. لطمت وجهها وحفرت خطوطًا دامية بأظافرها على خدّيها. بكته نساء العشيرة ولطمن خدودهنّ حزنًا عليه ورثينه بأصوات ملتاعة:

يا نايحه نوحي عليه نوحي
عبد الله امّدّد على اللوحِ

ولم يفارقها الحزن. كانت تزور قبره كلّ صباح، تحدّثه عن حوالها، تستذكر أيّامها معه، وهي على يقين من أنّه يسمع كلامها، تحدّثه عن أخبار العشيرة وتسرد عليه كلّ شيء بالتفصيل، ثم تصمت وهي تجفّف دموعها، وتطلق تمتمات خافتة: يا حسرتي عليك يا عبد الله.

كانت أنوثتها في تمام نضجها حينما رحل عنها الشيخ، وهي لأكثر تألّقًا بين بنات جيلها. كانت عفيّة الجسد، جميلة، قليلة الكلام، حازمة في مواقفها. تقدّم لها، منذ بلغت الرابعة عشرة، خطّاب من أبناء عشيرتها ومن عشائر أخرى، ولم تقبل أيًّا منهم. ظلّت مصرّة على أنّها لن تتزوّج إلا من رجل فارس مقدام، وكان الشيخ عبد الله هو ذاك الرجل. منذ أن رأته عند بئر الماء اندلعت في قلبها رغبة جامحة، وقالت لنفسها: هذا هو. وتزوّجته.

استمرّ حدادها عليه سبعة أعوام، رفضت خلالها الخطّاب الذين جاءوا إلى أبيها. لبست السواد وظلّت ممتنعة عن ممارسة الفرح، لا تذهب إلى الأعراس، ولا تحتفل بحلول الأعياد، ولا تبارك للمرأة بمولود. أخيرًا، تزوّجت رجلاً من عشيرة زوجها وعاشت معه عددًا من السنوات.

وهي ما زالت تذكر كم كانت معتدّة بجمالها! ما يضفي على هذا الجمال رصانة وبهاء. رآها الشيخ عبد الله وهو يقترب من بئر الماء لكي يسقي فرسه. كانت تملأ الماء في قربتها ومعها بنات أخريات.

طرح عليهنّ السلام ورددن عليه السلام، وملأت مهيوبة الدلو ودلقت الماء في الحوض، وفي الأثناء، تأمّلت بنظرة خاطفة وجه الشيخ وشعرت بانجذاب إليه. تأمّل الشيخ جمالها وأعجب بها وهي تنشل الماء من البئر وتدلقه في الحوض. قال معلّقًا لتخطّي عتبة الصمت: الفرس عطشانة.

ابتسمت وقالت: خلّها تشرب.

راقته رنّة صوتها. سألها: من أي عشيرة أنت؟

قالت بخفر وحياء: من عشيرة الرماضنة.

قال: أنا أعرف زعل أبو رمضان.

قالت: هو أبي.

في المساء، حلّ الشيخ ومعه عدد من رجال عشيرته ضيوفًا على الرماضنة، وحينما قُدّمت له ولمن معه القهوة امتنعوا عن شربها إلى أن يلبّي زعل أبو رمضان طلبهم. وعدهم بأن يلبّيه إن كان بمقدوره ذلك، طلب الشيخ عبد الله يد مهيوبة (خالف العادات المرعيّة وجاء بنفسه تعبيرًا عن اللهفة ونفاد الصبر). فاستجاب زعل أبو رمضان لطلبه، لأنّ مصاهرة الشيخ عبد الله شرفٌ له ولعشيرته. مهيوبة حمدت الله في السرّ وفي العلن لأنّها صادفت الشيخ عند البئر، فعرفها وجاء يخطبها في الحال.

خرجت في يوم عرسها من بيت أبيها وهي متلفّعة بعباءته المقصّبة، وكان يمشي إلى جوارها ويقودها من يدها والنساء يغنّين. ساعدها في الركوب على ظهر جمل، وانتهى بها المطاف في مضارب عريسها معزّزة مكرّمة، في كنف زوجها الشيخ، إلا أنّه قتل بعد خمس وعشرين سنة، فلم تهنأ بالعيش معه وقتًا أطول. كانت تشتهي أن تعيش معه مئة عام.

قُتل الشيخ وبقيت من بعده فرسه.

وما زالت مهيوبة تذكر كيف تغيّرت طباع الفرس. ظلّت تقف في مربطها أيّامًا وهي ساهمة واجمة، تحدّق ببلادة نحو الأفق، كأنّها تحاول أن تستذكر ما حدث للشيخ. بعد ذلك، أخذت تحمحم وتخبط الأرض بقوائمها.

وذات مساء، قطعت مرس الكتّان، وانطلقت تعدو عبر المضارب مبتعدة إلى حيث قبر سيّدها. وقفت تحفر ترابه بحافرها، ثم لم تلبث أن رفعت رأسها إلى السماء، كأنّها تستغيث بقوّة مجهولة لإنقاذ الشيخ مما حلّ به. وبعد أن اعتراها اليأس، عادت إلى مضارب العشيرة مطأطئة الرأس، لتراقبها النسوة متأسّيات، يسارعن إلى ربطها، يقدّمن لها التبن والشعير. تقف مهيوبة بالقرب منها، تمسّد رقبتها وتتأمّل جسدها. تغمر الفرس رأسها في عليقة الشعير، ثم ترفعه في عصبيّة، وتمعن في الصهيل الذي يستمرّ إلى ساعات الليل المتأخّرة.

مرّت على الفرس فترة هدوء، وبدا أنّها نسيت كلّ شيء، فلم تعد النسوة يسمعن صهيلها إلا في أوقات متباعدة. ولم تستمرّ على هذه الحال، قطعت المرس ذات ليلة، وانطلقت تعدو. وفي الصباح فتقدتها العشيرة. بحث الرجال عنها في الفيافي والقفار، سألوا عنها العشائر الأخرى، ولم يعثروا لها على أثر. استمرّ بحثهم سبعة أسابيع، اعتقدوا أنّها ماتت، فتأسّوا عليها. وبكتها مهيوبة.

2

في بادئ الأمر، لم تكن معنيّة بالأحاديث التي ترويها النساء عن الفرس. ولم تكن أمّها ولدتها حينما قتل الشيخ عبد الله. وحينما شاع قرار الرحيل من البرّيّة، صارت الفرس تأتيها في المنام، تطلق صهيلها الملحاح كما لو أنّها تحتجّ على أمر ما. كانت مبلبلة الذهن تجاه الرحيل، تتحمّس له لأنّ حياتها في البرّيّة لم تكن تخلو من منغّصات، وفي الرحيل فرصة للنسيان، ثم تعود للتذمّر منه، وترى أنّ العيش في البرّيّة له مزايا لا يمكنها التفريط فيها. هنا الخلاء الفسيح والسهول والجبال والنظر الدائم إلى السماء وإلى الشمس والقمر والنجوم. صحيح، أنّ الإقامة قريبًا من القدس تعد بتوقّعات مريحة. ويمكن من هناك الاستمرار في تأمّل السماء والنجوم والقمر والشمس، إلا أنّ ما ستفتقده مثيلة: هذا الفضاء المفتوح الذي لا يتوافر إلا في البرّيّة. زارت القدس مرّات عدّة خلال السنوات الماضية، ولاحظت حضورًا بشريًّا لا ينقطع في المكان. لاحظت أنّ أراضي العشيرة المتاخمة للقدس، محاطة بالقرى، وستعيش العشيرة في مدى محدود، وهي تتخوّف من هذا وتخشاه.

والخشية على أيّة حال لم تفارقها منذ الأشهر الأولى لزواجها، حينما كانت ترقب كثرة الزيجات في العشيرة، ولهفة النساء على إنجاب الأطفال. انقضت أشهر عدّة على زواجها وهي لم تحمل بعد، وصار منّان يتبرّم ضيقًا من تأخّر حملها. ضرّتها فاطمة صارت تكثر من التباهي أمام نساء العائلة بابنها محمّد الذي يحمل اسم جدّه شيخ العشيرة. كانت مثيلة تشعر بالغيظ، ولا تجد وسيلة للردّ على ضرّتها إلا بمواصلة الاعتناء بجسدها، تسخّن الماء على نار الحطب وتغتسل، تفرك جسدها بالليفة والصابون، ثم تجلس في وسط البيت، تمشّط شعرها الطويل. إلا أنّها لم تعد تثق في أنّ زوجها لن يفضّل ضرّتها عليها، أو لن يبادر إلى الزواج بامرأة أخرى. أصبح قلقها يتزايد يومًا بعد يوم.

ذات صباح، والسماء ملبّدة بالغيوم، دخل الساحة الممتدّة وسط المضارب رجل، يسوق أمامه حمارًا أرهقه قطع المسافات، وعلى ظهره خُرْجان فيهما بضائع ومساحيق ملفوفة بأوراق. يضع الرجل على رأسه طربوشًا، وله شاربان كثّان. ارتفع صوته مناديًا: دوا للحبل يا نسوان.

كرّر نداءه مرّات عدّة. هرعت إليه نساء العشيرة، تحلّقن من حوله ينظرن إلى بضائعه ومساحيقه التي أخذ ينثرها أمامهن، فيما انشغل الحمار عن كلّ ما حوله، فخمدت حركته وأرخى أذنيه على جانبي رأسه واستراح.

حينما سمعت مثيلة النداء، تركت شعرها ينساب على كتفيها وأزاحت رِدْن البيت وأطلّت لتستطلع الخبر. رأت الرجل وآثرت أن تتمهّل في الذهاب إليه ريثما يخفّ احتشاد النساء. أصغت إلى ما يدور بينه وبينهن من أحاديث، ورعشة تعتري جسدها، كما لو أنّها تعبير عن رغبتها في أن تحبل بولد.

لم تقتصر تجارة الرجل على دواء الحبل، فقد حمل معه وصفات تنفع لعلل شتّى. راح يفضّ أوراقه الملفوفة بإحكام وهو يقول: هذا الدوا يشفي من لسع العقارب والأفاعي، وهذا يمنع الأحلام المزعجة والكوابيس.

تهافتت النساء على ما يعرضه. قايضنه بأقراص من الجبن وأرغفة من الخبز وجواعد وفيرة الصوف، ثم انصرفن إلى بيوتهن، كلّ واحدة منهنّ مشغولة بتفحّص ما اشترته. كانت المضارب خالية من الرجال، حتى علي أوغلو لم يكن هناك، والطقس بارد. انتظرت مثيلة التاجر، وكانت معنيّة بألا تعرف نساء العشيرة ما ترغب فيه. أشارت إليه أن يقترب منها فاقترب وقالت: بعني دوا للحبل.

حدّق فيها بعينين متفحّصتين، أنزل الخرجين عن ظهر الحمار، ودخل البيت. تشاغل بترتيب بضاعته ريثما خفّ اضطرابها واعتادت وجوده معها. أنزل رِدْن البيت المشرع فانتشرت عتمة خفيفة في المكان. تأمّلت وجهه واطمأنّت إلى ملامحه الهادئة. أشعل نارًا، فشعرت بالدفء وأحرق شيئًا من البخّور، فضّ بعض أوراقه ورمى ما فيها من مساحيق في النار.

أطلق تمتمات متزامنة مع خيوط الدخان الصاعدة نحو الأعلى. زاغ بصرها، ولم تعد تأبه لشيء سوى الرغبة في إنجاب ولد. طلب منها أن تستلقي على ظهرها وأن تغمض عينيها. تردّدت، وخطرت ببالها حكايات عن دجّالين يخدعون النساء وينالون منهن. حدّقت في وجهه ورأت الهدوء نفسه يفيض من ملامحه، فاستبعدت أن يكون واحدًا منهم، أو لعلّها بسبب رغبتها في الحبل، لم تشأ أن تذهب بها الظنون بعيدًا.

استكانت لطلبه واستلقت وأغمضت عينيها. ولم تعد تسمع سوى فرقعة المساحيق التي يذرّها فوق النار، مصحوبة بتمتماته. واستطاعت غير مرّة أن تحسّ بيده وهي تمرّ من فوق صدرها. فتحت عينيها. احتجّ قائلاً: إذا فتحت عينيك مرّة ثانية فسد كلّ شيء.

أغمضت عينيها واستسلمت لمشيئته، وتذكّرت أنّ نسوة كثيرات في العشيرة حبلن من ليلة الزفاف، وهي لم تحبل. ضرّتها حبلت بابنها قبل ليلة الزفاف، يعني بالحرام. هذا ما قالته لها بعض نساء العائلة. تخدّرت أحاسيسها وتمنّت لو أنّ التاجر يخرج الآن، ويدخل عليها منّان ليعرّيها بهياج كما اعتاد أن يفعل. لم يأت منّان والتاجر لم يخرج، فازدادت شهوتها ضرامًا. مرّت يده فوق صدرها وبطنها، فلم تُبد أيّ اعتراض. تجاسرت يده وعبثت بثوبها، بينما فقدت السيطرة على جسدها واستكانت لما يحدث لها.

عند الظهيرة، هبّت الرياح السوافي. تخلّعت الأوتاد. تقطّعت الحبال. اهتزّت البيوت. انقلبت القدور. بذل على أوغلو جهدًا استثنائيًّا لتثبيت البيوت في أماكنها، وراح بركض هو وزوجته زريفة مع النسوة والأطفال لاسترجاع الأواني التي طيّرتها الريح. شعرت مثيلة بالحرج وهي تعاون منّان في تثبيت أركان البيت، ثم راحت تركض هنا وهناك خلف الأمتعة المتطايرة، تقترب من علي أوغلو حينًا ويقترب منها علي أوغلو حينًا آخر أثناء الركض والانحناء والتوقّف الخاطف، والعودة إلى الركض للقبض على ما تطاير من أمتعة.

هطلت أمطار غزيرة ثلاثة أيّام، تدفّقت سيول هادرة، جرفت معها بعض قطعان الماشية، وهدّدت أبناء العشيرة بالغرق. ظلّوا يراقبون هيجان الطبيعة، إلى أن توقّف هطول المطر، وانقشعت الغيوم من السماء، وعاد السكون يجلّل وجه البرّيّة ويخيّم على الوديان.

خرج الرعاة مع قطعانهم، وصدحت الشبّابات في ثنايا الشعاب، وجاء أحد الرعاة يركض لاهثًا. تمتم ببضع كلمات وهو مرتبك، فانطلق أبناء العشيرة مسرعين إلى حيث أشار. ركضوا مسافة غير قليلة، وبالقرب من مقام سيّدنا حامد، وجدوا التاجر جثّة هامدة، وغير بعيد منه وقف حماره وفوقه خُرْجان فيهما بضاعة بلّلها المطر.

تضاربت الأقوال حول أسباب وفاته. بعض الناس قال من شدّة البرد. آخرون قالوا إنّه مات مخنوقًا، وثمة توقّعات أخرى: ربما هاجمه لصوص وقتلوه. ولم يصمد هذا الرأي أمام الوقائع، لأنّ تفتيشًا سريعًا لجيوبه أثبت أنّ فيها قطعًا نقدية.

غسلوا جثّته، كفّنوها بخرق من قماش أبيض، صلّوا عليها، وقرّروا دفنها في المكان الذي وجدوها فيه، اعتقادًا منهم أنّ موته في هذا المكان لم يكن إلا لحكمة لا يعلمها سوى ربّ العباد. حاروا في أمر البضاعة التي على ظهر الحمار، ثم أجمعوا على أنّه لا يجوز المساس بها بسبب ما تتّسم به من غرابة وغموض.

مثيلة تتذكّر الآن كيف نُسجت حكايات حول التاجر، وتشكّلت هالة حول اسمه حدّ اعتقاد بعض النساء والرجال أنّه وليٌّ من أولياء الله، رغم الشكوك التي ظلّت تتناوشه بين الحين والحين.

ولم تكن صبحاء مقتنعة بأنّ تاجرًا يأتي إلى مضارب العشيرة يمكنه أن يكون وليًّا من أولياء الله لمجرّد اقتناع بعض الناس به. قالت إنّ للولي علامات، ولا يحقّ للناس أن يتهافتوا على هذا النحو الذي يسيء إلى أولياء الله. قالت إنّ أمر سيدنا حامد مختلف عن هذا كلّ الاختلاف.

ظلّت تروي لابنها منّان حكايات لا تنتهي عنه. قالت وهي ترجو الله أن يرضى عن روحه ويجعل الجنة مثواه، إنّه، وطبقًا لما سمعته

من جدّتها، جاء سيدنا حامد إلى العشيرة وهو في حالة تثير الشفقة. جاء بملابس رثّة ولم يكن تناول طعامًا منذ أيّام. أطعمته العشيرة وقلّمت أظافره وحَمّمته ومنحته الكساء. ولم يكفّ طوال الوقت عن التأسّي على محبوبته التي اختطفها منه جنّي كافر، فلم يعد يعرف عنها شيئًا. وفي رواية أخرى، أنّ حامد لم تكن له محبوبة من لحم ودم مثل سائر بني البشر الذين يعشقون النساء، ويتقرّبون منهنّ لإشباع رغبات أرضيّة فانية. يقال، وعلى ذمّة الرواة الذين عاصروا سيّدنا حامد أنّه كان يقصد الذات الإلهية بكلامه وبغزله وبتهجّده في الليل وفي النهار، وهذا أمر لا تحبّ صبحاء، كما تقول، الخوض فيه، لنقص المعرفة وخوفًا من الوقوع في الزلل، إلا أنّها ترى فيه ميزة تضاف إلى مزايا سيّدنا، وعلامة أخرى من علامات أهليّته ليكون وليًّا من أولياء الله.

عطفت عليه العشيرة، وعرضت عليه أن تزوّجه بنتًا من بناتها إكرامًا له وتعبيرًا عن صدق النوايا تجاهه، فلم يوافق على هذا العرض، لأنّه يصرفه عن التفرّغ لما كرّس نفسه له من عبادات ومن قيام في الليل لذكر الله، ولأنّه لا يمكنه نسيان محبوبته التي يلهج بذكرها صباح مساء. وقالت صبحاء إنّ جدّتها لم تعش في زمانه، وكذلك الحال بالنسبة لجدّتها التي سمعت عنه من جدّة لها عاشت مئة وسبع سنين. قالت إنّه عاش معزّزًا مكرّمًا في رعاية العشيرة رغم بعض المشكّكين الذين اعتبروه شخصًا ينطوي على مكر ودهاء، وهو ليس إلا واحدًا من الدجّالين الذين يظهرون بين آونة وأخرى ويخدعون الناس باسم الدين. وقيل إنّه شعر بوجود أشخاص مناوئين له، فكان لا بدّ من ردّ حاسم عليهم، فلم يعد يأكل الطعام الذي ترسله له العشيرة. صار

يوجّه دعاء إلى ربّ السماوات والأرض كلّ صباح، ينتظر قليلاً، فتهبط إليه مائدة حافلة بأنواع الطعام، يأكل منها ما يشاء، ثم يوزّع الباقي على فقراء العشائر وعلى ذوي الحاجات الذين يجوبون أنحاء البرّيّة في كلّ الأوقات.

ورغم كراماته الأخريات اللواتي لم يصل علمهنّ إلى صبحاء، استمرّت الشكوك المثارة من حوله إلى أن توفّاه الله. حاول الرجال حمل نعشه ولم يستطيعوا، ظلّ النعش متشبّثًا بالأرض لا يتزحزح من مكانه، فحار الرجال ماذا يفعلون. قرأوا فوق رأس الميّت عددًا من التعاويذ، وفجأة وجدوا النعش يطير ويمضي نحو الغرب، والرجال يتبعونه وهم يهلّلون ويكبّرون، ثم حطّ في المكان الذي هو فيه الآن. فأيقن كثير من الناس أنّه ولي من أولياء الله الصالحين، وشعروا بالرضى لأنّهم لم يقصّروا معه في حياته وإلا لتعرّضوا لعذاب الضمير، وقالت صبحاء إن جدّتها روت لها أنّ بعض الناس شكّكوا في طيران النعش وقالوا إنّ هذا وهم من الأوهام. الجدّة لم تقتنع بما قاله هؤلاء، وصبحاء لم تقتنع بما قالوه، وظلّ اسم سيدنا حامد يحظى بالتقدير والتبجيل.

صبحاء وجدت في طيران النعش وهبوطه فوق أرض البرّيّة، تعزيزًا لرغبتها في البقاء فيها. كان بإمكان النعش أن يواصل الطيران حتى مشارف القدس، لكنّ سيدنا حامد آثر البقاء في البرّيّة، وهي ستبقى مقيمة حيث هو مقيم.

كان منّان يستمع إلى كلام أمّه وهو معجب كيف يتوارث الناس الحكايات جيلاً بعد جيل.

ولا يمكن أن ينسى كيف عادت فرس جدّه الشيخ عبد الله بعد غياب طويل إلى الظهور في مربطها ليلة أو ليلتين، فلم تطمئنّ

النساء إلى هذا الظهور المريب. كانت فاطمة هي أكثر نساء العائلة حزنًا على الفرس التي غابت، وهي تعتقد أن هذه الفرس التي تظهر بين الحين والآخر ليست إلا جنّيّة متخفّية. ترمق فاطمة مربط الفرس ويغشاها الحزن. ولطالما شكّكت النساء في دوافع حزنها وأرجعنه إلى أسباب أخرى. فقد أكثرَ منّان من اهتمامه بمثيلة، ولم يعد يلتفت إلى فاطمة إلا على فترات متباعدة. ظلّت فاطمة تبحث عن وسيلة لاجتذاب منّان.

دخل مضارب العشيرة عرّاف يحمل في يده مخلاة فيها خبز وتمر وبعض أطعمة جادت بها العشائر المجاورة عليه. تحلّقت من حوله النسوة، في محاولة لاستجلاء المجهول، وللتعرّف إلى حظوظهن. تساءلت فاطمة عن حظّها وهي تقدّم للعرّاف ثلاثة أرغفة وحفنة من تمر. قال وهو يحرّك حبّات سبحته: أمامك طريقان: طريق إلى اليمين وطريق إلى اليسار.

كتمت أنفاسها منتظرة بقيّة كلامه. قال: امضي في الطريق اليمين، هناك قصر، على بابه حيوان له رأس إنسان، اقتربي منه، إلمسي وجهه بحنان، قلّمي أظافره، تنزل الدموع من عينيه المقلوعتين، وبعدين، لا تخافي، مرّي بسلام.

حفظت كلمات العرّاف، وظلّت تستعيدها حتى تتأكّد من حفظها بلا تلعثم أو ارتباك. ثم فطنت إلى أنّها يجب أن تجلو مستقبل ابنها محمّد. حدّق العرّاف في وجهه، وقال: هذا الطفل يكبر بلا صعوبات. مسّد شعره وأضاف: يكبر ويتزوّج ويرزق بأولاد وبنات.

ثمّ قال: يواجه هو ونسله أعداء أكثر من الهمّ على القلب.

خافت فاطمة على ابنها. خافت عليه من خطر الحروب. طمأنها العرّاف: ابنك لن يتعرّض للأذى. يعيش حياة طويلة. نسله يملأ الأرض.

فعلت كلمات العرّاف فعلها في العشيرة. حمدت فاطمة ربّها لأنّ النساء سمعن كلّ كلمة قالها، وإلا فقد تتعرّض روايتها لما قاله، عن مستقبل ابنها، للتشكيك والتكذيب. عاد منّان إلى التقرّب منها مجدّدًا. صار ينام الليالي الطوال في فراشها، على أمل أن يستولدها مزيدًا من الأولاد.

خرجت ليلًا لقضاء حاجتها، وإذا أمامها كائن ضخم الجثة يتبعها أنّى ذهبت. حاولت أن تتذكّر ما تحفظه من تعاويذ لطرد الشياطين والكائنات الشرّيرة التي تنشط في الظلام. كان هول المفاجأة أقوى من قدرة ذاكرتها على الحفظ. صرخت بأعلى صوتها وسقطت مغشيًّا عليها. أفاق منّان، وأفاق أبناء العائلة على الصرخة المدوّية. رأوا فرسًا مهيبة تقف في جلال. تحرّكت الفرس بخطوات ثابتة، مشت إلى حيث المربط القديم، وظلّت تنتظر ثلاثة أيّام لعلّ أحدًا يقدّم لها عليقة العلف، أو يبادر إلى ملاطفتها وملامسة عرفها بيده، فلم يقترب منها أحد. اعتقد منّان ومعه آخرون أنّ أرواحًا شرّيرة تلبّست الفرس التي وفدت إليهم لغايات خفيّة، ولم يصدّق أنّ فرس العائلة هي التي يراها في مربطها، وقد عادت بعد غياب.

أخذت النسوة يراقبنها في خوف وقلق، ولم يجرؤن على الدنوّ منها. وصرن يمنعن أطفالهنّ من اللعب في الساحة. ومنذ تلك الليلة أصيبت فاطمة بلوثة في عقلها (نساء العشيرة اعتقدن أنّ الجنّ لمسوها). صارت تمشي على غير هدى وهي شاردة النظرات.

في مساء اليوم الثالث، مالت الفرس برأسها نحو الأرض ثم رفعته عاليًا ومرقت من بين المضارب. تجمّعت نسوة العشيرة ورجالها، وأخذوا يتابعونها واجفين. ركضت مسافة ما، توقّفت، أدارت

رأسها نحو المضارب، شعر الجميع كأنّ لها ألف عين. اقشعرّت أبدان النساء والتصقن بالرجال. أطلقت الفرس صهيلاً محمومًا، خبطت الأرض بقائمتيها الخلفيّتين، وانطلقت تعدو عبر الغبش الداكن. ظلّ أبناء العشيرة يرقبونها حتّى اختفت، سيطر عليهم الذهول، وبلغت بهم الخشية حدًّا جعلهم غير قادرين على الافتراق.

اتجهوا إلى الساحة التي تتوسّط المضارب، وكان لا بدّ من فعل جماعي يحميهم من خطر ما. لم يتبيّنوا هذا الفعل تمامًا لكنّهم أحسّوا به قادمًا من جهة ما في قرارة أنفسهم. أحضروا حطبًا، كميّات كبيرة من الحطب أحضروها. أوقدوا نارًا عظيمة. انبجست من أعماقهم رغبة في صياح محموم لملء الفراغ الممتدّ من حولهم، وبدت أرجلهم متحفّزة للتعبير عن أقصى ما لديها من قدرة على الحركة التي تمثّل تراث أجدادهم الأوائل في الكرّ والفرّ. وجدوا أنفسهم يرقصون من حول النار رقصًا لا يشي ببراعة أو تعبير عن رغد اللحظة التي يجتازونها، بقدر ما يشي بالرغبة في التحرّر من الخوف. بدوا كما لو أنّهم بحركة أجسادهم التي تحكمها دوافع شتّى يفكّون قيودًا غير منظورة، ويختبرون ما يكمن في نفوسهم من قدرات دفينة لا تظهر إلا عند الإحساس بالخطر.

أبدت النسوة أيضًا رغبة في التعبير عمّا يعتريهنّ من أحاسيس. وعلى إيقاع النار التي تتّقد حينًا وتخفت حينًا آخر، رقصن أمام الرجال ومعهم في الساحة نفسها وفي الحيّز المتاح نفسه، ولم تخطر ببالهنّ المحظورات التي اعتدنها. شعرن بأنّ أحاسيس من أزمنة سحيقة تستيقظ في أعماقهنّ على نحو لا يستطعن التعبير عنه إلا بهذا الرقص، والرجال ساورتهم أحاسيس متأجّجة، فانخرطوا في الرقص مع النساء،

ومن لم يستطيعوا الرقص لسبب أو لآخر جلسوا على الأرض وراحوا يحفنون التراب الناعم بأيديهم ويرشّونه على من حولهم.

وقف عثمان على مسافة ما وهو يتنفّس هواء البرّيّة العذب الذي يهبّ على المضارب باعتدال، وراح يتأمّل النار التي تقتطع للعشيرة مساحة من امتدادات العتمة المخيّمة على السهول والجبال، فتجعل كلّ شيء تحت هيمنتها لولا النار التي تضفي تعديلاً على المشهد. عثمان مندمج الآن بعناصر الطبيعة وهو يشعر أنّ هذا يكفيه.

ولم يحفل منّان بالتأمّل أو باستخلاص العبر مما يحيط به. كان سلوكه العملي خير تعبير عمّا يجيش في نفسه من انفعالات. أطلق العنان لنفسه على سجيّتها الأولى، أثّرت عليه النار التي تضيء الساحة، وأيقظه امتداد السهول ورسوخ الجبال وما في السماء من نجوم، وأبهجه منظر النساء وهنّ يرقصن. ظنّ أنّه في حلم، وحينما رأى وطفاء ابنة السابعة عشرة، ترقص على مقربة منه، أيقن أنّه لا يحلم. اقترب منها وانجذب إلى ما فيها من حيويّة وبهاء، رقص أمامها وهو يلوّح بسيف أبيه فوق رأسه، وقال لها: تتزوّجينني؟

قالت من غير تردّد وهي تتأمّل قامته المديدة: أتزوّجك.

أحضر حجرًا جلست عليه وطفاء، وحجرًا آخر جلس هو عليه. خيّم صمت على الرجال والنساء، ولم يبق سوى صوت النار التي تأكل الحطب، وتطلق رموزها الخاصّة التي يستعصي حلّها على أحد. قال: أنا على حجر وانت على حجر.

قالت بصوت مسموع: أنا الأنثى وانت الذكر.

واندلعت زغاريد النساء، ثم انهمك الجميع في الرقص والغناء، ما عدا الأمّهات والآباء الذين يطلبون هدوء الأنفس والابتعاد بها عن

الانفعالات الصاخبة. وكي لا يظلّوا في عداد المتفرّجين الصامتين، ذبحوا الذبائح وسلخوا جلودها، وأعدّوا القدور ووضعوها على النار.

صحب منّان عروسه بعيدًا من النار. اختار ربوة على مقربة من مضارب العشيرة، (الربوة التي اعتاد [illegible] أوغلو الجلوس فوقها كلّما [illegible] [illegible]سين إلى قريته، بحسب ما تقوله صبحاء). كان جسدها غارقًا في العرق. ظلّت تلهث تحته وهي تحلّق بخيالها في الظلمة التي تملأ البرّيّة بسحرها الغامض. وحينما مال بجسده عنها واضطجع إلى جوارها فوق التراب، أفاقت على لحظة ملتبسة: منّان، احنا صحيح تزوّجنا؟

– صحيح.

ولم يكن هذا هو الحدث الاستثنائي الوحيد الذي وقع في تلك الليلة. شهدت الساحة سبع حالات زواج تَمّت كلّها بالطريقة نفسها. واستمرّ صخب الرجال والنساء إلى أن تضاءل اشتعال النار مع خيوط الفجر الأولى. سكبوا ماء على بقايا النار فانطفأت. أكلوا اللحم الذي أنضجته نارهم وشربوا المرق، وعادوا إلى بيوتهم متعبين، هذا التعب الذي كان لا بدّ منه لكي تستقرّ نفوسهم وتظفر باطمئنان.

ولم تكن الليلة الفائتة لتمرّ مرورًا عابرًا، سيظلّ المعنيّون بسرد الحكايات حائرين في أمرها. وسيذكرونها في ما بعد باسم: ليلة النار. وسوف يحارون في أمر الطفل الذي ولدته وطفاء بعد أشهر. طفل له أذنا حصان، ولديه قدرة على الصهيل. سيفكّر منّان في اسم ملائم له، سيقول: أدهم. وسيأتي إلى مضارب العشيرة رجل ذو لحية مسترسلة، يجد في أذني أدهم وصهيله دليلاً على ما اقترفته العشيرة وتقترفه من آثام.

وهي طفلة، اعتادت أن تذهب مع أمّها ونساء أخريات للاحتطاب. كانت الأمّ تنهمك في جمع الحطب، والطفلة تمضي إلى الوادي. تجمع حجارة من مجرى السيل وقد صقلتها المياه. تتمدّد فوق الحصى الناعم في المجرى العريض، وتنهمك في مراكمة الحجارة على رقبتها وصدرها وخاصرتيها وبطنها، ثم تنام.

تفتقدها أمّها وتبحث عنها وهي تنادي: وطفاااا... هيا وطفاااااا.

لا تسمعها وطفاء لأنّها مستغرقة في النوم. تقترب منها ويكون القلق استبدّ بها. توقظها وتسحبها من بين الحجارة، وتقول: دافنة جسدك! ليش؟ بقدر أعرف؟

لا تتفوّه وطفاء بأيّ كلام. يظلّ المعنى مكتومًا داخل رأسها، لأنّها لا تجيد التعبير عنه، تكتفي بأن تتحسّسه في مسامات جسدها الذي يألف الحجارة ويجد متعته في التقرّب منها. تملأ جيبها بها وتعود مع أمّها إلى البيت.

تفرد الحجارة أمامها، وتنهمك في الكلام معها وهي تصفّها صفوفًا مرتّبة، ثم تبعثرها. ترتاح نفسها لهذا التبعثر الذي يعني أنّ الانتظام في صفوف مرتبّة ليس هو الخيار الوحيد في عالم الحجارة. ولا يصل اللعب ذروته إلا بعد أن تعلن وطفاء أنها أمٌّ لهذه الحجارة جميعها. تبتهج لكثرة ما لديها من أولاد. تحملهم الواحد بعد الآخر، تحتضنهم وتضمّهم إلى صدرها، ثم ترسلهم إلى النوم. ينامون وهي إلى جوارهم تنام.

ولم يعد منّان قادرًا على النوم المريح. صار يمعن في تأمّل البرّيّة بِكلّ ما فيها من تفاصيل، كما لو أنّ تشبّث أمّه وآخرين بها لفت

انتباهه إلى ما فيها من مزايا لا يمكن التخلّي عنها ببساطة. صار يجتاز السهول ويصعد قمم الجبال على فرسه حينًا وعلى قدميه حينًا آخر. صار يرنو إلى مضارب العشيرة من على البعد فيراها صامتة في تجاورٍ حميم، كأنّها تتكتّم على أسرار وأحزان. المضارب في هذه البقعة من الأرض تاريخ، وللأرض نفسها تاريخ ومعاناة. وآمّه من شدّة وفائها لهذا التاريخ لا تستطيع رميه وراء ظهرها والمضي بعيدًا منه، منّان نفسه حينما يتأمّل سيرته في هذا المكان لا يجد الرحيل سهلاً على نفسه، ففيه مشقّة وعذاب، إلا أنّ للضرورة أحكامًا، ولا بدّ مما ليس منه بدّ.

تذكّر كيف كان قلقًا لأنّ والده ووالدته ومن رافقهما تأخّروا في العودة من الحج، فكأنّ العشيرة لا يستقيم أمرها إلا بوجود والده. وكأنّ ما جرى في البلاد من تطوّرات يقتضي وجوده في البرّيّة التي تفتقده بإلحاح. صار منّان ورهط من أبناء العشيرة، يوغلون في الدروب المتعرّجة عبر الجبال بحثًا عنهم، أو تسقّطًا لأخبارهم.

اعتبروا تأخّرهم نذير شؤم، فأكثروا من ترديد الصلوات والتعاويذ. بعضهم لَمّحَ إلى ما جرى في ليلة النار من خروج على المألوف، ولا بدّ من أنّ العشيرة ستعاني من تداعيات جَمّة جرّاء ما حدث. بعض نساء العشيرة اتجهن إلى مقام سيدنا حامد، يودعن في البناية الصغيرة التي شيّدت فوقه نذورهنّ من الزيت والكبريت. وبعضهنّ كنّ يضعن نذورًا على قبر التاجر، رغم اعتراض عدد من رجال العشيرة الذين رأوا في هذا كفرًا، لأنّ التاجر ليس وليّاً من أولياء الله الصالحين.

وبمبادرة غير متوقّعة، شيّد عثمان بناية صغيرة من حجارة وطين على قبر التاجر، وجعلها متّصلة بالبناية التي على قبر سيدنا

حامد، وصنع سراجًا يضاء بالزيت، ووضعه في المقام، أشعل ذبالته المضمّخة بالزيت بعود ثقاب، فانبثق في الظلمة ضوء خافت يشعّ من فتحات المبنى. ثمّ واظب على إشعال السراج كلّ مساء. لم يقدم عثمان على هذا الفعل إلا لإرضاء رغبة لديه في العبث حينًا وصنع المفاجآت حينًا آخر، وكان باستمرار منجذبًا إلى الاحتفاء بالنار التي تضفي على الأمكنة أبعادًا مثيرة.

راقبت نسوة كثيرات الضوء المنبعث من المقام، وشعرن بالرهبة والخشوع، واعتملت نفوسهنّ بنوازع عدّة، وأصبحت للتاجر مكانة لا تقلّ عن مكانة سيدنا حامد لدى بعضهن. وحينما زاد الأمر عن حدّه ذهب أشخاص مجهولون في عتمة الليل وهدموا ما بناه عثمان فوق قبر التاجر، وأعادوا الوضع إلى ما كان عليه حفاظًا على مكانة الولي، وحرصًا عليه من منافسة شخص لم يتأكّد الناس من حقيقته. مثيلة وجدت نفسها عرضة لمشاعر متناقضة، فما فعله التاجر معها لا يؤهّله لأن يكون وليًّا من أولياء الله، ارتاح بالها قليلاً حينما تناهت إليها أخبار هدم البناء.

ولم تلبث أن عاودها القلق. ارتجفت لمجرّد التفكير في الأمر، واضطربت نفسها، وللتخفيف من وطأة هذا الاضطراب مالت إلى تصديق اعتقاد، يتلبّسها كما لو أنّها في حلم، بأنّ التاجر ليس إلا روحًا طاهرة جاءت إليها خصّيصًا لزرع بذرة نقيّة في أحشائها مقدّرة لها منذ زمن سحيق.

سمعت امرأة تقول لجارتها: ما سألناه عن اسمه.

– صحيح، لكن فعله يغني عن اسمه.

اندلعت الشكوك في صدرها. رأت المرأتين ترمقانها بأطراف عيونهما، ولم تستطع تفسير مغزى نظراتهما. ولم يتوقّف الأمر عند

هذا الحد، كانت كلّما سمعت النسوة يذكرن التاجر، ومعه صفته التي جاء بها إلى المضارب: بيّاع دوا الحبل، اندلعت في ذاكرتها التفاصيل التي حدثت بينها وبينه، واعتراها ارتباك.

بعد سماعه كلام المرأتين، قال عثمان: أنا عرفت اسمه.

– شو اسمه؟

– حميد.

أضاف وهو راغب في تأجيج خيال النساء: سيدنا حميد.

ولم يمعن في الثرثرة. بدا كما لو أنّه راغب في معرفة الأثر الذي يتركه كلامه في الأذهان، وبالفعل، ترك كلامُه المقتصد هالة من الخشوع على النسوة، وشعرت مثيلة بالفرج يأتيها من حيث لا تحتسب. ولم يتوقّف الحديث عن التاجر حميد إلا حينما دوّت فوق سماء العشيرة تلك العجيبة من عجائب الحرب. ظهرت في السماء وهي تهدر مطلقة ضجيجًا صاخبًا يصمّ الآذان، ثم لم تلبث أن ابتعدت محلّقة في السماء، تاركة خلفها مخاوف لم تبرأ منها النسوة المتطيّرات إلا بعد أن سارعن إلى مقام سيدنا حامد، قدّمن النذور، واستنجدن به لحفظ العشيرة من شرور الأيّام.

بعض النسوة كنّ يقضين وقتًا أطول بالقرب من المقام، ضارعات إلى الولي أن يردّ عن أولادهنّ عيون الحسّاد، وأن يحفظ لهنّ المحبّة في قلوب أزواجهن. كانت مثيلة تتضرّع إلى الولي مثلهن، وفي قرارة نفسها ما زالت تصطرع المشاعر، تبدو أحيانًا مصدّقةً الهالة التي راحت ترتسم بالتدريج حول ضريح التاجر، وتبدو أحيانًا أخرى متشكّكة في كلّ ما يدور أمام عينيها من طقوس وابتهالات، وتدعو الله، حينما تختلي بنفسها وتنتبه إلى بطنها الذي يزداد انتفاخًا أن يجنّبها كلّ مكروه.

في لحظات صفوها، كانت تجد الشجاعة الكافية لتعلن أمام نفسها ولنفسها، أنّه لن يحدث لها مكروه، فهي امرأة متزوّجة، وهناك احتمال كبير بأنّها حملت من زوجها، فيهدأ بالها إلى حين.

حينما يتذكّر عثمان العبث الذي مارسه قبل سنوات، يصبح أكثر ميلاً لمغادرة البرّيّة. ولم يكن في لحظات العبث تلك يكتفي بتأجيج خيال النساء، كان يسخر بينه وبين نفسه من تصديقهن، ومن تصديق بعض الرجال لكلّ قول يقال. وهو الآن نادم على هذا العبث، فما الداعي إلى بلبلة أذهان الناس؟ كان من واجبه أن يدلّهم على أمر فيه نفع لهم، لا أن يأخذهم إلى متاهة لا فائدة ترجى منها. هو نادم، خصوصًا وأنّه كانت له توقّعات حول الأوضاع التي استجدّت في البلاد بعد هزيمة الأتراك في الحرب. كان أقدر من غيره على الرؤية والاستبصار. لاحظ منّان ومعه أبناء العشيرة ذلك أثناء الحوار مع عثمان، الذي واصل التذكير بأنّ الإنكليز قادمون إلى مضارب العشيرة. ولم يقتنع أحد منهم بما يقول. منّان نفسه لم يقتنع بكلامه اعتقادًا منه بأنّ البرّيّة ليست واردة في حسابهم.

ظلّ عثمان مصرًّا على رأيه، ولم يكن معنيًّا بأن يُقنع أيًّا من أبناء العشيرة، حتى ولا منّان ابن الشيخ محمّد نفسه.

وبغضّ النظر عن ميله إلى العبث، فإنّ لعثمان مزاجًا مرهفًا اكتسبه من المدرسة التي التحق بها وهو طفل، وتعرّف أثناءها على المدينة، وزار المسجد والكنيسة. هذا ما كان يقوله أقرب المقرّبين منه، حتى إنّهم مالوا إلى القول إنّه مسلم في النهار ومسيحي في الليل والعكس صحيح، ودليلهم الذي يؤكّد صحّة كلامهم: تردّده على المسجد الأقصى وكنيسة القيامة. يقول بعضهم إنّه يصلّي في المكانين

المقدّسين بالطريقة التي تلائم كلاً منهما، ويقول بعضهم الآخر إنّه يكتفي بزيارة المكانين ولا يؤدّي الصلاة في أيّ منهما. وما يتّفق عليه الجميع أنّ لعثمان مزاجًا يحرّضه على مغادرة البرّيّة ليكون قريبًا من المدينة ومما فيها من عجائب. عثمان لم يتحمّس للرعي يومًا، ولم يقترب من الأغنام. عمل في الحقول على نحو متقطّع، وشارك في تهريب البضائع مرّات عدّة، وعاش عاطلاً من العمل فترات، ولم يفكّر في الزواج إلا حينما بلغ الثلاثين.

ويقول أقرب المقرّبين منه: ما يرهقه ويجعله ميّالاً إلى العبث هو الملل، إذا لم يكن ثمة جديد ينهمك في متابعته وفي معرفة أسراره الخافية.

الآن، بعد سنوات، يعي المختار منّان أنّ عثمان كان أقدر من الجميع على تشخيص واقع الحال. وكان عليه وهو ابن الشيخ أن يتعلّم من عثمان أشياء كثيرة، إلا أنّه لم يكن يعطيه ما يستحقّه من اهتمام. عثمان ظلّ يختطّ لنفسه طريقًا مختلفًا، ومنّان ظلّ يتزوّج النساء ويستولدهن أولادًا وبنات، كبروا وهم لن يعيشوا في البرّيّة بقيّة أعمارهم. سيرحلون نحو الغرب، وسيعيشون قريبًا من القدس. ولو أنّ والده الحاج محمّد ما زال حيًّا، ترى هل كان سيوافق على الرحيل أم سيبقى مصرًّا على البقاء في البرّيّة مثلما تصرُّ عليه الحاجّة صبحاء؟ ينظر منّان نحو قبر والده ويتذكّر كم انتظره وكم كان في حاجة إليه وهو لم يعد بعد من رحلة الحج!

كان يذهب إلى قمّة الجبل ويرصد الطريق البعيدة لعلّه يرى أثرًا للقافلة التي قد تعود وقد لا تعود. وذات يوم عاد من قمّة الجبل حينما لم يظهر أيّ أثر للحجّاج في المدى البعيد. كان الرعاة انطلقوا

مع أغنامهم نحو الشعاب، وراحت الوديان تردّد الصدى الشجيّ لأنغام شبّابة يعزف عليها أحدهم.

اقترب من المضارب، وسمع مهيرة، زوجة أبيه، تغني تعبيرًا عن حنينها إلى من ذهبوا إلى الحجّ ولم يعودوا حتى الآن. ثارت في السهل ريح خفيفة، وانعقدت حول المضارب دوّامات الغبار. بدا منّان مثقلاً بشعور المسؤولية التي ستلقى على عاتقه إن لم يعد أبوه. فاضت نفسه بالأسى. غذّ السير إلى بيته، اقترب منه وسمع أصواتًا نسائيّة تصرخ وتتشاتم. كان صوت مثيلة يلعلع عاليًا، سمع كلامها وشعر باستياء، ثم سمع وطفاء ترذّ على ضرّتها بكلام فيه قدر من البذاءة. أصاخ السمع، فإذا أسراره مع زوجتيه تخرج إلى فضاء المضارب، تستمع إليها النسوة الفضوليّات من غير عناء. علي أوغلو الذي كان على مقربة من مشهد الشجار سمع هو الآخر كلّ شيء رغم تظاهره بعدم الانتباه.

أحسّ منّان بدمه يغلي في عروقه. توقّف تبادل الشتائم، واشتبكت المرأتان، لفّت مثيلة شعر وطفاء على ذراعها، وهبطت فوقها على التراب، والنسوة حاولن فصل المرأتين. وحينما سمعت الزوجتان صوته الغاضب اضطرّتا إلى النهوض والهرب وهما لا تلويان على شيء.

ولم يقترب علي أوغلو من منّان، كان يتحاشاه كلّما رآه غاضبًا. أنهى عمله في تنظيف إحدى حظائر الأغنام، ثم مضى إلى الربوة التي يمارس من فوقها تأمّلاته. وهو ما زال غير مصدّق أنّه نجا من الموت. في المعركة الأخيرة التي شارك فيها سقطت قذيفة على مسافة ما منه، قتلت زميله الذي كان يطلق النار على الأعداء، ونثرت فوق رأسه كومة من تراب وحجارة، ولم يفق من صدمته إلا بعد لحظات.

تحسّس جسده ووجد أنّه مصاب في خاصرته وذراعه، نقله زملاؤه إلى مستشفى ميداني، قدّمت له فيه الإسعافات اللازمة. كان الخوف من الحرب يتغلغل في أعماقه على نحو لا يستطيع ردّه أو التخلّص منه. بذل جهدًا غير قليل لاستنهاض همّته ولحثّ نفسه على تقبّل ما تسفر عنه الحرب من نتائج، حتى لو أدّى الأمر إلى مقتله، فلم يستطع. أقرّ بينه وبين نفسه بأنّ الرعب لن يفارقه، واتّخذ قراره بعدم العودة إلى ميدان القتال، ولم يكن ثمة ما يوحي بأنّ الجيش التركي سيربح الحرب، فازداد تصميمه على الهروب إلى مكان بعيد، كي لا يتعقّب أثره ويقبض عليه أحد، لمحاكمته ولتنفيذ حكم الإعدام فيه، فلم يجد سوى البرّيّة ملاذًا آمنًا له، أو هذا ما اعتقده وهو يلجأ إلى مضارب عشيرة العبد اللات.

والآن فإنّ العشيرة تنوي الرحيل. وعلي أوغلو متهيّب منه، رغم أنّ سنوات مرّت على وجوده هنا في البرّيّة، وعلى احتلال عسكر الانكليز لفلسطين، فلم يعد عرضة لأيّ خطر كما يبدو، لكنّ الحذر واجب ومطلوب. وليت العشيرة تواصل العيش هنا لكي يبقى علي أوغلو في مأمن من الوساوس والأوهام. وعلى أيّة حال، فهو لن يتدخّل في تفاصيل هذا الرحيل، سيترك كلّ شيء للمختار منّان ولبقيّة أبناء العشيرة، ولن يفرض رأيه عليهم مع أنّه أصبح واحدًا منهم.

وهو ما زال يعجب كيف مرّت عليه كلّ هذه السنوات وهو مقيم هنا. ربّما اجتذبته هذه البلاد بجمالها وبطبيعتها السمحة. هنا في فلسطين تجد المناخ المعتدل جنبًا إلى جنب المناخ الحارّ والمناخ البارد. هنا بيّارات البرتقال والليمون والموز، هنا الجبال والسهول والصحراء والبحر. هنا التنوّع في هذه البلاد الصغيرة. هل

بهذا السبب استطاع علي أوغلو أن يغالب حنينه إلى أهله وإلى قريته التركيّة البعيدة ويبقى في فلسطين؟ ربّما! فكّر علي أوغلو في بدايات لجوئه إلى عشيرة العبد اللات في العودة إلى بلاده ولتكن ما تكون النتائج، لكنّه كان في كلّ مرّة ينقض قراره بالعودة. ربّما كان زواجه بزريفة سببًا من أسباب البقاء هنا. زريفة كانت امرأة بالغة الحنان، وحينما ماتت تأثّر علي أوغلو لموتها، وفكّر بمغادرة فلسطين. ثم ظهرت مهيوبة في أفق حياته، وكان زواجه بها السبب الأهمّ لبقائه هنا.

وهو ما زال يذكر كيف استقرّ منذ البدء في البرّيّة، وكيف تعزّزت مكانته على نحو أفضل لدى العشيرة بعد ليلة الذئاب.

تلك الليلة، تفقّد حظيرة الأغنام وعاد إلى بيته، واستلقى إلى جانب زريفة الغارقة في نوم عميق. فكّر في إيقاظها كي يمضيا معًا قسطًا من الليل، لكنه لم يشأ أن يزعجها. لفّ جسده بعباءة من صوف ونام. والذئاب كانت تعدّ لمهاجمة الأغنام بخطّة محكمة.

وقعت هجمة الذئاب حينما كان الشيخ محمّد في الحج. وما زال منّان يذكر كيف أطلّت قافلة من بعيد: جمال مكدودة أضناها المسير الطويل. رجال العشيرة انطلقوا على صهوات خيولهم صوب القافلة، والنسوة تجمّعن على مقربة من المضارب. حينما اقتربت القافلة، وأيقن الجميع أنّ الشيخ محمّد ورفاقه الحجّاج عادوا إلى ديارهم، انطلقت الأعيرة الناريّة في الفضاء. زغردت النسوة وغنّين، والعجائز راقبن القافلة بخوف ممزوج بالرجاء.

وصل الشيخ مضارب العشيرة، ومعه زوجته صبحاء وعدد من الرجال. كانت الأمراض وتقلّبات الطقس في الصحراء اصطادت بعض من رافقوه. وكاد هو نفسه يودّع الدنيا لولا أنّ عوده الصلب مكّنه من مقاومة المرض.

لمِ تدم فرحة العشيرة سوى دقائق معدودات. تحوّلت الساحة إلى مأتم. بكت العشيرة أبناءها الموتى، وشاركت النسوة في الندب والتفجّع والعويل. كانت الرمال تغطّي ذقن الشيخ ورموش عينيه، وهزل جسمه فبدا مثل عود جاف، وبدا أنّه يعاني من ضعف في الدائرة. اقتربت منه مهيرة التي انتفخ بطنها، وكانت تتوقّع أن يبشّ لها حينما يراها. رمقها بنظرة عابرة ولم يعرفها. كان مثل التائه لا يدري ماذا يقول. مدّت يدها نحوه ومدّ يده نحوها بفتور، ثم تدافع نحوه أبناء العشيرة يقبّلون يده وخدّيه، وهو مذهول زائع النظرات.

بعد أشهر من عودة الحجاج، ماتت فاطمة. ظلّت تعاني في أيّامها الأخيرة من تسلّط سيدنا حامد عليها. صارت تراه كلّ ليلة في أحلامها يتخطّر مثل مارد بين مضارب العشيرة، ولا يروقه إلا الجلوس قريبًا من بيتها، يدخّن غليونه الطويل الذي تهبّ منه نار مشتعلة تكاد تضيء الساحة التي تتوسط المضارب (صبحاء وهي تروي سيرته تؤكّد دومًا أنّه لم يكن من المدخّنين)، وفاطمة تراقبه ولا تجرؤ على الطلب منه بأن يغادر مكانه لأنّها تريد أن تنام. تقول إنّها لا تطيق رائحة الدخان الذي ينبعث من غليونه. تظلّ على هذه الحالة ساعتين أو ثلاث ساعات، إلى أن يملّ سيدنا حامد الجلوس، وإلى أن تنطفئ نار الغليون. ينهض ويعود إلى مقامه وهي تنام.

تألم منّان لرحيل زوجته وهي في ريعان الشباب. ولم يفرح حينما ولدت مهيرة زوجة أبيه طفلة، وولدت زوجته مثيلة أيضًا طفلة. كان راغبًا في ولادة أطفال ذكور لكي تزداد العشيرة قوة ومنعة. وطفاء حقّقت له رغبته.

عند انتهاء الحرب، وخروج الأتراك من البلاد حملت وطفاء بطفلها الثالث. فرحت، مع أنّ هالة من حزن خفيف كانت تجلّل

وجهها. لاحظت نساء العائلة هذا الأمر، وبذلن جهودًا غير قليلة لتحرّي طبيعة العلاقة بينها وبين زوجها منّان. فلم يعثرن إلا على ما يؤكّد حبّه لها وحبّها له. ظلّت التساؤلات معلّقة في الهواء، وظلّ الحزن طافيًا على وجه وطفاء. وطفاء نفسها لم تكن تجد تفسيرًا لحزنها، ربّما كان ملازمًا لها منذ الولادة وهي لا تدركه، وربّما كان هنالك سبب لا تعرفه.

بدا بطنها منتفخًا كأنّ فيه ثلاثة توائم. وحينما جاءها المخاض، لقيت متاعب جمّة. جاءتها القابلة، جلست بين وركيها وحاولت إخراج المولود من بطنها. تعذّبت ساعات عدّة، ثم خرج وكان وزنه أكثر من المعتاد. نزفت وطفاء كثيرًا من الدماء. عاشت ثلاثة أيّام وهي ممدّدة في الفراش ثم فارقت الحياة.

حلفت القابلة أغلظ الأيمان منذ الدقائق الأولى لولادة الطفل، وقالت إنّها سمعته وهو يتكلّم قائلاً: لا لا لا. واعتبرت كلامه هذا، المختلط بالصراخ، لغزًا يحتاج إلى تفسير. وكالعادة، صدّقها أناس وكذّبها آخرون.

دفن منّان زوجته بعد أن رتّب لها جنازة لائقة. بكى بحرقة وهو يهيل على جثمانها التراب. بكتها نساء العشيرة وأبدين حزنهنّ عليها لأنّها ما زالت شابّة في غاية الجمال، إلا أنّ الموت لا يفرّق بين شابة وعجوز حينما يضرب ضربته ويختار من جاء دوره لكي يغادر الدنيا. غالب منّان حزنه، وبعد أيّام من دفن وطفاء، بدا معنيًّا بأن يكون في اسم طفلها شيء من اسمها، سَمّاه: وطّاف، لكي تظلّ وطفاء حاضرة في الأذهان على نحو ما.

بعد شهر من رحيلها، تزوّج منّان بصفيّة وعاش معها أوقاتًا ممتعة. وذات ليلة، ولدت طفلاً، وكان حبّه لوالده في تلك الأيّام يلحّ

عليه، فلم يجد أكرم من اسم محمّد ليمنحه إيّاه. وهكذا أصبح اثنان من أبنائه يحملان الاسم نفسه، فأخذ أبناء العشيرة يلقّبون محمّد بن فاطمة: الكبير، تمييزًا له عن أخيه الذي أصبحوا يلقّبونه: الصغير، وكان فرق العمر بينهما أربع سنوات.

ـم يستمرّ استئثار صفيّة بقلب زوجها. بعد سنة من زواجهما، تزوّج مرّة أخرى. رأى سميحة وهي تحتطب في الخلاء، وكان يرعى قطيع أغنامه هناك. راقه قوامها وخجلها الذي لم يمكّنها من الكلام معه. ظلّ وهو واقف على مسافة منها، يستدرجها للكلام، وهي تحني رأسها نحو الأرض ولا تكلّمه، إلا أنّه لاحظ طيف ابتسامة على شفتيها. ظلّت هذه الابتسامة تلعب برأسه أيّامًا ولم يستطع نسيانها. خطبها وتزوّجها، وأصبحت لديه بعد موت فاطمة ووطفاء ثلاث زوجات هنّ: مثيلة وصفيّة وسميحة، ولديه منهنّ عدد من الأولاد والبنات.

في تلك السنة، تزوج أخوه عبد الودود من نجمة. رأتها صبحاء في أحد الأعراس، وأعجبت بها وبجمالها، وذهبت في اليوم التالي إلى أهلها والتقت أمها وعرضت عليها أن تخطبها لابنها عبد الودود. أهل نجمة لم يدقّقوا كثيرًا في شخصيّة العريس، ولم يكونوا معنيّين بحقيقة أنّه تلقّى العلم مدّة عام في مدرسة بالقدس. كانت سمعة والده الشيخ محمّد وهيبته تملآن البرية. وافقوا على المصاهرة احترامًا لسمعة الشيخ، ولم تجد نجمة سببًا لرفض العريس، فهي مطيعة لوالديها لا تعصي لهما أمرًا، وكانت قبل هذا وبعده راغبة في الزواج.

لم يقابل عبد الودود خطيبته إلا ساعة واحدة عند الخطوبة، ولم يرها بعد ذلك إلا في ليلة زفافهما. اختلى بها بعد إنتهاء طقوس الزفاف، وكان خجولاً، ولم تكن نجمة أقلّ خجلاً منه، وخصوصًا أمام

الرجال. وهو لم يتلقَّ أية نصائح من أبيه أو من أخيه الكبير منّان، ولم تقدّم له أمّه أيّة نصيحة. صبحاء شعرت بالحرج وهي تفكّر في إبداء النصح لابنها، قالت في سرّها: آخرته يعرف الطريق. قالت: ولا عمره واحد تاه، وإنْ ما عرف العروس بتسدّد خطاه.

الأمر نفسه وقع لنجمة. أمّها لم تقدّم لها سوى نصائح قليلة، طلبت منها أن تطيع زوجها وأن تحافظ على نظافة جسدها، وألا تضحك بصوت عالٍ أمام رجال العائلة، وألا ترفع ثوبها عن ساقها أثناء المشي، وهي عادة تمارسها بعض نساء العشيرة، إذ حينما يمشين وأثوابهن مسدلة فوق سيقانهن، يتظاهرن بالعجلة وبالرغبة في المشي السريع، ما يجعلهن مضطرّات إلى رفع أثوابهن عن سيقانهن، فيظهر بياض السيقان. بعض النساء لا يكتفين بإظهار السيقان، بل يدفعهنّ التظاهر بالعجلة إلى رفع الأثواب عمّا فوق السيقان، ما يجعلهنّ عرضة للنقد والتقريع من نساء لا يروقهنّ الإخلال بمعايير السلوك على هذا النحو المشين.

جلس عبد الودود على الفرشة المعدّة خصّيصًا له ولعروسه، وجلست نجمة على طرف الفرشة، وكانت مسافة ما تفصلها عن عريسها. حار عبد الودود كيف يمكنه اختزال المسافة، وكان لا بدّ من مبرّر لاختزالها، لكنّه وجدها أطول من أن تُختزل ببساطة ويسر، فأصابه قلق وتوتّرت أعصابه. وكانت مضارب العشيرة خامدة لا يُسمع فيها أيّ صوت، ولم يعكّر صفو البرّيّة سوى نباح بعض الكلاب الذي ينطلق على فترات، ثم لا يلبث أن ينقطع، ولم يرقه الهدوء المخيم في الخارج، فكأنّ العشيرة كلّها تتنصّت عليه.

أخيرًا، وبعد أن تعرّق جسده من الحرج وتعرّق جسدها من الانفعال، جاءت المبادرة منها. سألته: انت نعسان؟

قال بصوت خافت: نعسان

– طيب، تمدّد على الفرشة ونام.

سألها: وانت نعسانة؟

– نعسانة.

– طيب، تمدّدي على الفرشة ونامي.

نظرت نحو السراج الجاثم في قرنة البيت، كانت شعلته تتراقص في ذبول، وتنشر بعض الضياء في فضاء البيت. سارعت إليه ونفخت عليه فانطفأ. حلّت عتمة في البيت، ما خفّف من خجلها وعادت إلى الفراش. خلعت ملابسها وتمدّدت على الفرشة. خفّ خجله أيضًا، خلع ملابسه وتمدّد على الفرشة إلى جوارها. ولم تجد كلامًا تقوله له، وهو لم يجد كلامًا يقوله لها، ثم وجد أنّه يمكنه التعليق على آخر فعل قامت به، سألها: انت بتحبي العتمة؟

– ليش بتسأل؟

– عشانّك طفيتِ السراج.

– آ، بحبّها، بَس مش دايمًا.

حلّ الصمت بينهما من جديد، ولم يعثرا على ما يمكنهما أن يتحدّثا حوله، فارتبكا وتبخّر الكلام من رأسيهما، وبدا كما لو أنّهما فقدا القدرة على الكلام. وحينما احتكّ كوعه بخاصرتها، شعرت بتنمّلات في جسدها، وجدت نفسها تقبض على يده وتأخذها إلى صدرها. وآنذاك انكسر حاجز الخجل وطار النوم من عينيها وعينيه.

عبد الودود كانت له علاقة بالمدينة منذ الطفولة، ولم تدم هذه العلاقة طويلاً.

جاءت بعثة دينيّة إلى مضارب العشيرة، مكوّنة من ثلاثة رجال وامرأتين. اقترحت البعثة على العشيرة أن تعلّم بالمجّان خمسة من

أطفالها في مدرسة تشرف عليها في القدس. لم ترسل العشيرة سوى ثلاثة أطفال هم عبد الودود وأخوه عبّاس وعثمان. هرب الأخوان بعد سنة لأنّ البقاء بعيدًا من الأهل لم يرقهما، وبقي عثمان في المدرسة أربع سنوات. تعلّم أثناءها القراءة والكتابة، ومارس الرياضة والتجوال في أسواق القدس، علاوة على بعض رحلات نظّمتها المدرسة لتلاميذها الذين زاروا مدنًا فلسطينيّة عدّة منها يافا وحيفا وطبريّا والناصرة. وقبيل نهاية السنة الرابعة شعر عثمان بأنّه حاز ما يكفي من العلم، فانسلّ ذات صباح مبكّر وعاد إلى العشيرة، فلم يلمه أحد من أهله على تركه المدرسة.

3

يتذكّر منّان كيف جاءت اللحظة الحاسمة التي تؤكّد أنّ عثمان كان أكثر تبصّرًا منه، وأكثر قدرة على توقّع ما يخبّئه المستقبل من مفاجآت. كان ذلك حينما جاءت ثلّة من الخيّالة، أثاروا النقع من حول مضارب العشيرة وسبّبوا فزعًا للنساء. حدّق الرجال فيهم كأنّهم لا يصدّقون أعينهم. وقفت مثيلة قرب مدخل بيتها ترنو واجفة مقطوعة الأنفاس، خَمّنت للوهلة الأولى أنّها ترى فرس العائلة تحت أحد الفرسان، ثم أقنعت نفسها بأنّها واهمة، لأنّ لفرس العائلة بقعة بيضاء على جبينها. عادت تحدّق في الفرس، حينما اعتقدت أنّ البقعة البيضاء ظهرت لحظة ثم اختفت. كادت تخبر زوجها بظنونها لولا أنّه ابتعد عنها متّجهًا نحو الفرسان.

حدّق منّان في وجوههم الشقراء، وفوق رؤوسهم قبّعات ذوات حواف، وهم يرتدون بدلات من القماش الكاكي. توقّفت الخيول في الساحة وهبط من فوقها الفرسان وعلى أكتافهم بنادق. تكلّم قائدهم المستر سميث مع منّان بلهجة عربيّة مطعّمة بلكنة أعجميّة، ثم التفت القائد إلى مرافقه الشاب، المستر جون الذي يقف إلى جواره، رطن

بلغة لم يفهمها منّان، فسّر له المستر جون، الذي يتقن العربيّة، كلام القائد، وأخبره بأنّه يقف أمام عسكر الإنكليز، وبأنهم الآن يسيطرون على البلاد والعباد.

تلفّت منّان حوله كمن يبحث عن عثمان الذي توقّع قدومهم، أو كمن يستعين بقوّة غير منظورة لردّ الأذى المتوقّع من هؤلاء الغرباء، أو لكي يؤكّد لنفسه أنّ البرّيّة التي عرفها أخذت تتغيّر منذ هذه اللحظة التي رأى فيها عسكر الانكليز. علي أوغلو اختفى عن الأنظار حينما أدرك أنّ البرّيّة ليست بعيدة من فظاظة الجيوش.

رحّب منّان بالقادمين إلى البرّيّة بخشية وحذر، وحاول أن يتفادى اصطدامًا في غير محلّه، وقائد العسكر يلقي أوامره بضرورة الانصياع للتعليمات، والتزام الهدوء إزاء تحرّكات الجيش في أيّ مكان. هزّ منّان رأسه تعبيرًا عن موافقته على ما سمع، ودعا العسكر لتناول طعام الغداء. راقت الفكرة لقائدهم المستر سميث، ولمرافقه المستر جون الذي درس العربيّة في معهد اللغات، وأصبح مغرمًا بسحر الشرق، وهو ينوي أن يؤلّف كتابًا حينما ينهي خدمته العسكريّة، عن هذه البلاد وأهلها.

مشوا الهوينى وهم يتأمّلون المضارب المتناثرة في السهل، تطلّ منها نساء مجفلات، مدهوشات في الوقت نفسه من وسامة العسكر، وحينما لاحت فرصة مواتية تبادلن الأحاديث حول وسامتهم من غير تحفّظ أو مداراة.

دخلوا المضافة. وجدوا الحاج محمّد مضطجعًا وهو في حالة إعياء. جلسوا فوق فرشات الصوف، ولم يخلعوا أحذيتهم، ما أدخل الامتعاض إلى نفس الحاج، لكنه لم يجاهر به. صح منّان في شباب

العشيرة الذين تجمّعوا عند مدخل المضافة حاثًّا إيّاهم على ذبح الذبائح وتجهيز الغداء، فانطلقوا إلى المراعي، حيث ترعى الأغنام.

أخرج المستر جون دفتره الصغير ودوّن بضع ملاحظات. كانت صورة مثيلة التي رآها واقفة في مدخل البيت المجاور للمضافة لم تغادر رأسه حتى تلك اللحظة. وكان اطّلع في زمن سابق على فصول من كتاب ألف ليلة وليلة تركت أثرًا في نفسه، وحينما جاء إلى هذا الشرق، انبعثت الفصول التي قرأها في ذهنه، وراح الفضول يدفعه لمتابعة كلّ ما له علاقة بنساء هذه البلاد لعلّه يشبع رغبة ظلّت تلحّ عليه حتى حدود الإرهاق. ولم يكن ينغّص عليه سوى شيء واحد: خوفه من الموت برصاصة تترصّده في أحد الأمكنة بوصفه واحدًا من الغزاة.

ظلّ الحاجّ يحدّق في وجوه العسكر بصمت وذهول، وبدا كأنّه يسترجع أيّامًا خلت، ولم يقدر على الإمساك باللحظة التي يبحث عنها في الماضي. سأل القائد: مين مختار العشيرة؟

أشار منّان إلى والده بيده. حدّق فيه القائد وقال: بدنا مختار نقدر نتعامل معه.

ارتبك منّان وحاول أن يقول: شو بدكم منّا؟ لعشيرتنا مختارها من زمن الأتراك. لكنه لم يقل شيئًا. أضاف القائد بعد صمت: مختار مسؤول أمامنا عن كلّ شيء.

تجرّأ منّان وقال في محاولة لحسم الموقف: والدي هو مختار العشيرة.

حدّق القائد في الوالد: أنت مختار العشيرة، واحنا ما عندنا مانع.

ظلّ الحاجّ يحدّق ذاهلاً عمّا حوله، واكتفى بأنْ قال مستفسرًا بفتور: ها!

أوضح منّان للقائد أنّ والده لم يعد يسمع جيّدًا بعد عودته من الحج قبل ثلاثة أعوام، قال إنّ رمال الصحراء تركت أثرها السيء على أذنيه، صاح المستر جون بصوت عالٍ قاصدًا أن يسمعه الحاج: أنت المختار.

لم يعرف أحد فيما إذا كان الحاجّ سمع ما قاله المستر جون أو لم يسمعه. أشاح بيده باستهتار، وانقلب برأسه على الوسائد وراح يحدّق بعينين ذابلتين في المدى الذي يتكشّف عبر مدخل المضافة. كانت غيوم بيضاء تتمطّى في السماء غير مكترثة لما يجري في مضارب العشيرة. تبادل القائد ومرافقه نظرات فيها شيء من سخرية وشيء من تواطؤ، ثم التفت المرافق إلى منّان وقال: واضح أنّه لا يفقه أي شيء من حوله.

لم ترقه كلمات المرافق، قال: هو مريض، ويعطيه العافية، قضّى ما عليه.

سأل المستر سميث مستفسرًا: أنت الأكبر بين أولاده؟

– نعم.

– تكون أنت المختار.

رفع الحاجّ محمّد رأسه، وحدّق في وجه ابنه بنظرة متسائلة، كأنّه سمع ما قاله القائد. تلعثم منّان ولم يفه بأيّة كلمة. قال القائد بإصرار: أنت المختار.

لم يعرف منّان كيف يردّ على هذا الكلام، ولم يجد بدًّا في النهاية من الموافقة على أن يصبح مختارًا للعشيرة. رغم نظرات أبيه الشاردة. فجأة نهض الحاجّ محمّد وقد دبّ فيه نعزد. وصاح موجّهًا كلامه إلى الضابط وجنوده: اخرجوا من عندي. ما بدّي شوفكم.

حدّق الجميع مذهولين في وجهه، وانتظروا أن يواصل الكلام، فلم يواصله. انزوى في فراشه ولم ينظر إلى أحد.

اعتذر منّان عمّا بدر من أبيه، وقال إنّ حالته الصحيّة المتردّية تجعله غير قادر على ضبط تصرّفاته وما يصدر عنه من كلام. لم يُبدِ المستر سميث انزعاجًا زائدًا، وحينما أطلّ بعض رجال العشيرة وهم يحملون الطعام في أوعية معدنيّة، تناسى الجميع ما قاله الحاج.

تناول العسكر طعامًا من الرز والخبز الشراك واللحم والمرق وهم يتضاحكون، لأنّهم لم يجرّبوا هذا الطعام من قبل إلا عددًا قليلاً من المرّات. سألوا عن ملاعق، سارع أحد أبناء الحاجّ محمّد، لإحضار ملاعق كانت مهيرة اشترتها من حانوت للأدوات المنزليّة في القدس.

❖ ❖ ❖

يدرك منّان أنّ شغف أمّه بالبرّيّة له علاقة برغبتها في سرد الحكايات والأخبار، التي تبدأ من البرّيّة وتنتهي فيها حتى وإنْ حلّقت بعيدًا في الآفاق. تحكي له حكاية الغول ذي الرؤوس السبعة، وحكاية نص انصيص، الذي ولدته أمّه بعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، ولم يستطع أحد سواه التغلّب على الغولة.

يتابعها ويرصد ردود أفعالها منذ عرض عليها الرحيل، ويلاحظ أنّها لم تعد تستقرّ في مكان واحد، كما لو أنّها ترغب في التدليل على حبّها للبرّيّة. تمضي نحو حظيرة الأغنام، تتفقّد الجديان التي تتقافز فيها، وتمضي نحو مربط الفرس، فرس ابنها منّان. تتلمّس جبينها ورقبتها بحنان ثم تغادرها. تجلس في الخلاء على مسافة من مضارب العشيرة، وتنظر نحو السهل والجبل، وتكلّم نفسها، وحينما تضجر من

الكلام تغنّي بصوت خفيض أغنية من أغاني أيّام زمان، يوم كانت صبيّة ترقص في الأعراس، وتتذكّر زوجها محمّد، يوم تزوّجها وكان متعلّقًا بها على نحو حميم. تتذكّر كيف تضاءل اهتمامه بها وتزوّج عليها ستّ مرّات، تتذكّر مهيرة، آخر ضرّة لها، كيف ولدت مع الفجر بنتًا. تجمّعت حولها ضرائرها الثلاث وبعض نساء العائلة، وبما لديهنّ من خبرات بسيطة في شؤون الولادة أخرجن الطفلة من بطنها. لم تكن ولادتها عسيرة، ما جعلهنّ راضيات عمّا أنجزنه. حدّقت مهيرة في وجه طفلتها وبكت. أنّبتها النسوة على ما بدر منها، وبدا عليهنّ أنهنّ عرفن سبب البكاء. فالحاج محمّد يصفو ذهنه حينًا ويعتكر حينًا آخر، ولم تفارقه هذه الحالة منذ عودته من الحج. قالت مهيرة وهي تجفّف دموعها: واحدة منكن تخبر الحاج عشان يشوفها.

قالت صبحاء: الحاج نايم، والصباح رباح.

راحت الطفلة تصيح من غير أن تعي شيئًا مما حولها. تلقّفتها أمّها وأخرجت ثديها ووضعته بين شفتيها. سكتت الطفلة وتفرّقت النسوة من حول مهيرة ما عدا صبحاء. طبخت لها ديكًا على نار الحطب وقدّمت لها مرقًا ساخنًا، وطلبت منها أن تأكل لكي يتجمّع في ثدييها ما يكفي من الحليب. تأمّلت الطفلة وقالت: اسم الله عليها ما أحلاها!

ابتسمت مهيرة لهذا الإطراء، وشعرت بمودّة تجاه صبحاء.

حينما استيقظ الحاجّ من نومه، كان ذهنه صافيًا إلى حدّ ما. اقترب من زوجته وهنّأها بالسلامة. تأمّل الطفلة وهو يهدهدها بين يديه. فكّر قليلاً وقال: أسَمّيها مهيرة.

شعرت مهيرة بارتياح. ثم ساءت حالة الحاج. اقتادته صبحاء إلى فراشه، دثّرته بأغطية ثقيلة وتركته وعادت لرعاية مهيرة وابنتها. جاء منّان وظلّ جالسًا بالقرب من أبيه.

والآن تتذكّر صبحاء يوم رحيله الذي يحرّضها على النفور من كلّ رحيل، ولطالما حدّثت ابنها منّان عن جنازته، مع أنّه يعرف كلّ شيء عنها. وهو لن ينساها، ولن ينسى سطوة الموت الفادحة في ذلك النهار. تختلط المشاعر في صدره، وأثناء تذكّره للموت لا يدري كيف انبعثت في ذهنه تلك الليلة مع وطفاء، انبعثت وتجسّدت له كأنّ تفاصيلها وقعت قبل لحظات، وبدت كما لو أنّها الردّ الحاسم على قسوة الموت. طلبت منه وطفاء بعد أشهر من زواجهما أن يأخذها إلى الربوة التي شهدت علاقتهما الأولى في ليلة النار.

أخذها إلى هناك وتعرّت في الخلاء. ومع الفجر، صاحت ديوك العشيرة. استيقظت النسوة وحلبن الأغنام، واستيقظت وطفاء وسارعت إلى الحظيرة، ولم ينهض منّان من النوم على غير عادته. بقي نائمًا إلى ما بعد شروق الشمس.

ولم يعتب عليه عثمان. لم يعتب أيضًا على أبناء العشيرة الذين لم يصدّقوه. قال إن تقلّبات هذا الزمان ليست بالبساطة التي يمكن أن يدركها الجميع، ولم يقصد التفاخر أو ادعاء المعرفة. كلّ ما في الأمر أنّه اجتهد وأصاب. وقد يجتهد ولا يصيب، فيلجأ في هذه الحالة إلى العبث لتمضية الوقت وللتخفيف من الملل.

وكان بوسعه أن يهجر البرّيّة لأنّها أصغر من تطلّعاته. لكنّه لم يغادرها، كأنّه مرتبط بها برباط لا انفصام له، أو كأنّ لديه التزامًا تجاهها لا بدّ من الوفاء به، ومع ذلك فهو لن يتخلى عن أبناء عشيرته حينما يهمّون بالرحيل. هذا هو قراره الذي جاهر به منذ تحدّث معه المختار منّان في هذا الشأن، وهو لا يشعر بأنّه يناقض نفسه، حتى لو بدا أنّ في الأمر تناقضًا من نوع ما.

مثيلة، بدورها، أصبحت تنافس أمّ زوجها في تسريح الذاكرة في كلّ اتجاه. كما لو أنّه يعزّ عليها ترك البرّيّة. وهي تستعرض في ذهنها بعض معاناتها حينما كانت صبيّة مثل مهرة جامحة. مرّت عليها أسابيع وشهور وهي غير راضية عن اهتمام منّان بوطفاء إلى هذا الحدّ الذي تجاوز الحدود. حاولت غير مرّة التذمّر أمامه فلم يتجاوب معها في ما ذهبت إليه. كان يردّ عليها في كلّ مرّة بإضفاء مزيد من الحنان عليها وإبداء الرغبة فيها في أيّ وقت تشاء، فلا تعود قادرة على التذمّر. المهمُّ عنده أن تأخذ منه حقّها عليه، على ألا تتدخّل في حقّ وطفاء عليه.

ولم تستطع التخلّص مما يرهق نفسها إلا بصعوبة، وعلى نحو ينذر بتجدّد شقائها الذي تتسبّب فيه غيرتها وعدم استقرارها على حال. آنذاك ظهر الكلب الأسود وحاولت ألا تكترث له حينما جاءها في المساء. جاء على مهل وراح ينظر إليها بعينيه الحادّتين كلّما وقفت في مدخل البيت تترقّب عودة زوجها. اعتقدت للوهلة الأولى أنّه عطشان. سكبت ماء في طاسة معدنيّة ووضعتها أمامه. نظر نحوها كأنّه يبلّغها شكره وامتنانه. مدّ لسانه ولعق قليلاً من الماء، وراح يمعن النظر في وجهها الجميل، في رقبتها البيضاء، في قوامها الرشيق. ارتبكت والكلب يلتهم بعينيه تفاصيل جسدها، وساورتها المخاوف، واشتعلت في قلبها الظنون.

دخلت بيتها وغابت قليلاً وعادت وهي تحمل في يدها كسرة خبز. نظرت حولها، جالت بعينيها في محيط البيت، ونظرت نحو البعيد، فلم تر له أثرًا، ما جعلها أكثر ارتباكًا وأشدّ قلقًا. تساءلت بينها وبين نفسها فيما إذا كان هنا كلب بالفعل. وحينما رأت الطاسة، وانتبهت إلى كسرة الخبز. أيقنت أنّ الكلب كان هنا، وأنّها لم تكن واهمة.

عاد منّان إلى البيت ولم تحدّثه عن الكلب. نسيته قبل أن تنام. مرّت عليها سبع ليالٍ وهي لا تراه.

في الليلة الثامنة جاءها وهي مستلقية إلى جوار منّان. عرفته من لونه الأسود ومن نظرات عينيه. أقعى على قائمتيه الخلفيّتين وراح يتأمّل وجهها الذي يتحدّى ببياضه لون العتمة. قال لها: أنا ملك الجن. قالت له: لا أصدّقك. أخبرها أنّه يجيء على هيئة كلب لتطمئنَ إليه. سألته: شو بدّك مني؟ قال: بدّي أتزوّجك.

بحثت عن العصا ولم تجدها في متناول يدها. حاولت أن تمدّ يديها نحوه لتقبض على رقبته، فلم تستطع تحريك يديها. بدت مشلولة الحركة مكبّلة بقيود. حاولت أن تستجمع كلّ ما لديها من قوّة لكي تصرخ بأعلى صوتها، ولم تستطع الصراخ. ازدادت نظراته قسوة. أخيرًا انطلقت صرخة من حلقها، ثم استيقظت وجلست في فراشها. استيقظ منّان، وسألها: مالك؟

– اسم الله حولنا وحوالينا، الكلب الأسود.

– وين هو الكلب الأسود؟

حدّقت في العتمة، ونظرت لعلّها تراه، قالت: كان قدّامي.

– توكّلي على الله ونامي. هذا كابوس، لا تخافي.

– والله إني خفت. أستغفرك يا ربي وأتوب إليك.

وضعت رأسها على المخدّة، وراحت تستعيد حلمها.

وكرّرت ديوك العشيرة صياحها كالمعتاد. استيقظت مثيلة وسارعت إلى حظيرة الأغنام، واستيقظ الرعاة وساقوا أغنامهم إلى المراعي. أسرج منّان البغل منذ الصباح ومضى إلى الحقل. كانت البرّيّة مكانًا فسيحًا رغم اشتباك الجيوش على مسافة منها. وكان بالإمكان

تحصيل المتعة رغم ما في البرّيّة من عناء. ولم تكن وطفاء ترهق نفسها في تتبّع مسارات الحرب التي تستعر في البلاد بين الأتراك والانكليز. المهمّ عندها أن ترضي زوجها وأن تعتني بطفلها الذي له أذنا حصان.

قبيل الظهر، كان طعام الغداء جاهزًا. حملته ومشت مسافة غير قليلة في الخلاء، مشت في طريق الوادي وكان الجبل على يسارها، ثم انعطفت نحو السهول. اقتربت من زوجها ورأت السكّة تنغرز في جسد التربة. راقها المشهد وهو يضغط على عصا المحراث، والسكّة تغوص في التربة وتقلبها في نسق واحد. قال لها يمازحها: جئت متأخّرة.

ابتسمت وهي تدرك رغبته في المزاح وقالت: أجيء في الوقت اللي أريده.

تلبّسته رغبة مفاجئة جرّاء كلامها الظريف. قبض على يدها وحملها بين ذراعيه ووضعها فوق البغل ووركاها منفرجان على ظهره، وهي تتضاحك وتهمّ بالنزول. استبقاها وهي متردّدة لأنّها لم تركب بغلاً من قبل. ثبّتت جسدها فوقه وضغطت ساقيها ووركيها على بطنه من يمين ومن شمال. انتهره فانطلق قُدمًا والسكّة تخطّ في التربة ثلمًا جديدًا له دلالته ومعناه. رجته أن ينزلها لأنّها لم تعد تحتمل المزيد. أنزلها وهو يقبض على خصرها بيديه. انزاح ثوبها عن أعلى وركيها وارتمت على صدره. مدّدها على التربة وغابا عن الدنيا، والبغل استمرّ يحرّك ذيله ويهزّ رأسه، ولا يخطو خطوة واحدة إلى امام أو إلى وراء.

همدت حركتها، وهي تتأمّل بكسل لذيذ ما جرى قبل لحظات. نهض من جوارها وملأ راحة يده بالماء ورشقه على التربة الحمراء، وقال إنّ هذا يجعلها أكثر خصوبة. اختلج جسدها وهي تراه يرشق الماء. عدّلت ثوبها على جسدها وانتقت بعض حجارة الحقل، حملتها لتضيفها إلى حجارتها وصفتها كنزها الذي تتأمّله بعين الرضى بين الحين والحين.

ولم تكن مثيلة راضية. حاولت مرارًا أن تخفّف من غيرتها ولم تستطع. يسترضيها منّان فترضى إلى حين، ثم تجتاحها الغيرة كلّما لاحظت مدى الانسجام الذي يطبع علاقة منّان بوطفاء. هي لا تنكر أنّ علاقتها معه لا تقلّ انسجامًا، لكنّها لا تطيق أن يكون هذا الانسجام إلا معها ولها. كانت تدرك بحسّ الأنثى لديها ما يدور بين منّان ووطفاء من صخب قد لا تستطيعه هي بالدرجة نفسها، رغم ما لديها من صنوف الجذب والإغراء.

وهي تفتقد منّان هذه الليلة. لم يأت إلى بيتها مع أنّها توقّعت قدومه، ولَمّا أيقنت أنّ الوقت فات اضطرّت إلى النوم فنامت وجاءها على غير ميعاد. لم تشعر بالخوف مثلما شعرت في المرّة السابقة. بدت راغبة في الاستماع إليه. قال لها: أتزوّجك الليلة. قالت له: أنا امرأة متزوّجة. قال لها: لا يهم. رأته وقد تبدّل شكله واتخذ هيئة التاجر حميد. وقعت في بلبلة، وقالت له: أنت ملك الجنّ أم التاجر الغدّار؟ لم يجبها ولم يترك لها فرصة أخرى للكلام. حملها بين ذراعيه، وطار بها حتى وصلا قصرًا مشيّدًا تحت الأرض، له نوافذ وأبواب. في القصر رجال يغنّون ويرقصون ونساء يرقصن ويغنّين. سألته: ليش هذا الغناء؟ قال: إنّها ليلة زفافنا. أنزلها وأشار إلى الرجال والنساء إشارة من يده، فتوقّف الرقص والغناء، وانصرف الجميع، ولم يعد في القصر أحد غيرهما. اقتادها إلى مخدعه. وهناك امتلكها وهي ذاهلة عمّا حولها، ولم تعد قادرة على التفكير في أيّ شيء. تركّزت مشاعرها في الرعشة اللذيذة التي انتشرت في جسدها مثل موجة عارمة.

وظلّت غير قادرة على التلفّظ بكلمة واحدة تصف حالها، أو تشرح لنفسها ما الذي حدث؟ كيف انتقلت من بيتها إلى قصر

تدخله للمرّة الأولى؟ وكيف يمكنها أن ترتّب حياتها بعد الذي وقع؟ تقلّبت في فراشها وهي تنام نومًا مشوّشًا كما لو أنّها تخوض في بحر متلاطم الأمواج.

استيقظت في الصباح، وتذكّرت حلمها. ثم اتّخذت قرارها قبل أن ترفع رأسها عن المخدّة، بأنّها ابتداء من الليلة القادمة ستضع مصحفًا تحت مخدّتها، وستضع تحت فراشها حجرًا مسنونًا، وعصا غليظة.

❖ ❖ ❖

كانت أمّه تستمتع وهي تروي له الحكايات وتسرد عليه الأخبار التي تجمّعت لديها من هنا وهناك. لن تدع فرصة تمرّ من دون تذكّر الماضي الذي ترسّخ في وعي منّان، وهو الآن يتجوّل في البرّيّة التي لن يطول مقامه فيها، يرى الأمكنة التي يحفظها عن ظهر قلب، ويستشعر الذكريات بكلّ ما فيها من تفاصيل، ويتأمّل مقدار ما لأمّه من حضور في أمور كثيرة، ويتذكّر كلامها على أبيه وأخويه وأعمامه، كما لو أنّها حكت له عنهم قبل ساعات: قدّيش أبوك شاف مصايب وأحزان! لما الأتراك أخذوا عبد الله وفليحان، وأعمامك عمّار وعمر وعامر وعمير، أخذه الحزن عليهم. يومها قال: أخذوهم للحرب ويمكن ما يرجع منهم ولا واحد. ظل ينتظر رجعتهم من الحرب. يقعد على راس الجبل وينتظر. مرّت ثلاث سنين، وفي يوم، وهو قاعد على راس الجبل شاف شبح بني آدم جاي من بعيد. قلبه صار يدقّ في صدره مثل الطاحونة وقال: والله هذي مشية عامر. ركب فرسه وخلاها تركض مثل الريح. ومن خاب ظنّه. كان عامر في حالة صعبة من الويل اللي شافه. عامر

عرف الشيخ محمّد، وتعانق هو واياه. والشيخ سأله: وين عمّار وعمر وعمير؟ وين عبد الله وفليحان؟ كان يعرف أنهم قُتلوا في الحرب، لكنّه رغب في السؤال على أمل أنّه عمّك ينقل له الخبر اللي يسرّ البال. عامر قال: أخذتهم الحرب، تعيش أنت يا أخي. وأنا بكيت، مزّعت ثوبي عن صدري ولطمت وجهي ومَعْمَطِتْ شعري. وأبوك بكى وعمل مناحة. والله كانت دموعه بعرض وجهه مثل النسوان.

– الله يرحمهم.

– يرجع مرجوعنا لعمّك عامر. لما وصل بيوت العشيرة، فطّومة ما عرفته. وجهه مخطوف وأصفر وشعر لحيته طويل. حكى شو صار معه، قال: في مرّة من المرّات خالفت أوامر الضابط التركي، قام الضابط حبسني. عمّك ظل في الحبس سنة، وبعد السنة دبّر خطة هو وثلاثة من العسكر، كانوا معه في الحبس. قال: هربنا من الحبس ومشينا مسافات وبعدين تفرّقنا ومشى كل واحد منا في طريق. عمّك قال: أكلت صراصير وسحالي من الجوع.

– وأكل حراذين وجنادب.

– صحيح، انت عارف القصة. فطّومة لما شافت عمّك وعرفته وهو راجع من الحرب هجمت عليه. أخذته في حضنها، عَبْطَته وقَرْقَطَت فيه، وما استحت من الرجال يا قبرت عدوّاتها. صارت تبوسه ع خدّه اليمين وتبوسه ع خدّه الشمال، وبعدين دفنت راسها في صدره وبكت من الفرح. غاب عنها ثلاث سنين، وما كانت متزوّجة إلا من شهرين لما أخذوه. أي والله، يحقّ لها إنها تعبطه وتقرقط فيه، الله يكون في عونها، صبرت وتحمّلت، وفي الأخير، رجع لها والله يهنّيها فيه.

يتذكّر حكايات أمّه ويبدي إعجابه برغبتها في سرد الحكايات. إلا أنّه يدرك أنّ الحياة ليست مجرّد حكايات، ودليله على هذا زوج

أخته عثمان، الذي لا يتكلّم كثيرًا، وهو الآن يفكّر في المسار المتميّز الذي اختطّه عثمان لنفسه. هل كان يمهّد للرحيل من البرّيّة وهو يكثر من التردّد على المدينة؟ أم كان يحاول ربط البرّيّة بالمدينة كي لا تغادرها العشائر، وتبقى فيها ما دامت [illegible] المدينة تصلها بقليل من [illegible]؟ منّان لا يستطيع سبر أغوار عثمان، رغم أنّه يمحضه كلّ تقدير واحترام.

ذات صباح، ذهب عثمان إلى القدس وفي رأسه فكرة ما. وجد الحوانيت مغلقة بسبب إضراب نظّمه أهل المدينة احتجاجًا على عسكر الانكليز. عاد من المدينة وحدّث أبناء العشيرة عن الحوانيت المغلقة. حدّثهم عن عسف الانكليز وقال: أمور صعبة تحدث في المدينة.

ولم يكن المختار منّان هناك لكي يستمع إليه. مثيلة سمعت ما قاله. صبحاء ومهيرة سمعتاه أيضًا، ولم يكن الرحيل من البرّيّة يخطر ببال أحد آنذاك.

يتذكّر عثمان كيف عاد من المدينة ذات مساء وفي رأسه مشروع، قد يستمرّ فيه وقد يدركه الملل فيتركه غير آسف أو مستاء. رآه الأولاد وعلى ظهره كيس.

رجال آخرون تطيّروا مما أحضره عثمان، وكذلك بعض النساء. والبرّيّة، مع الوقت، لم تعد مثلما كانت من قبل.

عبد الجبّار، عمّ المختار منّان، يعي ذلك ويلاحظ أنّ البرية تغيّرت، أو ربّما أهلها هم الذين تغيّروا بفعل الزمن. وهو آخر من يفكّر بمغادرتها، حتى لو لم تصلها رياح المدينة ولم ينبها أيّ تغيير. وهو لا يستطيع العيش خارج البرّيّة حتى لو أسكنوه في قصر محاط بالأشجار وبالطيور التي تصدح في الصباح وفي المساء.

ولا يكفّ عبد الجبّار عن تذكّر أيّامه ولياليه في البرّيّة وما جرى له فيها آنذاك، ومنها أنّه قتل ضبعًا بالشبريّة وعاد بجلده إلى مضارب العشيرة، فأصبح مكرّسًا بوصفه أشجع رجالها وحامي حماها. وأصبحت هذه الحادثة من أبرز مرويّات التاريخ غير المدوّن لعشيرة العبد اللات. يرويها عبد الجبّار حينما يصفو مزاجه، وترويها صبحاء لابنها منّان مرّات ومرّات.

عثمان على العكس من عبد الجبّار. حينما عرف أنّ منّان ينوي الرحيل من البرّيّة لم يفاجئه الأمر، وكان بالإمكان حدوثه منذ أن أصبح منّان مختار العشيرة قبل سنوات. حينما تشاور منّان معه حول الرحيل أيّده في الحال. عثمان بعد هذه السنوات أصبح زوجًا لهيفاء، وهيفاء هي أخت منّان، ولديها استعداد للرحيل الذي يروقها ويروق زوجها، وسيتّخذ عثمان منه فرصة لتطوير تجارته.

وهو ما زال يذكر كيف أنّه لم يكفّ طوال أعوام عن خلط الجدّ بالعبث، وخلط العبث بالجدّ إرضاء لنزعة متأصّلة لديه. ولم يكفّ في الوقت نفسه عن خدمة الناس. عاد من المدينة ذات مساء وعلى ظهره كيس، وفي يده تنكة من صفيح. اقترب من مضارب العشيرة واتّجه إلى الساحة، وكان الأولاد يحيطون به وهم يتصايحون: عثمان رجع من المدينة.

كان مسرورًا لكلام الأطفال، لأنّه يوفّر عليه جهد المناداة على بضاعته، خصوصًا وأنّه يشعر بالتعب من طول الطريق. أطلّت النسوة من بيوتهنّ والأطفال يتساءلون: عم عثمان، أحضرت لنا ألعاب؟

ألقى نظرة على البيوت، وقال: هذي المرّة ما أحضرت لكم أي شيء.

وأضاف بعد لحظة صمت: أحضرت لأمّهاتكم الشيء اللي يريحهن.

أخرج جسمًا معدنيًّا من نحاس، له ثلاث أرجل، ثبّته على الأرض، ثم فتح غطاء صغيرًا بالقرب من إحدى الأرجل، ووضع في الفتحة التي كانت مغلقة بالغطاء جسمًا على شكل مخروط ينتهي بأنبوب. جعل التنكة قريبة من فوّهة المخروط وسكب سائلاً له رائحة حريفة في جوف الجسم المعدني. اقتربت صفيّة وهي إحدى زوجات المختار منّان وراقبت عثمان بفضول.

قال لها: هذا بابور كاز يا صفيّة، يغنيك عن الطبخ على نار الحطب. ولم تكن نار الحطب قليلة الأهمية أو ترفًا لا لزوم له، فهي تذكّر عثمان بأجداده الأوّلين الذين اعتمدوها لكي تجعل حياتهم ممكنة. وما بابور الكاز هذا إلا محصلة لتلك النار، ونتاجًا لجهد بشري حثيث من أجل حياة أكثر استقرارًا ومنعة.

تجمّعت نساء كثيرات من حوله، وانهمك في استخدام ما يشبه المكبس يسحبه من جوف البابور ثم يضغطه نحو الداخل، ليتصاعد الكاز من عين صغيرة في وسط البابور. أشعل عود ثقاب وقرّبه من الكاز فاشتعلت فيه النار. أعاد مشهد النار لعدد من النسوة ذكريات غائرة في الأعماق، وأدخل إلى نفوسهنّ بعض الرهبة التي يخفّف من وطأتها إقدام عثمان على خوض التجربة بكلّ اندفاع. حينما قاربت النار على الانطفاء، عاد إلى تحريك المكبس بعد أن أغلق صمّامًا صغيرًا كان مفتوحًا لدخول الهواء إلى جوف البابور، فاشتعلت النار في شكل دائري حول الرأس المعدني الذي تحيط به قضبان معدنيّة يمكن أن يرتكز عليها إبريق فيه ماء، أو طنجرة لطبخ الطعام.

وفي حين تحمّست نسوة لشراء البوابير، أحجمت أخريات عن الشراء خوفًا من عواقب غير منظورة وتحسّبًا من شرور كامنة في مكان ما.

حينما توسّعت تجارته، استخدم بغلته بعد أن جهّزها بصحّارتين معدنيّتين ثبّتهما على ظهرها، ليحضر كلّ أسبوع أربع تنكات من الكاز الذي يكنّ له احترامًا خاصًّا، وهو يشعر بالمهابة أمام وطأته لما ينطوي عليه من نار كامنة، يمكنها أن تحرق الأخضر واليابس، ولم يقصر تجارته على نساء عشيرته، بل أصبح يبيع البوابير والكاز لنساء العشائر الأخرى. كان يحذّر النساء دومًا مما في الكاز من مخاطر رغم ما فيه من منافع، والنساء كنّ يضعنه في زوايا آمنة في بيوتهن، ويجعلنه بعيدًا من أيدي أطفالهنّ ومن عبثهم، وحينما يأوين إلى فراشهنّ كانت تزورهنّ في أحلامهنّ عرائس من لهب أصفر يؤجّجها الكاز، فيواصلن في الصباحات التالية التأكّد من المكان الذي يحفظن فيه سلعتهنّ الأثيرة.

تعزّزت مكانة عثمان في البرّيّة، وصارت العشائر تنظر إليه بوصفه الشخص الذي يمكن توقّع أمور عجيبة منه، يدبّرها ببالغ حكمته، أو يجلبها معه قبل أن يفطن إليها أحد أو يفكّر فيها أحد.

ظلّ رجال آخرون ينظرون إليه بريبة وعدم اطمئنان. الموقف نفسه وقفته منه نساء أخريات.

❖ ❖ ❖

مثيلة تتأمّل ابنتها البكر، ولا تدري إن كانت لديها رغبة في الرحيل من البرّيّة، أم أنّها كانت ميّالة للبقاء فيها مثل جدّتها صبحاء.

وهي ما زالت تتذكّر كيف أنجبتها قبل سنوات. ظلّت تصرخ إلى أن ألقمتها ثديها. كانت معنيّة منذ اللحظة الأولى بتأمّل ملامح

وجهها لعلّ فيها ما يطمئنها. لم تستطع الجزم بشيء لكنّها تخفّفت من هواجسها لاعتقادها أنّها لن تواجه أزمة أو أيّة شائعات.

احتضن منّان المولودة على مضض لأنّه كان يتوقّع أن تلد زوجته مولودًا ذكرًا. تأمّل ملامح وجهها ولم يدقّق فيها كثيرًا ثم سمّاها: فلحة. ولم ترتفع فوق زاوية البيت راية بيضاء. بدا الأمر كما لو أنّ أحدًا لا يحسّ بأنّ حياة جديدة تفتّحت في البرّيّة مثل نبتة شقّت بطن التربة وخرجت إلى الشمس والهواء.

بكت فلحة، أرضعتها أمّها ونامت حتى منتصف الليل، ثم استيقظت وظلّت تبكي حتى الصباح.

الآن، أصبحت فلحة بنتًا مراهقة، وهي ستغادر البرّيّة مع أهلها إنْ غادروها، وستبقى معهم إنْ بقوا فيها. فلحة لم تفصح عن رأيها حول ذلك ولم يسألها أحد رأيها. فهي لا رأي لها في أمور السكن والمعاش، وما يعني أهلها لا يعنيها كثيرًا، فلديها اهتماماتها الخاصّة التي لا تطلع أحدًا عليها، بل تستبقيها لنفسها لتتأمّلها وحدها في الليل، قبل أن تنام.

كانت تذرع المسافات التي تفصل المضارب عن بعضها بعضًا وهي تركض بخطوات واسعة تنمّ عن وقاحة، بحسب رأي النساء اللواتي خبرن شؤون الدنيا، لأنّ هذا الركض لا يليق بفتاة عذراء. كان أبوها ينتهرها كلما رآها راكضة. تحدجه بعينين حادّتين. يقول لنفسه: ما أوقحَ هذي البنت! ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستغفره لأنه يشتطّ كلّ هذا الشطط ويدمغ ابنته بصفة لا تليق.

ولولا المشاغل التي كانت تملأ وقته لاستطاع أن يكرّس لها اهتمامًا أكبر. كأنْ يوجّه لها النصح والإرشاد كلّ صباح، ويطلب منها

أن تصلّي الأوقات الخمسة، وأن تصوم شهر رمضان. فلحة لم تكن تصلي ولا تصوم، وأمّها اعتادت أن تقول: البنت صغيرة يا ناس، لا تظلموها. ربّما كانت صغيرة بالفعل، وربّما لهذا السبب هي تركض بين المضارب هذا الركض المحموم.

وهي لا تعرف المستر جون ولا تدري أنّه ما زال يتذكّر أمّها. أمّها نفسها لا تدري أنّه ما زال يتذكّرها، وهي غير معنيّة به ولم تفكّر فيه لحظة واحدة. فكّر فيها جون ولم ينسها في الحال. وهو يقرّ بأنّ له ذكرياته عن البرّيّة، بعضها سارٌّ وبعضها باعث على الأسى. يذكر ولعه بالجبال وبالسهول وبانفساح المدى الذي يثير البهجة في القلوب، ويذكر إعجابه بانزواء المضارب في الأماكن البعيدة. وفي الوقت نفسه، كانت تصيبه وهو يتجوّل في البرّيّة على ظهر فرس، مخاوف من كمين هنا أو هناك، ومن رصاصة يطلقها عليه فلسطيني لا يرغب في رؤيته في هذه الأرض التي عمرها الفلسطيني منذ سنوات طويلة، وحرثها وزرعها وعاش من خيراتها واستولد نساءه فيها أولادًا عاشوا وخلّفوا بدورهم أولادًا وبنات، وما زال نسلهم في ازدياد رغم تكاثر الشرور عليهم. جون يشعر بالتعاطف معهم حينًا، وبالحقد عليهم حينًا آخر.

وهو يذكر الآن تلك الأيّام الأولى حينما جاء وحده إلى البرّيّة وفي ذهنه امرأة لا يعرف اسمها. ظلّ يستحثّ فرسه على الهرولة بين المضارب حتى وصل بيت مثيلة. ولم يكن يعرف أنّها زوجة المختار منّان. قرّر أن يسأل عن المختار كي لا يثير قدومه إلى المضارب أيّة شبهات. هبط عن الفرس حينما رآها واقفة عند مدخل البيت، تمامًا مثلما رآها في المرّة الأولى. سألها وهو يتأمّل وجهها: أين المختار؟

قالت بصوت ينمّ عن استغراب: ما هو موجود، ذهب إلى المرعى.

– ممكن أدخل، أنا أفكّر في تأليف كتاب.

– اذهب إلى المضافة، هناك بتلاقي حدا يستقبلك.

– لماذا لا تستقبلينني أنت؟

ثمّ قال بعد لحظة صمت: أنت امرأة جميلة.

اقترب منها، وحينما صار وجهه قريبًا من وجهها، بصقت عليه وقالت: إنْ ما انصرفتَ من قدّامي، صرخت وجمعت عليك العشيرة.

تذكّرت العصا التي تضعها تحت فراشها. خطت مسرعة نحوها، فارتبك المستر جون، وامتطى فرسه وابتعد. لم يتوقّع تصرّفها. اعتقد أنّها لن تستاء من ملاطفته لها. وبدا له أنّ الانطباعات التي يحملها عن هذا الشرق غير دقيقة، وفيها مبالغة وسوء تقدير، وعليه منذ الآن أن يكون حذرًا. ولن ينزع من رأسه الصورة التي تكوّنت لديه من قراءاته عن الشرق، لأنّ نزعها يعادل نزع رأسه ورقبته عن كتفيه. ضغط على بطن فرسه بكلتا ساقيه، وانسلَّ خارجًا من مضارب العشيرة.

آنـذاك، بعد احتلال عسكر الانكليز للبلاد، وافق منّان على زواج علي أوغلو بأخته مهيوبة. ابتهج علي أوغلو لهذا الزواج، مع أنّه ظلّ متألّمًا فترة غير قصيرة لرحيل زريفة. كانت امرأة مولعة بزوجها معنيّة براحته ورضاه. ولم يغب عن باله أنّ فيها شيئًا من لهفة أمّها على متع الحياة التي جرّبتها أيّام صباها، مع فارق بسيط هو أنّ زريفة ظلّت متكتّمة على رغباتها لا تفصح عنها إلا بحذر شديد، وبينها وبين زوجها على وجه التحديد. أمّها كانت على العكس منها، كان صيتها منتشرًا في البرّيّة، وسيرتها كانت على كلّ لسان. علي أوغلو عرف كلّ

شيء عن حفيظة والدة زوجته. عرف عن نزواتها وعلاقاتها التي لم تكن تقيم وزنًا لأعراف العشيرة. ولأنّها البنت الوحيدة بين سبعة أخوة ذكور، دلّلها أبوها وترك لها حرّيّة التصرّف على هواها.

كان هذا ملائمًا لتفلّتها الذي لم يقف عند حد. حاول أخوتها لجمها فلم يفلحوا، ولم يتمادوا في الضغط عليها كي لا يغضبوا أباهم الذي كان يمحضها حبّه وفيض عواطفه، ولا ينالها منه سوى بعض اللوم على أيّ تصرّف من تصرّفاتها الناشزة، التي كانت تستفزّ العشيرة وتجعلها متحفّزة لمعاقبتها، فلا يعاقبونها لتنطّح أبيها المستمرّ دفاعًا عنها وحماية لها.

تعلّقت أوّل الأمر برجل من عشيرتها، فانبرى له ابن عمّها الذي كان راغبًا في الزواج بها، دخل معه في شجار. طعنه بالشبريّة في خاصرته فقتله ثم تزوّج حفيظة. وكان لا بدّ من عطوة عشائرية وصلح أسفر عن دفع ديّة الرجل القتيل. بعد الصلح بأسابيع، كمن أخوة القتيل لزوج حفيظة وقتلوه، وكان لا بدّ من عطوة عشائرية وصلح، ثم تواصلت عمليّات الأخذ بالثأر داخل العشيرة نفسها، لتنتقل بعد أعوام قليلة إلى عشيرة المطالقة، حيث اختطف أحد رجالها حفيظة، وتزوّجها وعاش معها متخفّيًا عن أهله وأهلها في مضارب عشيرة العبد اللات مدّة عام، بعد أن استجار بهم وأجاروه واعتبر نفسه دخيلاً عليهم فقبلوه في بيوتهم.

في تلك الأثناء، غنّت نساء عشيرة الرواجفة التي تنتمي لها حفيظة كثيرًا من الأغاني التي يحرّضن فيها رجالهن على الانتقام:

واربطوا لابن المطالقة عند طلعة الهامه
واذبحوه بالشباري يا أهل الشهامه.

وحينما عرف أهلها بمكان اختفائها معه كمنوا له وقتلوه، فثارت ثائرة العبد اللات، إذ كيف يقتل أبناء الرواجفة رجلاً دخيلاً عليهم محتميًا بهم؟ اعتبروا هذا اعتداء على كرامتهم ولا يمكن التساهل معهم فيه.

فانتقلت دائرة الانتقام والأخذ بالثأر لتنغّص عيش العشائر الثلاث: العبد اللات والرواجفة والمطالقة. وكانت الحصيلة النهائية للوقوع في حب حفيظة والزواج بها أحد عشر قتيلاً. ولم تتوقّف عمليات الأخذ بالثأر إلا بعد عشر سنوات، حينما تدخّلت إحدى عشائر البرّيّة في النزاع، وأوقفت نزيف الدماء وأبرمت صلحًا بين العشائر الثلاث.

وكان من نتائج الصلح تزويج حفيظة لرجل من عشيرة العبد اللات، أنجبت منه ولدًا وأربع بنات. هذا الزوج قتله مجهولون بعد خمس عشرة سنة من اقترانه بحفيظة. حلفت عشيرتا المطالقة والرواجفة الأيمان التي تؤكّد أنهما بريئتان من دمه أمام حشد كبير من الناس في ساحة المسجد الأقصى، فاعتبرت عشيرة العبد اللات هذا كافيًا، وظلّت بضع سنوات تبحث عمّن قتلوا ابنها من دون أن تظفر بأيّ دليل، فتوقّفت عن البحث. وهكذا ضاع دمه، وزهدت حفيظة بعده بالشهوات حين لم يتزوّجها أحد، خوفًا مما قد يتعرّض له من أذى أو انتقام.

بعد موت زريفة، انتظر علي أوغلو بضعة أسابيع، ظلّ يترصّد المختار منّان حتى وجده يتمشّى على مسافة من المضارب. كانت تلك عادته، فحينما يستبدّ به القلق أو تساوره فكرة ما يخرج إلى الربوة الواقعة غير بعيد من المضارب، يجلس فوق صخرة أو يأخذ في التمشّي

جيئة وذهابًا وعباءته ترفرف من خلفه. اقترب علي أوغلو منه وفي نيّته تذكيره بوعده له: أن يزوّجه بواحدة من أخواته. رآه وهو يقترب منه. خَمّن ما يفكّر فيه. قال له: عسى ما فيه شرّ يا علي.

قال علي: يبعد الشرّ عنك يا مختار.

وبعد لحظة صمت أضاف: جئت أذكّرك بالوعد.

فهم المختار قصده وقال: من جهتي ما عندي اعتراض، لكن يلزم أن نسمع رأي مهيوبة.

عاد علي أوغلو إلى المضارب، وظلّ المختار يتمشّى في المكان وهو مطرق الرأس، كما لو أنّه يفكّر في أحوال الدنيا. أخيرًا، أدركه التعب. جلس فوق صخرة ونظر نحو الغرب وارتفع صوته بالغناء. غناء بدوي جرّب الدنيا وما زال راغبًا في مزيد من التجريب، مع ما يرافق هذا من مخاطر والتباسات.

وصبحاء لا تنام إلا بعد أن تروي لابنها منّان ربّما للمرّة الثالثة ما كان من أمر فطّومة مع زوجها الذي عاد من الحرب:

– قدّيش فرحتْ لرجعة عمّك عامر وقالت له: كلّ النسوان حبلن وخلّفن اولاد، وأنا بقيت انتظر. انتظرت والله صبّرني وانت رجعت بالسلامة، ولا يمكن أقبل إلا بأولاد سبعة وبنات ثلاث. قال لها عمّك: توكّلي على الله يا فطّومة وما كتبه الله إلنا إن شاء الله يصير. فطّومة شلحت ثوبها، وكل شي على بدنها شلحته، وعامر قاعد يشرب الشاي. فطّومة ما خجلت وهي مشلّحة لأنّه عامر زوجها. تحمّمت وهو مبسوط لأنها مبسوطة.

– وكلّ هذا الكلام كيف وصل لك يا أمّي؟

– فطّومة حكت للنسوان، وهن حكين وما خلّين كلمة إلا قلنها، وهي قالت لهن إنها أنهت حمّامها وقالت له اشلح وتعالَ. شلح وسكبت

على جسده الماء الساخن وحَمَّمته. ولاحظت أنه ما عنده همّة، يعني مثل النار لما تخمد وتصير رماد. قال لها: امهليني يومين، أنا تعبان. أمهلته سبعة ايام، وفي اليوم الثامن اشترت من السوق رطل فلفل حرّاق، وبطنه صار كأنّه فيه نار، وصارت تطبخ له كل يوم ديك، وظلّ الحال على ما هو عليه، وعمّك عامر محروق قلبه من مصايب الزمان.

❖ ❖ ❖

بعد دخول عسكر الانكليز إلى البلاد، جاء إلى المضارب رجل يرتدي عمامة ويطلق لحية مسترسلة، لا يملك من متاع الدنيا سوى دفّ ومخلاة فيها كتب وأقلام وأوراق. على هذه الأوراق كتب الرجل عقود زواج لأزواج من العشيرة وزوجات.

أقام «الخطيب» واسمه عبد الرحمن بضعة أعوام في كنف العشيرة، يعلّم الأولاد قراءة القرآن، ويذهب مساء كلّ خميس، في حشد من أبناء العشيرة، إلى مقام سيدنا حامد، بعد أن تَمّ توسيعه وإضافة غرفة غير مسقوفة إلى جواره بناها أتباعه والمريدون من حجارة وطين، وصاروا يقضون الليل وهم يتهجّدون ويقيمون الذكر على أنغام الدفّ. تنساب أصواتهم في هدوء الليل، وتمتدّ بعيدًا إلى أن تصطدم بالجبال، فترتدّ نحو الأودية تتصادى فيها على نحو عميق.

لم يكن الخطيب معنيًّا بتقصّي تاريخ المكان. سمع غير مرّة حكايات تشكّك في سلوك التاجر حميد، ما يجعل الربط بين اسمه واسم سيدنا حامد غير مقبول. بعض أبناء العشيرة استمرّوا يدافعون عنه، وينحون باللائمة على من يكيلون له الاتّهامات، قائلين إنّهم

ينطلقون من أحقاد دفينة ضدّ المختار منّان ووالده الحاج محمّد لأسباب تراكمت على مدى سنوات.

ولم يضيِّع الخطيب وقته سدى. كتب لرجال العشيرة عقود زواج ممهورة ببصماتهم وبصمات الشهود. كان يطلب من الشاهد أن يبلّ طرف إبهامه بلعابه، يصبغه بقلم الكوبياء، ثمّ يضغط إبهامه على أسفل عقد الزواج. ولم تعد العشيرة تلجأ، إلا نادرًا، إلى طقس الحجارة التي يجلس عليها العريس وعروسه لعقد القران. كان الخطيب حينما تحدوه الرغبة في المزاح مع أصدقائه من أبناء العشيرة يبادرهم بالقول: أولادكم أولاد حرام، وبناتكم بنات حرام.

يضحكون لهذا الاتهام، ويؤكّدون له أنّ ما يعنيهم النيّة الحسنة التي توجّههم في شؤون دينهم ودنياهم، فلا يعلّق، ولا يهدر مزيدًا من الوقت. أسّس مدرسة لتعليم الصبيان، أصبحت محطّ أنظار العشيرة التي لم تستنكف عن إرسال أطفالها إليها للتزوّد بمبادئ القراءة والكتابة. لكن لم يرغب أحد من أبناء العشيرة في إرسال ابنته إلى المدرسة، حتى الخطيب، لم يفكر أصلًا في تعليم البنات.

أحضر معه كتبًا فيها وصف مفصّل لتغريبة بني هلال ولحرب داحس والغبراء ولبطولات عنترة بن شدّاد والزير سالم، وللمواجهات الدامية بين كليب وجسّاس. شدّ الخطيب انتباه العشيرة وهو يتلو عليها في الأماسي الرائقة ما في كتبه من أخبار وأشعار، حتى إنّ الحاجّة صبحاء، كانت تجلس في الجهة المحاذية للمضافة في بيت زوجها، وفي ما بعد في بيت ابنها، لتصغي إلى ما يتلوه الخطيب على أبناء العشيرة. كانت تعيد على مسامع ابنها بعض ما سمعته على لسان الخطيب، بعد أن تحوّر فيه وتحذف منه وتضيف إليه،

فيحتمل ابنها كلّ ما تقوله رغم أنّه استمع إلى الجزء الأساسي منه على لسان الخطيب.

وكانت للخطيب تطلّعات، فهو لم يكن قانعًا بأنْ يظلّ مجرّد معلّم للصبيان وراوية لتغريبة بني هلال وبطولات عنترة والزير. كان يتوقّع أن تحلّه العشيرة في منزلة مرموقة بين رجالها، بحيث يكون له رأي في كلّ شيء، بما يوازي نفوذ شيخ العشيرة ومختارها. بذل جهودًا كثيرة لكي يبلغ تلك المكانة، وعبّر عن رغبته هذه مرّة بالتلميح وأخرى بالتصريح. وفي ما بعد، أدرك أنّ العشيرة لا توليه التقدير اللازم، ما أدخل إلى قلبه ضيقًا ظلّ يخفيه زمنًا، ولم يستطع إخفاءه حتى النهاية.

وراجت شائعة تقول إنّ الخطيب عنّين لا ينفع النساء، ولهذا لم يتزوّج ولا يفكّر في الزواج. ومما عزّز من قوّة الشائعة تلك الفتوى التي خرج بها على الناس مطالبًا بضرورة منع النساء من الاقتراب من حمير العشيرة وأحصنتها التي تمارس طقوس الشهوة أمام أعينهنّ، ما يجعل شهواتهنّ أكثر احتدامًا. وطالب بضرورة حجز الحمير والأحصنة في حظائر محاطة بسلاسل حجرية عالية لكي تمارس طقوسها مثلما تشاء بعيدًا من عيون النساء. ثم أسقط في يد الخطيب حينما فاجأه أبناء العشيرة بشيء من السخرية، وهم يشيرون إلى أنّ الكلاب والقطط والخراف وتيوس الأغنام والديوك تمارس الشيء نفسه مع إناثها من دون اكتراث للنساء ولمشاعرهن. فأين يذهبون بهذه كلّها؟ ثم اقترحوا عليه أن يسحب فتواه ويترك الحياة في العشيرة تمضي على سجيّتها من دون حظْر أو تعقيدات، فاضطرّ إلى السكوت على مضض، ولم يعد إلى إطلاق الفتاوى.

غير أنّ هذا لم يمنعه من توجيه النصح لهم في ما يتعلق ببعض شؤونهم الخاصة. نصحهم بأن يستعيذوا بالله من الشيطان كلّما

جلسوا لتناول الطعام، وإلا فإنّ الشيطان سيأكل معهم، وبأن يستعيذوا بالله من الشيطان كلما ناموا مع زوجاتهم، وإلا فإنّه سيواقعهنّ قبلهم، واقتنع كثيرون منهم بكلامه.

حذّرهم أيضًا من الصخور الصمّاء التي تبدو متراصّة عند سفوح الجبال وعلى مقربة من الطرق الوعرة. قال إنّها ليست إلا شرًا مسخوطين خالفوا شرع الله، وعليهم كلّما مرّوا بمحاذاتها أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم كي لا يسخطهم ربّ العباد. ظلّ كلام الخطيب هذا مدارَ أخذٍ ورد بين أبناء العشيرة، وقد ترك أثرًا غير قليل في نفوس عدد لا يستهان به منهم.

التحق محمّد الكبير بالمدرسة. وكان المختار يغضب كلّما سمع الأولاد ينادون ابنه صائحين: يا بن فاطمة المجنونة. كان محمّد الكبير نفسه يغضب أيضاً، فيقذف الأولاد بالحجارة، ويركض المختار خلفهم شاتمًا صائحًا: يا أولاد الزانيات، هذا محمّد بن منّان محمّد عبد الله.

ولا يلبث المختار أن يقبض على طفل هارب، فيشدّه من أذنيه ويصيح: ما اسمه؟ انطق، قل.

ينظر الطفل بعينين خائفتين مثل أرنب محاصر، ويقول: محمّد منّان.

– نعم، هذا هو اسمه. إيّاك تقول إنّه ابن فاطمة المجنونة.

– طيّب.

يفلته، فيمضي، وحينما يبتعد، يتوقّف لحظة ويصيح: ابن فاطمة المجنونة.

لا يفكّر المختار بمطاردته، لأنّ ذلك سيجرّ عليه عبثًا مضاعفًا من أطفال آخرين. يمضي مبتعدًا، ويحاول ابنه تدبّر أموره وحده مع الأطفال. بدا عليه أنّه واسع الحيلة، وأنّه يبشّر بإمكانات واعدة.

يعود في المساء إلى البيت بعد ساعات من اللعب، ينفرد عن بقية أطفال العشيرة بدخول المضافة حيث يسمر الرجال. يسارع إلى حضن جدّه الحاج، الذي حاز شرف انتقال اسمه إليه. يندسّ داخل فروته، ولا يلبث أن يختفي في تضاعيفها حتى ينساه الرجال، وينساه جدّه الذي يبدو في أغلب الأحيان ذاهلاً عمّن حوله، وفجأة يطلّ برأسه ويموء مقلّدًا قطًّا ملحاحًا، يتلفّت الرجال باحثين عن مصدر الصوت، يكتم محمّد ضحكة ويواصل المواء. يبصره أبوه، يضحك محمّد بجذل، يخرج من تحت الفروة، يضحك الرجال وهم معجبون به، ثم يمضون بعض الوقت وهم يوجّهون إليه الأسئلة، وهو يجيب عن أسئلتهم بشكل جادّ مرّة، عابث مرّة أخرى، ويتمنّى في الوقت نفسه لو أنّ أحدًا من الأطفال ممن هم في مثل سنّه يسمعه وهو يخاطب الرجال، لكي يتفاخر أمامه بما له من حظوة ومحبّة في نفوس أهله وأقاربه.

لم يكن أحد من الأطفال يجرؤ على دخول المضافة سواه. كان يتمنّى لو أنّ الرجال يواصلون اهتمامهم به، إلا أنّهم لا يلبثون أن ينهمكوا في أحاديث لا يفقه منها شيئًا، فيلوذ بفروة جدّه مرّة أخرى، وبعد لحظات ينغلق جفناه وينام.

كان يذهب إلى المدرسة كلّ صباح، قابضًا بيده على البيضة والرغيف، يقدّمهما إلى الخطيب لقاء دروس القرآن، ثم يغافل الخطيب وهو منهمك في تعليم الأولاد. يسرق البيضة والرغيف، يأكلهما ويواصل قراءة القرآن. يكتشف الخطيب أمر السرقة حالما يبدأ في عدّ البيض وأرغفة الخبز التي تجمّعت لديه، فيصاب بخيبة أمل، يأمر الأولاد بعصبية بالغة: هس، سكوت، سكوت.

يسكت الأولاد، يعدّهم الخطيب بعينيه، يجد أنّ عددهم لا يتطابق مع عدد البيض والأرغفة، يعود إلى العدّ من جديد، فيما عينا

محمّد الكبير تلمعان بخبث، يصيح الخطيب: من منكم لم يحضر البيضة والرغيف؟

لا يتكلّم أحد.

– إذا لم تخبروني أعاقب الجميع.

يقول أحد الأولاد: أنا أعرف وين راحت البيضة والرغيف.

– أين يا ولد؟ قل.

– في بطن محمّد الكبير.

ينكر محمّد الكبير الأمـر. يفتح الخطيب شدقيه بيديه الخشنتين، يعثر على بقايا البيضة عالقة بين أسنانه، يجلده بالعصا على قفاه، غير آبه لصراخه الذي يملأ الأرجاء.

أخوه من أبيه، أدهـم، اعتاد أن يركض بين المضارب وحول حظائر الأغنام وهو يطلق صهيله الذي كان مبعث دهشة للأطفال. يصغون إلى صهيله ثم يتشاجرون معه. تغريهم بذلك أذنـاه. تبدأ المشاجرة حينما يرغب أحد الأطفال في تلمّس الأذنين الطويلتين. يحاول أدهم إبعاد اليدين الممدودتين، ثم تكثر الأيدي التي ترغب في تلمّس الأذنين. يتأهّب أدهم للدفاع عن نفسه، فتشتدّ الأيدي التي تجذب الأذنين. يقبض بقوّة على عنق أحد المعتدين، فيصرخ الطفل وهو على وشك أن يختنق، ويكفّ عن القبض على أذني أدهم. يواصل ثلاثة أطفال أو أربعة جذب الأذنين، وأدهـم يواصل الضغط على عنق بعد أخرى، ويمتدّ الشجار ولا ينتهي إلا حينما يهبّ محمّد الكبير لنجدة أخيه، وتظهر مثيلة وهي ترفع صوتها منددّة بالمعتدين. يهربون في اتّجاهات شتى، وهي تمسك بيد ابن ضرّتها المتوفّاة وتعود به إلى البيت، تلاطفه وتمسّد شعره ثم تقدّم له الطعام.

4

المختار منّان ما زال يذكر كيف أنّ نساء العشيرة صرن يتطيّرن من ابنه محمّد الكبير. راج لديهنّ اعتقاد بأنّ الولد ممسوس مثل أمّه. حينما يقترب من أيّة واحدة منهن، تبادر إلى طرده، وتنشغل بترديد الأدعية والتعاويذ توقّيًا من أذاه. بعض النسوة لم يكنّ يكتفين بهذا، بل يبادرن إلى رشّ المكان الذي داسته قدماه بالماء، مع الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

اتّفق الأولاد على معاداته، وهو نجح في الاستفراد بهم واحدًا واحدًا، يضربهم بقسوة، ويجعل الدماء تسيل من أنوفهم، يبرّر فعله هذا كلّما عنّفه أحدٌ على شراسته: من يقل لي أنت ابن فاطمة المجنونة أضربه.

ولم يكفّ عن إثارة فضول النساء. عاد ذات مرّة إلى مضارب العشيرة وهو يحمل بين يديه غزْلة من صوف في حجم الكرة. قال معتدًّا بنفسه، نافخًا صدره مثل ديك: انظروا يا أولاد، انظروا.

تجمّع الأولاد من حوله، خرجت النسوة من البيوت وهنّ يتابعنه في استغراب، قال: هذي فرس العيلة، أنا مسكتها.

فوجئت النسوة بكلامه، واعتراهنّ خوف مباغت. تضاحك الأولاد، وقال أحدهم: هذي غزْلة صوف.

لم يكترث له محمّد الكبير، قال: شفتها قادمة من بعيد، ولَمّا لمست ظهرها صارت غزْلة.

صدّقت النساء ما يقوله الولد، فهذه الفرس متسلّطة على العشيرة لسبب ما. صبحاء هي الوحيدة التي خالفت النساء في ما ذهبن إليه. قالت: هذي غولة. الغولة اللي شافها عبد الجبار في الليل.

كلام صبحاء هذا وافقت عليه بعض النساء، ولم توافقها الرأي نساء أخريات. سيطرَ الخوف على النساء، بصرف النظر إنْ كانت تلك الغزْلة هي فرس العائلة أم هي غولة عبد الجبّار.

وحينما لاحظ محمّد الكبير تطيّر النساء ونفورهنّ منه صعد إلى قمّة الجبل، وأفلت الغزْلة من بين يديه. راحت تتدحرج صوب الوادي، وأقسمت نساء كثيرات أنّهن رأين فرس العائلة تركض نحو الوادي، فأصبحن يجفلن كلّما أبصرن محمّد الكبير وهو يحمل شيئًا بين يديه.

جدّته صبحاء ظلّت تعطف عليه بسبب حرمانه من عطف أمّه وحنانها. تمسّد شعره كلّما جاء إلى بيتها وتتأمّل وجهه البريء وتُسمعه أحلى كلام. كانت تأخذه معها إلى بيت ضرّتها مهيرة تعبيرًا عن حبّها له، وللاطمئنان على زوجها النائم في فراش المرض. ويكون ابنها المختار منّان قريبًا من أبيه. يرى ابنه معها فيشعر بامتنان تجاهها، وهي تلحظ المودّة في عيني ابنها، ولا تفكر في التعليق على الكلام الذي تردّده نساء العشيرة عن مهيرة. يقلن إنّها تعشق القمر، وتطيل التحديق فيه حينما يكون بدرًا في السماء. وحينما يكون

هلالاً تستقبله مثلما تستقبل صبيّةٌ حبيبها، ولولا الحياء لطلبت منه أن ينزل إليها لكي تضمّه إلى صدرها. وحينما لا يكون ثمة قمر في السماء، تظلّ مشغولة البال إلى أن يظهر من جديد. صبحاء تستغفر لله العظيم وتقول إنّ هذه أوّل مرّة تسمع فيها عن امرأة تعشق القمر. ولا يمكنها أن تصدّق ما يقال، لأنّ مهيرة امرأة عاقلة كما تعتقد. وتفسّر النساء حالتها بالقول إنّها مشدودة إلى القمر لزواجها من رجل يكبرها في السنّ بسنوات كثيرة، وما تفعله ليس إلا دليلاً على التعلّق بشخص ما. مهيرة سمعت هذا الكلام ولم تعره أيّ انتباه، وصبحاء لن تعيره أيّ انتباه. واصلت كالعادة سرد حكاياتها وابنها يستمع إليها، ولم يكن لها من هدف سوى إدخال المسرّة إلى قلبه وقلوب بقيّة أبناء العائلة وبناتها.

كان هذا النوع من السمر يتكرّر مرّة بعد أخرى. وحينما كان زوجها يصحو من هجعته، وتكون لديه رغبة في الكلام، تصمت تاركة الميدان له مع أنّه لم يعد يجيد الكلام، صار كلامه أقرب إلى الهذيان. يسأل: حلبت النعاج يا صبحا؟

– حلبتهن يا حاج محمّد.

– أطعمت النعاج يا صبحا؟

– أطعمتهن يا حاج.

– ربطت فرس والدي عبد الله يا صبحا؟

– ربطتها.

– والدي رجع من اطراف البرّيّة يا صبحا؟

– والدك الله يرحمه.

– ها...

يصمت ويستبدّ به الشرود، تتأسّى على حاله وتقول: كان ذهنه ما تغيب عنه لا شاردة ولا واردة.

كان هذا الكلام الذي تبوح به الوالدة يجلب الأسى إلى نفس منّان. فأبوه الذي كان من أشجع رجال العشائر وأقدرهم على تدبيج الكلام في المجالس، وأثناء التصدّي لحلّ المشكلات التي تنشأ في البرّيّة، صار مشتّت الذهن غير قادر على التعبير عمّا في نفسه بجلاء. ولم تكن مهيرة تشعر بالرضى عن الحالة التي وصل إليها زوجها. تفكّر بأنّه على وشك أن يموت، وستظلّ من بعده مع طفلتها مهيرة، وهي ما زالت امرأة شابّة، والرحلة أمامها ما زالت طويلة.

ولم تطلع أحدًا على ما تفكّر فيه خوفًا من ألسنة النساء اللواتي يترصّدنها ويطلقن من حولها الشائعات. كانت تكتم أحزانها وهواجسها وتمارس حياتها كالمعتاد. ولكي تضفي على السهرة هالة من الأنس ودفء المشاعر، تنهض وتشعل بابور الكاز وتغلي الشاي وتقدّمه لصبحاء ولابنها منّان ولحفيدها محمّد الكبير، ثم تضع يدها على جبين زوجها وتسأله في هدوء: تشرب الشاي يا حاجّ محمّد.

والحاجّ يظلّ سادرًا في شتاته ولا يجيب.

وذات صباح، استيقظ من نومه وبدا في حالة حسنة. نهض من فراشه وتمشّى بين المضارب. كان يتوقّف بين الفينة والأخرى لينظر نحو السهول الممتدّة والجبال الراسخة. يطيل التأمّل ويبدو منتعشًا لما يراه، فتخرج منه تمتمات.

رأته مثيلة وهو يقترب من بيتها. سلّمت عليه، ودعته لكي تعدّ له ضعاد الفطور. راقته الفكرة فدخل البيت وجلس فوق فرشة مهيّأة من قبل. كما لو أنّ مثيلة كانت تنتظر زيارته.

وضعت على بابور الكاز قلاية بندورة. راح الحاج يتشمّم رائحتها ويتذكّر أيّامًا ماضية ويتأسّى على ما فات. وواصلت مثيلة تحضير طعام الفطور: جبنة ولبن وزيت وزيتون، وخبز من طحين القمح. حينما وضعت الطعام فوق طبق من قشّ أمامه، انتعش قلبه وهو يرى بأمّ عينيه خير الأرض التي يملكها، وخير الأغنام التي يقتنيها الأبناء.

جلست إلى جوار عمّها الحاج. وقبل أن يمدّ يده نحو الطعام، نظر إليها بمحبّة، ووضع يده على رأسها، وقال: من يوم أن تزوجك ابني منّان وأنا أعرف أنّك امرأة طيبة.

فرحت للإطراء. نزلت دمعتان من عينيها، وانهمك الحاجّ في تناول طعامه. لم يأكل سوى قطعة صغيرة من الخبز مع قليل من البندورة المقليّة وقليل من الجبن. كانت صحّته رغم نشاطه المفاجئ، ما زالت متدهورة ولا تنبئ بأيّ خير.

وصادف في تلك الأثناء، أنْ وصل إلى مسامع الخطيب كلام يعكّر الخاطر ويدعو إلى الاستياء.

فقد وضع أحدهم في مقام سيّدنا حامد حجرًا له في أعلاه رأس بعينين وأذنين، وهو أقرب ما يكون إلى شكل إنسان. رأت بعض النساء فيه رأس التاجر حميد وعينيه وأذنيه، فازددن خشوعًا ورهبة وأكثرن من تقديم النذور إلى المقام.

استغفر الخطيب ربّه وانطلق نحو المقام وفي يده فأس، ومن خلفه سار جمع من رجال العشيرة ونسائها. رأى الحجر هناك، فلم يتمالك أعصابه مما رأى، هجم عليه وراح يحطّمه بالفأس والناس يهلّلون ويكبّرون، وهو يخوض معركته ضد الشرك بضراوة وتصميم.

حينما أصبح الحجر حطامًا، نظر الخطيب إلى الرجال والنساء، وقال: يا أبناء عشيرة العبد اللات؛ طهّروا أنفسكم من بقايا الشرك.

ظلّوا صامتين. تنحنح المختار وسأله: شو لازم نعمل يا خطيب؟ صلاة نصلي. صيام نصوم. وكل يوم نذكر اسم الله.

خيّم الصمت لحظات. قال الخطيب: يا أبناء العبد اللات؛ ما زال فيكم شيء من الجاهليّة.

قال المختار ساخرًا: صدقت، لأن جدنا الأوّل: أبو لهب، واسم عشيرتنا يذكرك باللاّت والعزّى ومناة.

سرت همهمة بين الجمع. ابتسم بعض الرجال. وتطيّرت نسوة من هذا الكلام وقلن: الله يستر علينا ويحمينا.

ولم يشأ الخطيب مواصلة الكلام. استاء من سخرية المختار ولم يجاهر بالأمر. حمل الفأس وعاد إلى المضارب. ويمكن القول إن هيبته تعزّزت لدى بعض النسوة والرجال بعد تحطيمه للحجر، فيما سرت شائعة تتّهمه بأنّه هو الذي وضع الحجر في المقام، وقام بتحطيمه أمام الناس لغاية في نفسه (قال المختار لمن حوله في المضافة: صدّقوني ما شفت للحجر لا عينين ولا أذنين).

حينما سمع الخطيب الشائعة، استغفر الله وهمّ بإغلاق المدرسة ومغادرة المضارب لولا أنّ المختار خفّف من غضبه واسترضاه.

ظلّ المختار يفكّر في أحوال العشيرة حتى المساء، ثم داهمه الحنين إلى حكايات أمّه. ذهب إلى بيتها وأصغى لها، فلم تبخل عليه بالحديث وهو جالس قبالتها، وبدت كأنّها تستأنف حديثًا سابقًا: ما خلّت وصفة إلا جرّبتها.

– من هي يا أمّي؟

– فطّومة، زوجة عمّك عامر. ظنّت أن عمّك خاف وهو في الحرب، سقته من طاسة الرجفة. ظنّت إنّه مربوط، يمكن واحدة من

عدوّاتها عملت له سحر وربطته. راحت عند الفتاح وعملت له حجاب حتى ينفكّ الرباط. لا طاسة الرجفة نفعت ولا الحجاب نفع. قالت والله يا عالم انّي تحيّرت، الله يلعن الحرب واليوم اللي راح عامر فيه للحرب. قال لها عمّك: يا فطّومة فضحتِني بين النسوان، وهذا حكم الله وعلينا إنّا نقبل حكمه يا بنت الحلال. قالت: حكم الله على راسي وعيني، لكن أنا بدي اولاد سبعة وبنات ثلاث. زعل عمّك وقال لها: أي خفّفي الطلب، ما انت عارفة البير وغطاه، تساهلي معي والله كريم. قالت: الله كريم.

ويا سبحان الله، ربنا عطف على عمّك بعد سبعة وسبعين يوم. حلفت وقالت إنها نامت واستفاقت على يد تلمس بطنها. فتحت عينيها وشافت عامر مشلّح مثل ما ولدته أمّه، قال لها: اشلحي يا فطّومة، اشلحي. انهوستْ من الفرح. ولما طلع النهار، قالت للنسوان: صدّقنْ وآمننْ إني كنت ناوية أزغرد وأخلّي اللي ما سمع يسمع، واللي ما عرف يعرف.

ومن ليلتها حبلت فطّومة.

❖ ❖ ❖

مثيلة أيضًا حبلت مرّة ثانية. وكانت صبيّة بارعة الجمال، ولم تكن تفكّر بمغادرة البرّيّة في تلك الأيام. كانت ترى ملامح زوجها في وجه ابنتها فلحة، وتعزّزت مكانتها لديه بعد أن ولدت له ثلاثة صبيان في ثلاث سنوات متتابعات.

ويبدو أنّها اطمأنّت إلى أنّ مكروهًا لن يقع لها، فراحت تعيش حياتها مثل بقيّة النساء وأخذت تكثر من زيارة مقام سيدنا حامد.

وفي الأثناء، تلقي نظرة على قبر التاجر حميد، تتذكّر تلك اللحظات التي قضتها معه وهي تبحث عن فرصة للحبل، تبذل جهدًا لإقصاء تلك الذكرى، وتبدو نادمة على ما وقع منها. تنساه زمنًا، ثم لا تلبث مشاعرها أن تثور معلنة عدم ارتياحها من شيء ما. راحت تبحث من دون جدوى عن فرصة للتكفير عن ذنبها، فلم تعثر عليها إلا بعد سنوات حينما أخذ الشيب يغزو مفرق شعرها، وصار حظّها من الجمال أقلّ من حظّ ضرّتيها القديمتين والأخرى الجديدة.

وآنذاك، لم يتوقّف المختار منّان عن استيلاد نسائه مزيدًا من الأبناء الذكور، فأصبح لديه عدد غير قليل من الذرّيّة، ما أدخل إلى نفسه اعتزازًا جعله يباهي بنسله العشائر الأخرى.

وحافظَ على علاقة ما، بينه وبين عسكر الإنكليز، وبخاصة قائدهم المستر سميث. رغم أنه لم يستسغ مرافقه الشاب، لأنّ عينيه تلعبان في كلّ اتجاه، وكلّما رأى امرأة من نساء العشيرة تخرج من بيتها لسبب ما، تعلّقت عيناه بها، وبدا مثل المهووس، ولولا كرم الضيافة الذي يجعله بالغ التهذيب مع ضيوفه لما احتمل تصرّفات المرافق الرعناء.

وكان المستر سميث يتردّد على العشائر المتناثرة في البرّيّة، ومعه مرافقه وثلّة من الفرسان، يحاول التثبّت من ولاء العشائر للإنكليز. كان يتخوّف من شيء لم تتنبّه له العشائر بعد. وكان هذا مبعث ارتياح له، فلا يغادر مضاربها إلا وهو مطمئنّ البال.

منذ دخل الإنكليز البلاد، والمدن لا تعرف الهدوء. أخذت التظاهرات تتصاعد في كلّ حين. كان المختار منّان يسمع أخبار تلك التظاهرات من عثمان كلّما جمعته فرصة اللقاء به، ولم يكن يعيرها

كثيرًا من اهتمامه. وكان يسمع أخبار الهجرة الصهيونيّة إلى فلسطين، ولم يتابعها إلا على نحو محدود.

جاء المستر سميث واختلى به. سيطر الفضول على أبناء العشيرة، لأنّ تلك هي المرّة الأولى التي يتحدّث فيها المستر مع المختار على انفراد. قال له: المهرّبون يحضرون من الشرق كلّ أنواع البضائع.

أصغى المختار بانتباه، وكان يعرف أنّ المهرّبين يجتازون الحدود ومعهم أحمالهم من القماش والسجاير والشاي والسكّر والتمور، يبيعونها في المدن والقرى، ويعرف أنّ أعدادًا من أبناء العشائر يتوجّهون إلى شرق الأردن للغاية نفسها. وعمّه عبد الجبّار مارس التهريب عددًا من المرّات.

أخفى المستر سميث شيئًا واحدًا عن المختار، فثمّة فئة من المهرّبين لا تعنى بالسكر أو بالشاي ولا يهمّها جني المال، بل هي تجلب السلاح إلى البلاد. حينما اقترح عليه سميث تجنيد بعض أبناء العشيرة في قوّة الفرسان التابعة لسلطات الانتداب لمنع التهريب، لم يُبد المختار أيّة معارضة خصوصًا وأنّ عمّه عبد الجبّار وأبناء عشيرته الذين انضمّوا إليه في ما بعد، توقّفوا عن المخاطرة بالذهاب عبر الحدود، بعد أن زادت هجمات الانكليز ضدّ المهرّبين. رحّب بالاقتراح، واعتبره فرصة للعشيرة من أجل دخول عهد جديد.

عاد المستر سميث والمختار من خلوتهما، واتّجها إلى المضافة حيث يجلس العسكر وأبناء العشيرة، وحيث يتمدّد الحاج محمّد بجسده المتهالك لا يعي إلا قليلًا مما يدور حوله. دارت القهوة المرّة على الضيوف، وشربها عسكر الإنكليز على مضض. قال المختار فيما هو يرتشف قهوته بتلذّذ: البشرى لكم يا شباب.

أصغى الشباب متلهّفين. أشار المختار إلى عسكر الإنكليز وقال: من الصبح، تصيرون مثل هؤلاء، تركبون الخيول وعلى أكتافكم البنادق.

امتدّ صمت مشحون، واصل المختار كلامه: المستر سميث بدّه اياكم تصيرون من الفرسان اللي يحمون الحدود.

واصل شباب العشيرة الإصغاء كأنّهم لا يصدّقون ما يسمعون.

سأل أحدهم: عن جدّ يا مختار؟

– عن جد. تقطعون بخيولكم البراري، ولما تعودون إلى العشيرة تلقاكم النسوان بالزغاريد.

تحمّس بعض الشباب لهذا الخبر، وظلّ آخرون يقلّبونه في رؤوسهم كأنّهم واقعون تحت إحساس بأنّ فخًّا يجري إعداده لهم. عثمان أبدى عدم رغبته في الالتحاق بالفرسان. قال إنّ هذه المهمّة لا تجذب انتباهه ولا تتلاءم مع تفكيره. ولم يشأ أن يفرط في الكلام، مع أنّ أسلوبه الهادئ في الإفصاح عن موقفه اجتذب بعض الشباب. عبد الجبّار قال الشيء نفسه، إنّما من منظور مغاير. عبد الجبّار يحبّ أن يظلّ بدويًّا طليقًا معنيًّا بالبحث عن البطولة الفردية، ولا يطيق ارتداء ملابس العسكر أو الانضواء في جماعة أو قوّة أو فريق. أبدى رأيه باختصار ثم تقوقع على نفسه والتفّ بفروته وبدا كأنّه غير مهتمّ بما يدور في المضافة من كلام. عبّاس وقف ضدّ هذا الاقتراح بصراحة ووضوح. قال: هذا شيء ما لازم نقبله. ولم يوضّح الأسباب. نرفز المختار من كلامه وقال: اسكت يا عبّاس، اسكت.

سكت عبّاس احترامًا لأخيه. انتفض الحاج محمّد في إعياء، فتح ذراعيه على وسعهما، حاول النطق بشيء يعتمل في صدره، وفيما هو يهوي على الفراش، صدرت عنه همهمات. تابعه المستر سميث

والمختار وعسكر الانكليز وشباب العشيرة لعلّهم يفهمون منه شيئًا، ثم غطس في شرود مديد.

استعدّ بعض الشباب للالتحاق بالفرسان، اقتادوا معهم خيولهم التي اشترط عليهم المستر سميث إحضارها على نفقتهم. ودّعتهم الأمّهات والزوجات. اجتمع بهم المختار منّان وقال: إيّاكم ان تطلقوا طلقة واحدة على المهرّبين.

فهموا قصده واقتنعوا بما قال. ثم إنّهم اكتشفوا حقائق أخرى، فلمّا انتبه القائد الانكليزي إلى أنّهم لا يضبطون الحدود، ولا يفعلون شيئًا ضدّ المهرّبين ومن يجتازون نهر الأردنّ لأغراض أخرى، صار يُسيّر معهم عددًا من جنوده الذين يراقبون كلّ شيء، ويراقبون في الوقت نفسه الفرسان من شباب العشيرة.

في منتصف تلك الليلة، فاضت روح الحاج محمّد، ومشت في جنازته عشائر البرّيّة كلّها، وبكته النساء ورثينه بأصوات نائحة. حفروا له قبرًا إلى جوار قبر أبيه الشيخ عبد الله، وقبر أمّه مهيوبة التي ماتت قبله بسنة، وأقيمت لها جنازة حاشدة قلّ أن ظفر بمثلها شيوخ العشائر، ولم تماثلها في الأهميّة والمقدار سوى جنازة ابنها الحاج محمّد. دفنوه وهم يترحّمون عليه، ويذكرون مناقبه وما تميّز به من شجاعة وكرم.

ما زال المختار منّان يذكر اللحظات التي أعقبت دفن والده. كان عمّه عبد الجبّار هو رجل تلك اللحظات التي انتظرها أهل مهيرة، لأنّهم كانوا معنيّين بابنتهم بعد أن غاب عنها زوجها وهي ما زالت في عنفوان الشباب.

بعد توسيد أخيه الكبير الثرى والعودة من المقبرة، اتّجه عبد الجبّار ومعه ابن أخيه المختار وعدد من أبناء العشيرة إلى بيت

مهيرة، وكان أهلها سبقوهم إلى هناك. كان الحزن يجلّل وجهها والدموع تتهاطل من عينيها. خلع عبد الجبّار عباءته ورماها عليها، فلم ترفضها (في هذا اليوم خلع الفروة عن قصد، وارتدى العباءة). تدثّرت بها، وأحكمت شدّها بكلتا يديها على صدرها، ما يعني أنّها موافقة على الزواج به، وما جعله معجبًا بحركة يديها الحانيتين وهما تلمسان العباءة.

غضبت زوجته الأولى، وتخاصمت مع مهيرة ولم تكلّمها مدّة عام. وظلّ عبد الجبّار يسترضيها بما لديه من قدرة على الكلام، حتى رضيت أو اضطرّت إلى الرضوخ للأمر الواقع الذي فرضه عليها زوجها على هذا النحو أو ذاك.

وكانت مهيرة معجبة ببطولاته الفرديّة وبما لديه من حكايات، تصغي إليه بمحبّة وإعجاب حتى وهو يروي الحكاية الواحدة مرّة واثنتين وثلاث مرّات. وهي تعرف ما جرى له مع الغولة في هدأة الليل أثناء اجتيازه طريقًا وعرة تكثر على جوانبها الكهوف والصخور الصمّاء، لمح عينين متوهّجتين، تطلان عليه من كهف قريب. ارتعد بدنه كما لو أنّ كتلة باردة من هواء أو زخّة من مطر غمرته. لم يفقد قدرته على التمييز. قال لنفسه: هذي هي الغولة.

لم يستطع مواصلة المشي بسبب الرهبة التي سبّبتها له العينان المتوهّجتان. تجمّد في مكانه لحظات. ثم خطر بباله قوله المعروف، الذي يردّده عند الملمّات: باطل، وين راحت المراجل؟

ردّد قوله وأطلق صرخة وصل صداها إلى مسافات بعيدة، أغلقت الغولة عينيها، ما أمدّه بمزيد من الشجاعة. وانطلق يمشي بثبات.

سار مسافة غير قصيرة، معتقدًا أنّ المواجهة لم تنته بعد. ولم يخب ظنّه. اعترضته وهو يمشي طفلة باكية، اقتربت منه ورجته أن

يحملها بين ذراعيه. عرفها فلم يكترث لبكائها ولم يكلّمها، حتى لا تطمع الغولة الطفلة في ودّه فتزداد تشبّثًا به. وحينما واجهها بالصدّ والإهمال وقفت في عرض الطريق ولم تواصل اللحاق به.

دخل السهل وارتاحت نفسه قليلاً لأنّ السهل مكشوف، ولم يكد يمضي في الطريق حتّى اعترضته فرس. أدرك أنّها راغبة في استدراجه ليركبها ولتركض بسرعة البرق إلى مكانها الذي تركت فيه صغارها، وهناك تمزّق لحمه وتقدّمه وجبة لها ولهم.

جاء دور شبريّته. انتضاها واقترب من رقبة الغولة الفرس، وقبل أن يهوي بها على رقبتها تلاشت من أمامه مثل سحابة من غبار. وجد نفسه يطعن الهواء ثم يمشي إلى المضارب وهو منتشٍ للنصر الذي أحرزه.

وصل المضارب وهو يغنّي. أدرك المختار أنّ عمّه عاد بحكاية جديدة (بعضهم لن يصدّقها). وقبل أن يقترب من ابن أخيه، قال بصوت تختلط فيه انفعالات متضاربة: الغولة يا بن أخي، الغولة.

مهيرة صدّقت كلّ كلمة تلفّظ بها عبد الجبّار، وازدادت تعلّقًا به. ولم تعد صبحاء راضية عن مهيرة بعد زواجها من عبد الجبّار. هل هي الغيرة، اشتعلت في قلب صبحاء رغم تَقدّمها في السن؟ أغلب الظنّ أنّ هذا ليس واردًا. ولربّما ودّعت صبحاء الشهوات منذ زمن، إلا أنّها تعجّبت من لهفة مهيرة على الزواج، فكأنّها كانت تنتظر اللحظة التي يموت فيها الحاجّ محمّد لكي تتحرّر من العبء، ولكي تجد لها مخرجًا مما كانت فيه. صبحاء تقول لنفسها: مزنبرة يا قبرت سلالتها، ما صدّقت والحاجّ يموت عشان تشبع شهوتها.

ولم تتحدّث مع ابنها المختار ولا مع أيّة امرأة من نساء العائلة عمّا كانت تفكّر فيه، لأنّها لا ترغب في انتقال الكلام إلى مهيرة،

فتقاطعها ولا تعود مستعدّة لزيارتها أو لتقديم العون لها حينما تحتاج إلى عون. كتمت كلّ شيء وتظاهرت بأنّ علاقتها مع مهيرة لم تشبها أيّة شائبة.

ولربّما لاحظت مهيرة بعض التبدّل في سلوك صبحاء تجاهها، لكنّ ذلك لم يضرْها ولم يخفّف من حبّها لزوجها عبد الجبّار، ومن رغبتها في الاستماع إلى حكاياته عن البرّيّة. وعبد الجبّار يتساءل الآن: كيف يمكنه مغادرة البرّيّة والعيش بعيدًا منها وهو على هذه الصلة الحيّة بها؟ ومن أين تأتيه الحكايات إذا ما غادر البرّيّة وحشر نفسه في مكان محدود المساحة محاصر من كلّ الجهات، هناك على مشارف القدس، رغم ما للقدس في نفسه من مكانة ومن تبجيل واحترام؟

ورغم حماسة مهيرة للرحيل، فإنّ عبد الجبّار ظلّ يحاول إقناعها بالبقاء في البرّيّة. كانت غير مقتنعة بكلامه، إلا أنّها آثرت التريّث كي لا يقع بينها وبينه شقاق. مهيرة تعرف مقدار تعلّقه بالبرّيّة، وهي معنيّة بألا تغضبه، وستتركه يتصرّف حيال الإقامة أو الرحيل على النحو الذي يرضاه، ولن تتركه يتمادى في عناده، ستعرف كيف تسوسه وتجعله مع مرور الوقت راغبًا في الرحيل.

آنذاك، في السنوات التي ازدهرت فيها حكايات عمّ أبيه عبد الجبّار، كان أدهم يحيا زمنه الخاص. ولم يكن يعرف التردّد والانكفاء. حينما كانت تستبدّ به الرغبة في الصهيل، اعتاد أن يذهب إلى فرس أبيه المربوطة في الحظيرة (ستموت بعد عشر سنوات، ربما بسبب الهرم، وربما لإصابتها بمرض ما، وسيقتني أبوه فرسًا أخرى)، يقترب منها ويراها منهمكة في مضغ الشعير. ترفع رأسها حينما تراه. يمسّد رقبتها وظهرها، ويطلق صهيلاً خفيفًا كما لو أنّه يبلّغها تحية أو ينقل

إليها خبرًا ما. تهزّ رأسها، ثم تطلق صهيلاً. يتحمّس ويطلق صهيلاً أعلى، والفرس تردّ على الصهيل بالصهيل.

يفكّ قيدها، يضع السرج على ظهرها ويركبها. يجتاز مضارب العشيرة نحو السهل الفسيح، ينكزها غير مرّة، فتعدو وتسابق الريح وهو يصهل فوقها.

وبعد ساعة يعود، يجد نساء العائلة في انتظاره وهن خائفات عليه، فقد يتعرّض للسقوط من فوق الفرس. كان يشعر أنّ رغبته في الصهيل اكتملت، وهي كلّ ما كان يعنيه. كان ولدًا لا يعرف من شؤون الدنيا إلا أشياء قليلة، ولم يكن يعرف ما الذي تفكّر فيه نساء العائلة، ولا يهمّه أن يعرف. يمشي بصمت وهنّ يرمقنه بفضول. منهنّ من كانت تخشاه لأنّ له أذني حصان، ومنهنّ من كانت معجبة به. ومن أكثر المعجبات به عمّته مهيوبة التي شارفت على الثلاثين، ولم تنجب حتى الآن، وهي تتمنّى لو أنّ لديها طفلاً مثل أدهم بأذني حصان.

كانت في الثانية والعشرين من عمرها حينما جاء أخوها المختار يعرض عليها الزواج من علي أوغلو. خشي أن تردّه خائبًا، إذ سبق لها أن رفضت كلّ الخطّاب الذين جاءوا من العشيرة. لم تكن راغبة في الزواج من أحد أبناء عمومتها. توقّعت أن يأتيها عريس من إحدى العشائر المجاورة مثلما كان الحال مع جدّتها مهيوبة، فلم يأتها أحد.

حينما عرض عليها الزواج من علي أوغلو وافقت. كانت تراه في بيت أبيها قبل زواجه من زريفة. التقت عيناها بعينيه غير مرّة، وكانت تشعر نحوه بودّ، لكنها لم تفكّر فيه. اعتقدت أنّ إقامته في كنف العشيرة ما هي إلا أشهر قليلة، ولن يلبث أن يستأذن للعودة إلى بلاده، لكنّه لم يعد.

حسدت كثيراتٌ من نساء العشيرة وبناتها مهيوبة لأنّها تزوّجته. كان يحظى في مجالسهنّ بإعجاب غير قليل. فهو وسيم، وله ابتسامة آسرة، ولديهنّ إحساس بأنّه عطوف على النساء. قالت فطّومة، زوجة عمّها عامر: يا بختها مهيوبة، صبرت ونالت.

حينما تزوّجته تأكّدت تخمينات النساء. أعلنت مهيوبة بلا مواربه او حياء انه خدوم، محبّ، ثرّ العاطفة وفي قلبه نبع حنان. ولولا خوفها من أن يطالها الإثم لنطقت بالكلمة التي تصف علاقتها به، وحينما لَمّحت لتلك الكلمة ولم تستطع التلفّظ بها، أراحتها فطّومة وقالت: عارفة قصدك: يصلي على أذيالك ويعبدك.

استغفرت مهيوبة ربّها وهي مسرورة من صراحة زوجة عمّها، واستغفرت نساء أخريات ربّهن، وهن يغبطنها، ويتمنّين لو أنّ لديهنّ أزواجًا يصلّون على أذيالهن.

كان علي أوغلو يزداد حبًّا لمهيوبة كلّما نقلت إليه رأيها فيه، وكلّما أخبرته بأنّ هذا الرأي أصبح منتشرًا بين نساء العشيرة وبناتها. يحملها بين ذراعيه ويطوف بها أنحاء البيت وهي تضحك، حتى تكاد معدتها تنفري، تقول له بدلال: علي، أرجوك نزّلني عشان أقف على قدمي.

ينزلها على الأرض، والبهجة مرتسمة في عينيها وعينيه.

غير أنّ البهجة لم تكتمل: انتظر علي أوغلو ومهيوبة طويلاً لعلّها تحبل وتلد ولدًا يرث أباه، فلم تحبل، ولم ييأس علي، مع أنّ الشائعات التي طالته كانت تشكّك في قدرته على الإنجاب.

* * *

الآن، ومنّان يرجو ألا يتأخّر كثيرًا يوم الرحيل، صار يكثر من التأمّل في أحوال البرّيّة كمن يودّعها. من حقّها عليه أن يودّعها، وأن يواصل التردّد عليها بعد أن يغادرها. وهو لن ينسى أنّه، في سنوات سابقة، كان يعتريه همّ وهو يتابع الحياة فيها بشيء من القلق. كان يبدو في بعض الليالي كمن فقد شيئًا وراح يبحث عنه باستماتة. يبحث عن لحظات هدوء مفتقد وعيش لا يبدو أنّه سيكون مستقرًّا مثلما يشتهي هو وغيره من أبناء العشيرة. صار يكثر من الذهاب إلى الحقل وإلى المرعى، ويداوم كلّ ليلة على حلب الأغنام، فتأتيه المسرّات على غير موعد وتبزغ فجأة مبدّدة كدر الأيّام.

يتذكّر أنّه مشى نحو الحظيرة في ليلة ظلماء، ومشت وطفاء معه. كانت الأغنام هاجعة فيها، ما عدا بعض تيوس الماعز التي تبعبع خلف العنزات المتهرّبات لأيّ سبب، أو رغبة في مزيد من الإثارة. كانت وطفاء (كما أخبرته في ما بعد) تستثار وهي تحلب الأغنام، وبالقرب منها يجري جماعٌ صاخبٌ سريعٌ مملوءٌ حركةً وتجلّيًا للنزوات.

شرعت في حلب أولى العنزات، وانهمك منّان في حلب عنزة أخرى. وحينما انتهيا من حلب القطيع كلّه، كانت مشاعره تضطرم في صدره مثل بركان، اقترب منها وتلمّس شعر رأسها فاستجابت له من دون إبطاء، نامت على الأرضية الرطبة باسترخاء. دفعتها الروائح التي تفوح من جلود الأغنام ومن بولها وبقايا حليبها المدلوق فوق الأرضيّة إلى مناطق للشهوة قصيّة، فاندلعت في جسدها نار. ناخ فوق الجسد المتموّج بالبياض الرهيف، وهو، بالشعر الكثيف المنتشر على جسده، راح يبعبع مثل تيس الماعز المستفزّ المتحفّز للانقضاض. أطلقت همهمات وآهات، وطقطت بأسنانها مثل عنزة تجترّ طعامًا. استمرّ المشهد دقائق صاخبة مملوءة بهجة وأحاسيس.

حبلت وطفاء منذ تلك الليلة وخشيت أن يأتي مولودها على غير الصورة التي تشتهيها، تذكّرت تيوس الماعز في الحظيرة وصارحت منّان بمخاوفها، وذكّرته بأذني أدهم. طمأنها وطلب منها ألا تخشى شيئًا حتى لو ولدت طفلاً له قرنا تيس. قال لها إنّه سيكون ابننا في كلّ الأحوال، ومش رايحين نرميه للوحوش، وبدنا نحبّه ونرعاه. تظاهرت وطفاء بأنّها مقتنعة بما يقوله زوجها، وظلّت خائفة متشكّكة إلى أن ولدت طفلها في غير أوانه. ولدته وهي حامل في شهرها الثامن. عاش ساعات معدودة أسلم بعدها الروح ومات. بكت وطفاء عليه طويلاً، ثم توقّفت عن البكاء. ولم تلبث أن حبلت بابنها الثالث.

منّان يلاحظ الآن كيف أنّ ابنه الثالث، وطّاف، الذي بلغ الخامسة عشرة، له بنية جسدية لا يحوز مثلَها أيٌّ من أبناء جيله، وله هيبة طاغية. في طفولته، أحبّ الحجارة التي تركتها أمّه في البيت، وأضاف إليها حجارة أخرى. كان يرتّبها في صفوف منسّقة، ثم يبعثرها مثلما كانت تفعل أمّه وهي طفلة، مع أنّه لم يكن يعرف شيئًا عن أفعال أمّه ولم يخبره أحد بها.

وحينما يضجر من اللعب مع الحجارة، كان يتركها ويخرج من البيت ويحفر حفرة في التربة مستعينًا بحجر مسنون. يجلس في جوفها ويهيل فوق جسده التراب والحجارة وهو مسترخ باستمتاع، تسأله نساء العائلة ما الذي يفعله فلا يجيب. كن يتعجّبن من فعله، ويتذكّرن أفعال أمّه وطفاء، يعجبن كيف انتقلت أفعال الأمّ إلى الولد من دون أن تعلّمه أيّ شيء! وكيف يمكنها أن تعلّمه شيئًا وهي التي ماتت بسببه؟ نعم، بسببه! فهذا هو اعتقاد نساء العشيرة، لأنّ جسد وطّاف هو الذي هدّ حيل أمّه وأرهقها وأوصلها إلى الموت، يحدّقن في

رأس الولد الظاهر فوق التراب، ويستعذن بالله من الشيطان الرجيم، وتقول الواحدة منهنّ للأخرى: هذا الولد تسكن روحه الشياطين.

فقد راج اعتقاد لديهنّ بأنّ في رأس وطّاف سبع شعرات لهنّ سحر خاص، ومنهنّ يستمدّ قوّته الطاغية، ولو فقدهنّ لأصبح، بحسب اعتقادهنّ، من أضعف خلق الله. والسؤال: من يستطيع أن ينتزع من رأس وطّاف شعرة واحدة؟

وما زلن يستذكرن يوم السيل الذي جرف ثلاثة أطفال، في حين لم يستطع السيطرة على وطّاف. ففي سنة من سنوات الخصب، كانت الغيوم تحتشد في السماء على نحو ينذر بالمطر. وطّاف وعدد من الأطفال يلعبون في مجرى السيل، في المكان الذي كانت أمّه وهي طفلة تضطجع فيه بعد أن تغمر جسدها بالحصى. وطّاف يجمع الحجارة ليضيفها إلى ما تكدّس لديه منها في البيت. ولم ينتبه إلى أنّ المطر سقط على الجبال البعيدة، ولم يسقط على البرّيّة بعد. تجمّعت مياه الأمطار التي هطلت فوق الجبال وانحدرت إلى الوديان وتشكّل منها سيل هادر، راح يتقدّم نحو المكان الذي يلعب فيه وطّاف وبقيّة الأطفال. ولم ينتبهوا إلا حينما أقبلت عليهم المياه هائجة. لم يتمكّن الأطفال من تفادي هجمة المياه، حاولوا الهروب من مجرى السيل، إلا أنّها سبقتهم وغمرتهم وجرفتهم في الحال. الوحيد الذي صمد في وجهها هو وطّاف. مشى بثبات وسط جريانها اللدود، ولم تستطع زعزعة قدميه الراسختين على أرضيّة السيل. ظلّ يمشي حتى وصل حافّة المجرى وغادره بسلام.

سيدخل ذلك اليوم في التاريخ الشفوي للعشيرة باسم: يوم السيل. وسيجري الترحّم كلّما جاشت الذكرى في النفوس على أرواح الأطفال الثلاثة، والنساء سيتذكّرن وطّاف بشيء من الاحتراس.

كنّ يبتعدن منه في حذر وإحساس بالخوف. يغمض عينيه وينام وهو محاط بالتراب وبالحجارة، ولا يخرج من حفرته إلا حينما يأتي أبوه المختار، يوقظه ويقوده من يده إلى البيت. أحيانًا، كانت مثيلة تأتيه، تمسّد شعره بعد أن توقظه وتسحبه من بطن الحفرة، تأخذه إلى بيتها وهي مشفقة عليه. تُجلسه فوق حشيّة من صوف وتقدّم له الطعام.

5

ابنه محمّد الكبير لم يعد إلى العشيرة منذ غادرها قبل عام. وهو يعمل كما يقال في أحد مواخير يافا. ويقال إنّه متزوّج من فتاة يهودية، أو هو يعيش معها من دون زواج، والأمر غير مؤكّد. والمختار في حيرة من أمره. فمنذ أن تصاعدت الهجرة الصهيونيّة إلى فلسطين، تكاثرت بيوت الدعارة والمواخير في يافا وفي القدس، وربّما في مدن أخرى. هذا ما يقوله بعض الناس الذين يلتقهيم المختار منّان في المسجد الأقصى، وهم ممن يتابعون أحوال البلاد.

والمختار غير قادر حتى هذه اللحظة على تصوّر كيف تذهب امرأة لتقيم في ماخور وتعرض جسدها للرجال؟ أليس لها أهل يأتون إلى حيث تقيم فيعاقبونها؟ أو يجبرونها في أهون الحالات على العودة إلى بيت أهلها لتلقى الستر والحماية فيه؟ ولكن، ربّما كانت هؤلاء النساء يهوديّات أو أجنبيّات من خارج البلاد. ولا يمكن أصدق إنها بنت فلسطينيّة بتوافق تعيش في ماخور وتصير شرموطة. بعدين أنوه الرجل اللي بيقبل يشتغل في ماخور، يحمي الشرموطة ويجلب لها زباين؟ تفو عليك يا محمّد إن كان هالحكي صحيح عنّك. والله لا بتكون ابني ولا أنا أبوك. ما انت ختمت القرآن يا عرص، والا نسيت؟

منّان لم ينس. وهو ما زال يذكر احتفاء أبناء العشيرة بمحمّد الكبير حينما ختم القرآن. أركبوه على ظهر فرس، وطافوا به المضارب، وهم يغنّون ويهزجون، ثم اتّجه الجميع إلى مقام سيدنا حامد. كان الخطيب عبد الرحمن يتقدّمهم وهو يضرب على الدفّ. وأمام المقام انعقدت حلقة من الرجال، راحوا يقيمون الذكر، والخطيب يذكّرهم بتقوى الله، ويحضّهم على اتّباع الطريق القويم وترك الشهوات، وتطهير النفوس من أدران الجهالات المترسّبة فيها من عصور ماضية.

وقفت النسوة قرب المقام وهنّ يغنّين ويزغردن، والأطفال يتقافزون في كلّ اتجاه، ما أشعر الخطيب بتناقضٍ ما بين حلقة الذكر وأغاني النساء، فاحتمل الأمر على مضض، ولم يشأ أن يمعن في الوعظ والإرشاد لاعتقاده أنّ هذه العشيرة لا تفعل إلا ما يروقها، ولا تصغي إلى كلام الوعّاظ.

شعر محمّد الكبير بأنّه مميّز عن بقيّة أقرانه، فازداد زهوه وهو يمتطي الفرس، يحيط به المحتفلون من كلّ جانب، ولم يسمع كلمة مما قاله الخطيب لأنّه كان منصرفًا إلى تأمّل الناس المحتشدين من حوله وهو في أتَمّ استمتاع.

وكان لا بدّ للخطيب من مداراة استيائه الذي تصاعد وقعه في نفسه، احترامًا للمناسبة التي كان له الفضل فيها، إذ لولا جهوده لما ختم محمّد الكبير القرآن. قال في حشد من أبناء العشيرة الجالسين في مضافة المختار منّان، انتظاراً لوجبة من اللحم والرز والخبز والمرق: هذا الولد إن شاء الله يكون له شأن في المستقبل.

ثار فضول المختار وتساءل فيما هو يداعب رأس الولد: كيف يا خطيب؟

– هذا ولد فصيح، يكون خطيباً في المستقبل، يعلّم الصبيان قراءة القرآن.

ازداد زهو محمّد الكبير، وازدادت مداعبة أبيه لشعر رأسه. نام ليلته وهو يحلم بأن يصبح خطيبًا. ورأى في المنام ولدًا شقيًّا يسطو على ما تجمّع لديه من بيض وأرغفة، يسرقها كلّها ويمضي هاربًا، وهو يركض فِي أثره لاسترجاع ما سرقه منه، ولا يدركه.

في الصباح، ذهب الأولاد إلى المدرسة كعادتهم، فلم يجدوا الخطيب عبد الرحمن. انتظروه، فلربّما ذهب لقضاء شأن من شؤونه. مرّت ساعات عدّة وهو لا يجيء. مرّت أيّام وهو لا يجيء. بدا واضحًا أنّه غادر مضارب العشيرة. لاحظ بعض أبنائها أنّه كان متضايقًا في الأشهر الأخيرة من بعض معتقدات العشيرة وسلوكها. توقّع أنّ السنوات التي قضاها في مضارب العشيرة كانت كافية لتعديل هذا السلوك ولإحداث الأثر المطلوب، فلم يتحقّق ما توقّعه، أو هكذا ذهبت به الظنون.

كان حينما يغضب لأيّ سبب، يمعن في ذمّ العشيرة وفي إلصاق التهم بها من غير تدقيق أو تمحيص. يقول في بعض الأحيان: عشيرة رجالها ونساؤها من بقايا قبائل الجاهليّة التي عبدت الأصنام. وحينما يصل غضبه مداه يقول: عشيرة رجالها من بقايا قوم عبدوا فرج المرأة. ويدلّل على كلامه هذا بكثرة إقبالهم على الزواج، فالواحد منهم، وبخاصّة مَنْ لديه وفرة في الرزق والجاه، تزوّج ستّ مرّات أو سبع مرّات، ولعلّ أبلغ مثال على هذا: الحاج محمّد وابنه المختار منّان.

وكان يُسرّ لبعض من يثق بهم، بأنّ في العشيرة من يرتكبون أفعالاً لا تُغتفر، ويقدّسون ما ليس من حقّه التقديس. يقول: روحوا إلى بيت المختار وستصدّقون ما أقول.

يتساءل عثمان الذي لا يرغب في قطع خيوطه مع الخطيب: نروح إلى بيت المختار؟

– نعم، لتروا الحجارة مكدّسة في بيته.

– هذي حجارة وطفا.

– صحيح.

– انت متضايق منها؟

– من لا يتضايق من حجارة تذكّر بفترة من ماضينا البعيد؟

ولم يكن الحديث يصل إلى نهاية حاسمة. آخرون من أبناء العشيرة قالوا إنّ الخطيب ظلّ مستاء من السخرية التي وجّهها إليه المختار منّان أثناء تحطيم الحجر، ومن الشائعة التي راجت في العشيرة، وفيها إشارة صريحة إلى أنّه هو الذي وضع الحجر هناك. ثم إنّه توقّع أن ترفعه العشيرة إلى مرتبة متميّزة، فلم تحقّق له مبتغاه. ظلّت تتعامل معه باعتباره معلّمًا للصبيان، وهذا أمر لا يكتفي به ولا يرضاه.

قيل كلام كثير حول مغادرة الخطيب. قيل إنّه غادر إلى عشيرة أخرى وعدته بما تطمح إليه نفسه من حظوة وجاه. وقيل إنّه كان على قناعة بأنّ الله سوف ينزل غضبه على عشيرة العبد اللات، فآثر أن ينأى بنفسه عنها، كي لا يتحمّل شيئًا من أوزارها. وقيل: كان بإمكانه أن يغادر العشيرة في وضح النهار، فلماذا يغادرها سرًّا، ومن غير أن يخبر أحدًا أو يودّع أحدًا؟

ولم يكترث المختار منّان لاختفاء الخطيب. إلا أنّه أصيب بالقلق حينما رأى في المنام فرسًا تعدو صوب المضارب. أطلقت صهيلاً رجّعت صداه الوديان. رأى المختار أبناء العشيرة وهم مذعورون،

واكتفوا بمراقبة الفرس من بعيد. رأى النسوة يحتضنّ أطفالهنّ ويتهيّبن النظر إلى الفرس. اعتقدن أنّها الجنّيّة التي اعتادت مداهمة المضارب متقمّصة هيئة فرس العائلة. ظلّت تدني رأسها من الأرض، ثم ترفعه في غضب وصهيلها لا ينقطع، ولا تلبث أن تقفز قفزات عدّة في اتجاه الشرق، لتعود إلى المضارب، كأنّها تستحثّ الرجال على المضي خلفها. لم يتجاسر أحد على الاقتراب منها، ولم يتجاسر المختار على اللحاق بها. أخيرًا، انطلقت تعدو جامحة نحو الشرق، وهو استفاق من نومه ونهض من فراشه وراح يبحث عن جرعة ماء.

ساق الرعيان أغنامهم إلى المراعي وهم متطيّرون لسبب ما، ولم يفكّر أحد منهم بالعزف على شبّابته ذلك النهار، واستطاع المختار منّان أن يخمّن ما وراء صهيل الفرس التي رآها في المنام. كتم الأمر واستبقاه سرًّا لنفسه.

وبدت نساء العشيرة كما لو أنّهنّ استشعرن خطرًا ما، سارعن إلى مقام سيدنا حامد ووضعن فيه النذور، وربطن قطعًا من القماش عند شاهدة قبره، واستحلفن الوليّ الصالح أن يحفظ رجال العشيرة وأطفالها من كلّ سوء، ثم عدن مسرعات وهنّ متلفّعات بالخوف والصمت. بعض النسوة تأمّلن قبر التاجر حميد وشعرن نحوه بعاطفة غامضة وبتقدير أكيد، واستحلفنه سرًّا بأن يحفظ أبناءهنّ ويكلأهم بعنايته.

عند الأصيل، جاءت ثلّة من عسكر الانكليز، اقتربت من مضارب العشيرة، فتلقّاها الرجال واجمين. كانت بغلة متهدّلة الأذنين تنقل خطواتها الواهنة وسط ثلّة العسكر، وثمة جسم ممدّد فوق البغلة ملفوف في قماش أبيض. تيقّن المختار من صدق تخميناته. أنزل العسكر الجثّة من فوق البغلة، ومدّدوها في الساحة. اقتربت بعض

العِجائز واجفات. أطلّت الصبايا في حياء وحذر من مداخل البيوت، وانطلقت صيحات الندب والعويل. تهافت جمع من الرجال على الجثّة، وبعد لحظات، استطاعوا أن يتعرّفوا إلى القتيل: إنّه حرّان بن حفيظة.

نقلوا جثّته إلى بيت أمّه. طلب عسكر الانكليز شعيرًا لخيولهم، وقالوا إنّهم مشوا مسافة طويلة بلا طعام أو ماء. توجّهوا إلى بيت المختار، وانقلبوا فوق فرشات الصوف وهم يجفّفون عرقهم.

شعر المختار بأنّه هيّأ للشباب فرصة للدخول في لعبة غير مأمونة العواقب، ولماذا؟ من أجل أن يقبض كلّ واحد منهم بضعة جنيهات. تلك لعبة غير متقنة، وها هي ذي نتائجها بدأت في التكشّف من غير مواربة. فماذا يفعل أو يقول؟ كان الشباب متحمّسين للأمر. وبدا كلّ شيء في البداية على ما يرام. والآن جاء وقت الحساب. قال المستر سميث، وهو يفتل شاربيه: هذا من فعل المهرّبين، هم قتلوه.

ردّ المختار بصوت خافت، وهو يتوقّع أنّه ربّما قُتل على أيدي عسكر الانكليز، لأنّه خالف أوامرهم أو لأنّهم شكّوا في تهاونه مع المهرّبين: الله يرحمه.

بعد لحظة صمت سأل: شو أخبار باقي الشباب؟

– أوه! هم بخير، لا تقلق.

تعالى ندب حفيظة وبناتها ونساء العشيرة، وخيّم الحزن على الجميع. رحل عسكر الانكليز على خيولهم مثيرين موجة من الغبار. قالت حفيظة حينما أبصرت المختار: شفت يا منّان؟ أولادنا ينقتلون من أجل الانكليز.

قال وهو يداري انفعاله: أنا ما أمرتهم يلتحقون بالفرسان.

بعد أسبوع وصلت ثلاث جثث، واتسعت مقبرة العشيرة، وترمّلت نساء وازداد عدد الأمّهات الثاكلات. أيقن المختار أنّه ارتكب

غلطة أفدح من غلطة أبيه حينما تلقّى إهانة الضابط التركي. حاول بينه وبين نفسه تبرير غلطته بالقول إنّها نتجت عن حسن نيّة، وعن رغبة في جني المال بطريقة خاطئة، وعليه منذ الآن ألا يحسن الظنّ بعسكر الانكليز.

ابنه محمّد الكبير انتبه إلى أنّ عوالم عجيبة تتجلّى خلف المدى الواسع الذي تبحر فيه عيناه. صار يلحّ على أبيه في طرح الأسئلة وأبوه في شغل شاغل عنه. اضطرّ إلى الذهاب بعيدًا خلف مضارب العشيرة، باحثًا في المنعرجات الوعرة عن أسرار ما زال يجهلها. وظلّ يعتقد أنّه سيلتقي فرس العائلة من جديد، على شكل كرة من غزل، أو على هيئة صبيّة دعجاء العينين. صار يكثر من استحضار الصبيّة التي ظلّت ترافقه وتحيا في خياله كلّما ابتعد من مضارب العشيرة.

فكّر بالمضي قدماً عبر الجبال والوديان المترامية، لعلّه يعثر على شيء أكبر من العشيرة التي لم يعد يطيق البقاء فيها. أدرك أنّ الحياة في عشيرة تحدّها مقبرة من الجنوب، ومقام لحامد وقبر لحميد من الغرب، لا تشبع رغباته المتنامية، فقرّر أن يضرب في المدى الفسيح في أقرب وقت ممكن، وفيما هو كذلك، رأى ثلاثة فرسان يتقدّمون فوق صهوات خيولهم نحو العشيرة. انطلق عائدًا إلى المضارب ليخبر العشيرة بما رأى. صاح وهو يركض: مصيبة جديدة يا ناس.

حينما أطلّت الخيول قادمة من بعيد، وقف الرجال يحدّون النظر، ويضعون أكفّهم فوق عيونهم اتّقاء أشعّة الشمس، همهم بعضهم:

– خير ان شاء الله، اللهم اجعله خير.

وصل الفرسان إلى المضارب. قفزوا من فوق خيولهم، واقتربوا من رجال العشيرة وهم يسندون بنادقهم إلى أكتافهم. عمّت العشيرة

فرحة، ولم يمنع الحياء زوجات الفرسان من اختراق حشد الرجال، والوصول إلى أزواجهنّ يعانقنهم بعد غياب طويل، وانتظار ممض.

لم يشأ الفرسان تعكير صفو العشيرة من اللحظة الأولى، نقلوا للمختار خبرًا قد يسرّه، له علاقة بالخطيب عبد الرحمن (خفّف من وطأة غيابه قدوم خطيب آخر إلى مضارب العشيرة لتعليم الأولاد). قالوا إنّهم شاهدوه في أريحا، وهو يعمل إمامًا في مسجد هناك. سرّ المختار وغيره من أبناء العشيرة لهذا الخبر وحمدوا الله على سلامته. ونقل أحد الفرسان عنه أنّه غير نادم على مغادرته مضارب العشيرة، وهو غير ناقم على أحد. أثنى عليهم المختار لأنّهم أتوه بهذا الخبر، ثم ادلهمّ وجهه حينما أخذوا يتحدّثون عن تجربتهم مع عسكر الانكليز. قالوا إنّهم لم يجنّدوا لمقاومة مهرّبي القماش والسجائر والسكّر والشاي والتمور فقط، إنّما أيضًا لتعقّب الثوّار الذين يعودون وهم محمّلون بالأسلحة والذخائر. قالوا إنّهم التقوا بعض الثوّار فلمّا اطمأنّوا إليهم أخبروهم عمّا يجري في المدن والقرى البعيدة من احتجاجات.

– ما قلتم لنا ليش عدتم؟

– الثوّار أقنعونا بالفرار.

خيّمت الحيرة على أبناء العشيرة. ونظرت العيون نحو المدى البعيد، ولم يكن ثمة أمن ولا اطمئنان:

– وإنْ أجا المستر سميث يبحث عنكم؟

– مش رايحين نخلّيه يقبض علينا.

ظلّ أبناء العشيرة يصغون ويتساءلون. وبعد أن انطلق الفرسان إلى بيوتهم، خيّم الصمت. وراح المختار يحكّ ذقنه في حيرة وأسى.

عاد ابنه يذرع الطريق إلى الجبل، ترنّ في أذنيه كلمات الفرسان الثلاثة. وقف على القمّة وألقى نظرة نحو الغرب. كان علي أوغلو

تحدّث في المضافة، ومحمّد الكبير يستمع إليه، عن مدن وقرى لا تحصى. استعاد في ذهنه كلّ كلمة سمعها من علي أوغلو. واستعاد كلّ كلمة قالها عثمان الذي اعتاد أن ينقل ما لديه من معارف ومعلومات لمن حوله، وكان محمّد الكبير يصغي إليه كلّما سمعه يتحدّث في مضافة أبيه. تضطرم نفسه شوقًا إلى قطع المسافات، والوصول إلى تلك المدن والقرى.

واصل والده المختار كعادته الإصغاء إلى أمّه التي تجد متعتها في الكلام: يا حسرتي عليه، والله اني حزنت عليه.

– من هو يا أمّي؟

– حرّان بن حفيظة. شاب من أحلى الشباب. كلّه من تحت راس الانكليز. أمّه وأخواته فقدن عقولهن من الحزن عليه. صحيح الكلام اللي بنات حفيظة قلنه يا منّان؟

– أي كلام؟

– انت شجّعت الشباب يصيرون فرسان.

– أنا يا أمّي ما شجّعتهم. أنا نقلت لهم الخبر وهم تشجّعوا.

– الله يرحمه ويجعل الجنّة مثواه. كان يحبّ أختك معزوزة. بدّه يتجوزها، لكن منيّته سبقت وما صار نصيب. ومعزوزة كانت رامية حالها عليه. كانت تحبّه، ما شفتها قدّيش لطمت وجهها يوم عرفت انّه انقتل؟

– ما شفتها. يعني كان يلتقي معها؟

– الله أعلم. أنا ما شفت. اسأل أمّها. أنا سمعت هذا الكلام من النسوان. أنا أخاف الله ولي بخت أترجّاه.

انتهت من سرد ما لديها من أخبار، وغادرها منّان ولم يعدِ إلى بيته، مشى نحو الربوة التي اعتاد الذهاب إليها كلما دهمته الهموم أو

ألَحّت عليه الأحزان. وراح يكلّم نفسه: معزوزة تعشق حرّان بن حفيظة. آه منك يا معزوزة! مستعرسة وأنا ما معي خبر. صمت، وبدا كمن يحاسب نفسه: لماذا يستغرب إذا كانت أخته تفكّر في الزواج؟ لماذا يستغرب أن تقع في حبّ حرّان؟ لكن، حرّان مات. والآن على معزوزة أن تبحث لها عن عريس. سيراقب تصرّفاتها، وسيزوّجها إذا جاءها من يطلب يدها. سيزوّجها في الحال.

ولم يُطل الانتظار. جاء عدد من أبناء العشيرة ومعهم علي أوغلو إلى بيت المختار. رحّب بهم وهو لا يعرف قصدهم من هذه الزيارة. تحدّث علي أوغلو وقال إنّه ومَن معه يرغبون في خطبة معزوزة لعثمان.

شعر المختار بابتهاج لم يكشف عنه أمامهم. قال: يحصل لنا الشرف.

قال على أوغلو: نقرأ الفاتحة؟

همَّ المختار بالموافقة، ثم تردّد لأنّ من الأفضل له أن يشاور معزوزة، فهو لا يحتمل أن يبدي موافقته ولا تستجيب له.

قال: أعطنا مهلة ثلاثة أيّام.

شرب علي أوغلو ومن معه القهوة، ثم غادروا بيت المختار على أمل أن يصلهم الجواب في أسرع وقت ممكن.

لم يترك المختار الأمر حتّى الصباح. نادى أخته وبشّرها بأنّ العريس جاء. كان يتوقّع أن تطير من الفرح، وتقبل بالعريس بلا تردّد أو استنكاف. اكتسى وجهها بشيء من الكمد كما لو أنّها استنفرت أحزانًا ثاوية في أعماقها. وقالت: ما لي رغبة في الزواج.

حدّق المختار في وجهها غير مصدّق. وظلّ صامتًا مصدومًا مما سمعه.

أضافت: حلفت إني ما أتزوّج.

سألها بصوت يشي باللؤم: مات لك شخص عزيز، وانت معلنة الحداد عليه؟

قالت بجرأة غير متوقّعة: نعم.

– من هو؟

– لا داعي للكلام.

حدّق في وجهها وسأل: حرّان بن حفيظة؟

– نعم.

تمالك نفسه من الغضب، وظلّ يحدّق فيها وهي لا تشعر بأيّ انكسار. امتدّ الصمت بينهما وطال. سألها: هذا آخر كلام عندك؟

– نعم.

– لو قلت لك: فكّري في الأمر، وفي الصباح أسمع منك الجواب. شو بتقولي؟

– ما عندي إلا هذا الجواب.

لم يواصل حواره معها. تلثّم بكوفيّته ووضع عباءته على كتفيه وغادر البيت.

بكت معزوزة، ثم عادت إلى بيت أمّها وهي لا تدري كيف تداري أحزانها التي انبعثت مدمدمة كاوية.

وفي الليلة التالية، كان رفض معزوزة لعثمان على رأس قائمة الأخبار التي ينوء بها رأس صبحاء، اعتبرت رفضها معضلة مربكة لهيبة العائلة، ولا بدّ من إيجاد حلّ لها، لعلّ معزوزة تغيّر رأيها وترضى بعثمان زوجًا لها. واصلت صبحاء تقليب الأمر بأسلوبها الخاصّ أمام ابنها وعلى مسمع منه:

– يا قبرت عقصتها يا ربي يا سميع يا مجيب الدعاء. أختك معزوزة بدها تعمل مثل جدّتها مهيوبة لَمّا أعلنت الحداد سبع سنين على جدّك عبد الله، ورفضت كلّ الخطّاب. الله أعلم كم سنة بدها تحدّ على حرّان بن حفيظة؟

– يا أمّي، أنت متأكدة من هذا الكلام؟

– أنا يا ابني مش متأكدة، لكن هذا هو الظاهر من كلامها.

– الله يسامحها، أختي.

– والا يا معزوزة اقبلي الزواج من عثمان. عثمان شاب مليح وابن ناس. اقبليه وتزوّجيه واستري حالك. وحرّان الله يرحمه، عظامه صرن مكاحل، وانت يلزمك زوج يستر عليك وتخلّفين منه أولاد وبنات. بس لا، البنت ما بدها. بدها تعنّس وهي عند أمها. اسمع يا منّان يا ولدي؟ والله قلبي ناخزني. أنا خايفة لتكون معزوزة صار بينها وبين حرّان شيء وهو يلاقيها في الخلا.

– وصل لسمعك كلام؟

– لا والله ما سمعت أي كلام، بس قلبي ناخزني.

تناسى هواجس أمّه وقال لعلي أوغلو إنّ معزوزة غير راغبة في الزواج. ولم يقف عند هذا الحد. كان تشاور مع أخته هيفاء وعرض عليها الزواج من عثمان، فأبدت موافقتها. عثمان أيضًا وافق على الزواج من هيفاء.

ولم يفصح عن أسباب هذا التحوّل السريع في موقفه، لم يفرط في الكلام حول الموضوع، ولم يتعرّض لمعزوزة بأيّ سوء.

أقيم عرس لهيفاء وعثمان. غنّت فيه النساء ورقصن. لم تحضر معزوزة العرس، قالت إنّها لا تريد أن تنغّص على أحد أو أن ينغّص

عليها أحد. وحينما كانت هيفاء في حضن عريسها، كانت معزوزة تتقلّب في فراشها وحيدة.

تلك السنة، هطلت الأمطار على نحو متقطّع خفيف، والنساء صرْن يمشين مسافة طويلة لكي يجلبن الماء من بركة بعيدة أو من بئر ماء على أطراف البرّيّة. يذهبن منذ الفجر في موكب واحد بالثياب السوداء التي تغطّي أجسادهن، فلا يبين منها سوى الوجوه والأيدي وأسفل السيقان، وبعض مساحات من الصدور التي تتراوح بين السمرة التي تسبّبت فيها شمس البرية، والبياض الذي ينمّ عن راحة ما. يذهبن وفي أيديهنّ قِرَبٌ فارغة من جلود الماعز مشدودة من أطرافها بحبال، يملأنها بالماء ويحملنها على ظهورهنّ ويجعلن الحبال مثبّتة على جباههن، وتقبض أيديهنّ على الحبال مخافة سقوط القِرَب، ويعدن بها إلى مضارب العشيرة.

ولا يندر أن يتعرّض للموكب الذاهب إلى الماء بعض الرعاة الذين لديهم أسرارهم، يتقاسمونها مع بعض بنات العشيرة. ويجري تبادل رسائل خافتة على شكل ابتسامات وهمسات، وبعض تلميحات لا تغيب مضامينها عمّن يستمعن إليها، يحفظنها في قلوبهن، ويحتفظن بها لعرضها أثناء الجلسات التي تجمع بنات العشيرة، للتداول في أمور الخطّاب ومواعيد قدومهم لطلب يد هذه أو تلك من البنات.

غير أنّ للصورة جانبًا آخر، فحينما يدبّ الخلاف بين الأمّهات، فإنّهن يستخدمن ما تبوح به بناتهنّ من أسرار البنات الأخريات في المشاجرات، ما يتسبّب في الحرج حينًا، وفي توسّع المشاجرات حينًا آخر لتشمل بعض الرجال، وتحتدم الأمور في العشيرة إلى أن يتصدّى عقلاؤها لحسم الخلافات.

ولم تتزوّج معزوزة. لم تظفر بزوج بعد انتهاء فترة حدادها على حرّان، الحداد الذي استمرّ سبع سنوات. صارت ترتدي ثيابًا مطرّزة أجمل تطريز، وتخرج مع النساء إلى البركة لتحضر الماء، وليراها رعاة الأغنام المنتشرون في الشعاب.

كانت خلايا جسدها تتفتّح على نحو بهيج، وهي تستمع إلى كلام الغزل. تبتسم على نحو مكشوف لكي ينتبه إليها الرعاة، وتبدي تجاوبًا مع الكلام الذي يتطاير من هنا وهناك.

ولم يطرق باب أهلها أحد من الخطّاب. توقّعت أن يأتوا على نحو غير مسبوق بعد انتهاء فترة حدادها. فلم يأت أحد، كما لو أنّهم أبرموا اتفاقًا في ما بينهم بألا يقتربوا منها.

في السنة الأولى للحداد، وفي السنة الثانية، جاءها عدد من الخطّاب رفضتهم جميعًا، وفاء لحبيبها حرّان (لم تلتق به في الخلاء كما قيل. كانت تكتفي بأن تراه ويراها من مسافة ما، يتبادلان التحيّات وبعض كلمات دافئة). في السنوات التالية قلّ عدد الخطّاب، حتى تلاشوا تمامًا. ظلّت تكظم غيظها من هذا الصدود حتى انتهت فترة الحداد التي اختارتها بنفسها وحدّدتها لنفسها.

اعتقدت أنّ ما وقع لجدّتها مهيوبة سوف يتكرّر معها، وسيأتيها الخطّاب وستكون أمامها فرصة سانحة لكي تختار من بينهم عريسًا يليق بها، وستكون تلك مكافأتها على وفائها لحبيبها الذي غاب. وحينما لم يأت أحد شعرت بالإهانة، وبدت مكسوفة أمام البنات. حاولت أن تتستّر على كسوفها بهذا السلوك المنفتح، وبتلك الرغبة في سماع كلام الرعاة، الذي يكاد يكون مكشوفًا فاضحًا إلى حدّ ما.

في الليل، وهي مستلقية في فراشها، كانت تكابد الأرق. تُجري مقارنة بينها وبين جدّتها مهيوبة. التي أعلنت الحداد على زوجها قتيل

الماء سبع سنوات، جاءها أثناءها ما يقارب عشرين خطيبًا رفضتهم جميعًا. وحالما انتهت فترة حدادها تهاطل عليها الخطّاب، فاختارت مَن اعتقدت أنّه الأكثر وسامة والأكثر شجاعة، وتزوّجته.

معزوزة لم يأتها خطّاب، ربّما لأنّها أعلنت الحداد على حبيب لا تربطها به صلة شرعيّة. إنّهم يعاقبون معزوزة على وفائها، وهي ناقمة عليهم، ناقمة أيضًا على أخيها المختار الذي يبدو كما لو أنّه يتشفّى بمصيرها لأنّها لم تخضع لمشيئته، ولم تقبل الزواج من عثمان، أو من أحد العرسان الذين ردّتهم على أعقابهم.

وللحقيقة، فقد كانت معجبة بعثمان، لكنها لم تشأ أن تكسر عهدها الذي عاهدت عليه روح حبيبها. وتمنّت في سرّها لو أنّ عثمان ينتظرها إلى أن تنتهي فترة الحداد. كادت ترسل له خبرًا تؤكّد فيه رغبتها في الزواج به، وهي تتوقّع منه أن ينتظر، لكنه وافق على الزواج بأختها هيفاء قبل أن يصله اقتراحها.

وهي الخاسرة الآن. تزوّجت أختها التي تصغرها في السن وهي لم تتزوّج. ولربّما أثّر عليها عقم أختها مهيوبة، التي تزوّجها علي أوغلو قبل سنوات، ولم تنجب. لكن، لماذا تعتبر أختها مسؤولة عن مشكلتها؟ هذا ليس إنصافًا، وقد لا تكون أختها عقيمًا، فلا يعلم بأمور الحبل والإنجاب سوى ربّ العباد.

معزوزة ستعطي مهلة لنفسها وللخطّاب سنة أخرى، فإنْ لم يتقدّم أحد لخطبتها، سوف تتبنّت وتعلن رفضها للزواج، وستعيش حياتها مثل راهبة متبتّلة ولن تكترث لأيّ كان.

لم يكن المختار يحمل في قلبه همّ معزوزة وحدها. بعد سنوات من رحيل زوجته فاطمة، صار يعطف على أختها سعديّة التي كانت

طفلة ثم كبرت ولم تتزوّج، ليس زهدًا في الزواج، وإنّما لأنّ أحدًا لم يتقدّم لها. الحجّة هي أنّ لسعدية شعرًا نابتًا تحت أنفها. وتلك قضيّة كان يمكن التغاضي عنها لولا تأليب النساء الشرّيرات، ووصْف سعديّة بأوصاف لا تُحتمل. ثم إنّ سعدية كانت تتّبع نصائح أمّها في تصنيع لصقة مناسبة من السكّر والشبّة لا تترك تحت أنفها أيّ أثر للشعر.

لكنّها القسمة والنصيب كما يقال. حُرمت سعديّة من الزوج والولد. وعاشت سنواتها الخمس والعشرين صابرة متصبّرة غير قانطة من رحمة الله. بل إنّها توقّعت خيرًا وهي تزور بيت المختار، حينما أبصرت علي أوغلو يحدّق فيها بنظرات لا تخطئ أيّة امرأة في معرفة مراميها. ولم تستقرّ نظراته سوى لحظة عند وجهها، ثم انتشرت مثل غزو فاضح نحو تكوينات جسدها التي تلفت الانتباه.

علي أوغلو وحده أشعرها بقيمة جسدها، وراحت تمنّي نفسها بأوقات أنيسة معه، بالحلال الذي لا تشوبه شائبة، إلا أنّ علي أوغلو تأخّر قليلاً لأسباب لا تعرفها. ربّما لأنّ زوجته مهيوبة التي لم تحبل ولم تلد حتى الآن، عرفت نواياه ولم ترقها، فوعدها بألا يلتفت إلى سعديّة، لكي يحافظ على علاقته الطيّبة معها.

مشت سعديّة ذات صباح وعلى ظهرها قربة فارغة في جمع من نسوة العشيرة وبناتها نحو بركة الماء التي يغذّيها نبع صغير. وصلن ونزلن الدرجات التي تمكّن أيديهنّ من الوصول إلى سطح الماء، ليغرفن منه بالطاسات ويسكبن في القِرَب التي يثبّتنها بين سيقانهن، غير آبهات لانكشاف السيقان أمام سطوة الماء.

انحنت سعديّة لتغرف بالطاسة آخر غَرْفة تملأ قربتها بالماء، ثم رفعت جسدها لكي تحمل القربة. اصطدمت عجيزتها بحافّة الدرجة

التي خلفها ففقد جسدها توازنه وهوت في الماء. لم تكن أيّة واحدة من النساء على دراية بالسباحة، ولم يكن من حولهنّ أحد من الرجال. رأين سعديّة وهي تغرق أمام أعينهن، فارتسم في أذهانهنّ مشهد مروّع لن ينسينه مدى الحياة. ولن ينسى علي أوغلو تلك الفتاة التي راقته نظراتها الحانية. اعتقد أنّه سيكون أكثر سعادة إذا تزوّجها. ولكن، هل تقبل مهيوبة أن تكون لها ضرّة؟ هل تسمح له بالزواج من امرأة أخرى؟ وصلت به الحيرة منتهاها لولا أنّ الموت كان أسرع منه، أخذ سعدية وأراحه من حيرته، مع أنّه تأسّى على موتها.

ولم تسلم سعديّة من الكلام. قيل إنّها كانت غارقة في حبّ علي أوغلو، ولا يُستبعد أنّها حملت منه، ثم تنكّر لها ولم يتقدّم لخطبتها ما جعل الدنيا تنغلق في وجهها حتى لم تعد تجد لنفسها مكانًا فيها، فلم تعثر على سبيل للخلاص سوى إغراق جسدها في الماء. زوبعت هذه الشائعة في فضاء العشيرة، وارتبك علي أوغلو حينما سمعها خوفًا من سوء العاقبة رغم براءته التي لا شكّ فيها. ولم تلبث الشائعة أن طواها النسيان حينما لم تجد آذانًا صاغية.

تكرّرت المأساة في المكان نفسه، وتضاعف حزن المختار.

قصدَ أسعد، أخو فاطمة وسعديّة، بركة الماء للسباحة. رأته مرجانة التي كانت تحصد القمح هي وابنتها وضحاء. وقف عند حافة البركة وراح ينضو عنه ثيابه. خلع الكوفيّة والعقال. خلع القمباز المقلّم. خلع القميص، وحينما شرع في خلع السروال الأبيض الطويل أمرت مرجانة ابنتها بأن تدير وجهها إلى الجهة المعاكسة. أدارت وضحاء وجهها بعد تلكّؤ طفيف، وكان الشاب أسرع منها في خلع السروال، فبان جسده الفتي للحظة أمام عيني وضحاء، ثم ما لبث أن قفز في الماء.

انهمكت مرجانة وابنتها في حصد سيقان القمح. وكانت الشمس تقترب من وسط السماء. مرّت ساعة والشاب لا يخرج من الماء. شعرت وضحاء بأنّ أمرًا غير عادي وقع له. طلبت من أمّها أن تسمح لها بالاقتراب من البركة. زجرتها قائلة: يا بنت اخجلي.

واستاءت لأنّها تفكّر بالاقتراب من البركة وفيها شابّ لا يستر جسده شيء. وماذا لو أنّها اقتربت منها ورأت الشابّ طافيًا على سطح الماء، وجسده مكشوف بلا تحفّظ أو حياء؟

واصلت وضحاء حصد سيقان القمح، وكان قلقها يتزايد على الشابّ الذي طال مكوثه في الماء. قذفت المنجل من يدها وركضت. ولم تجد له أثرًا، أيقنت أنّه غرق وهو الآن مستقرٌّ في قعر البركة. أطلقت صرخة مدوّية سمعها أحد الرعاة الذي كان على مقربة من المكان. ركض نحوها ورمى جسده في الماء بعد أن خلع قمبازه. كان أسعد جثّة هامدة. وظلّت مرجانة ناقمة على نفسها زمنًا، إذ لم يخطر ببالها أنّ الشاب قد يغرق ولا يجد أحدًا يمدُّ له يد المساعدة.

لن تنسى وضحاء الجسد الذي لمحته قبل أن يقفز في الماء. لن تنسى ملابسه التي كانت تنتظره بجوار البركة في صمت لا يشبهه أيّ صمت. وسيتذكّر بعض أبناء العشيرة، وهم يتابعون ما وقع لسعديّة وأسعد، ما قاله الخطيب عبد الرحمن: العبد اللات سيحلّ بهم سخط من الله.

ولم يكن المختار منّان معنيًّا بتنبّؤات الخطيب، ولم يعرها أيّ انتباه. كان حينما يعتريه القلق جرّاء أيّ أمر أو مشكلة، يذهب إلى أمّه وهو يعرف ما ينتظره على وجه التقريب: كلام يتلوه كلام يتلوه كلام. وما الخطأ في ذلك؟ اعتادت أمّه أن تقول: الدنيا بتروح سوالف وحكايات.

ولم يتوقّف عسكر الانكليز عن مداهمة مضارب العشيرة طوال السنوات الماضية، بحثًا عن الفرسان الفارّين. كرهتهم العشيرة لفظاظتهم وتغيّرت نظرة النساء إليهم، فالوسامة التي بهرتهنّ أوّل الأمر انقلبت إلى قسوة وغلظة في معاملة أزواجهنّ وأخوتهنّ على مرأى منهن. كان العسكر يضربون الرجال بعنجهيّة وإيلام، وظلّ المختار يعاني حرجًا حينما يفاجئونه بالسؤال: وين أخفيتهم يا مختار؟

– صدّقوني إنّي ما شفتهم.

أخذ المختار يشعر بكره زائد نحو عسكر الانكليز.

وظلّ الفرسان الفارّون يمارسون حياتهم كالمعتاد، وحينما يشاهدون عسكر الانكليز قادمين من بعيد يلوذون بالجبال القريبة، يتغيّبون عن بيوتهم في انتظار أن يتّصل بهم الثوّار، لكنّ الأمر طال واستطولوه، فكانوا يعودون إلى نسائهم في الليالي المعتمات، يأوون إلى فراشهن، يستولدونهنّ أولادًا وبنات. ولم يكفّ المختار منّان عن استيلاد زوجاته مزيدًا من الأولاد.

شبّ ابنه محمّد الصغير وهو يحمل طباعًا تختلف عن طباع أخيه محمّد الكبير. اعتقدت بعض نساء العشيرة أنّ الولد أبله، فهو لا يتكلّم إلا لمامًا، وأحيانًا كثيرة يبول في سرواله، تعنّفه أمّه صفيّة وهي تغسل بدنه العاري، فيطلق عويلاً فجًّا يستدرّ الشفقة، وظلّ على هذا الحال حتى عاد يومًا إلى مضارب العشيرة قادمًا من الوادي. كان الطقس ينذر بالمطر، فاستبشر الناس خيرًا، وتلفّعوا بالملابس الصوفية والفروات اتّقاء البرد، حفروا القنوات من حول المضارب، مخافة أن تجرفها السيول، ولم ينزل المطر.

عاد محمّد الصغير يحمل جسمًا طويلاً مرقّطًا وهو يطلق أصواتًا مبهمة دلالة على النشوة والفرح. أبصرته أمّه، فأغمي عليها. رأته

نساء العشيرة يحمل أفعى رقطاء، سارعن إلى تخليصها من بين يديه، وأهوين على رأسها ضربًا بالعصا حتى قتلنها. ازدادت قناعة المختار بأنّه خلّف ولدًا أبلهًا، فقرّر الزواج من جديد.

إحدى عجائز العشيرة اعتقدت أنّ محمّد الصغير موهوب من الله، وقد تنكشف له كرامات كثيرة، ولم يطل الوقت حتى شاع اعتقاد بأنّه سيكون وليًّا من أولياء الله الصالحين. استبشرت أمّه خيرًا، وأخذت تحسن معاملته وترعاه، وأكثرت من ترديد حكاية المرأة العجوز لغاية في نفسها، إلا أنّ هذا لم يقلّل من إهمال زوجها لها، فازداد غيظها، ولم تقلّل من اعتنائها بابنها لعلّه يفعل شيئًا نافعًا في المستقبل.

ازدادت مخاوف المختار من إنجاب أولاد آخرين مثل ابنه محمّد الصغير، واعتقد أنّه عائد إلى تدليل صفيّة في الفراش، فآثر العودة إلى أسلوب أجداده الذين أنجبوا أطفالاً كبروا وبلغوا مبلغ الرجال، وأصبح لهم شأن أيّ شأن.

ورغم أنّ المختار لم يكن متأكّدًا من نجاعة هذا التقليد العائلي إلا إنّه لم يكن غائبًا عن باله، لكنّ قرب المضارب من بعضها بعضًا جعله يغضّ الطرف عنه، فلمّا ابتلي بمحمّد الصغير عاد إليه، فأصبح من المألوف أن تنبعث في الليل الساجي حمحمة وصهيل حينما يختلي المختار بإحدى زوجاته، فتصاب الأمّهات بالخجل وأطفالهنّ يتساءلون عمّا يسمعون، يزجرنهم فلا يعودون إلى طرح الأسئلة، يدسّون رؤوسهم تحت الأغطية ويناموا. ولم يكن المختار يكترث لتلميحات نساء العشيرة تنقلها إليه زوجاته في الأيّام التالية. داوم على تقليده العائلي المستعاد.

لم تتوقّف الاحتجاجات منذ أن دخل الانكليز البلاد. تابع المختار ما يجري على نحو متقطّع، يصغي إلى ما يأتي به عثمان من أخبار يلتقطها من أفواه التجّار في المدينة، ويستخلص النتائج في ضوء ما يصل إليه من معلومات، وهو ما زال متألّمًا لإقدام سلطات الانتداب البريطاني على إعدام ثلاثة من أبطال ثورة البراق في العام 1929 التي اندلعت في القدس وحيفا ويافا وصفد، وأصبحت أسماؤهم على كلّ لسان. قال عثمان: بكاهم الناس في كلّ مكان.

❖ ❖ ❖

قبل الرحيل، ظلّ المختار منّان يرقب بعين حذرة ما يقع من أحداث. تردّدت أخبار تقول إنّ الاحتجاجات ضدّ الانكليز وضدّ الهجرة الصهيونية إلى فلسطين تعمّ جميع أنحاء البلاد. لم يؤثّر هذا على رغبته في الرحيل إلا على نحو محدود، فهو لم يعد قادرًا على تحمّل البقاء في البرّيّة، حيث الماء شحيح والعشب قليل، ورغباته في ازدياد. في ما مضى، كانت العشيرة تحتمل سنوات القحط وتتدبّر أمورها على هذا النحو أو ذاك. حتى حينما هجم الجراد على فلسطين بعد عام من بدء الحرب العالميّة الأولى وأكل الأخضر واليابس احتمل الناس هجمة الجراد. قاوموه بإشعال النيران في أطراف الحقول ومن حول المضارب، وظلّوا يقرعون بالعصيّ على الطناجر وصحون النحاس لعلّه يبتعد، داسوا عليه بأرجلهم وألقوا القبض على أعداد منه بأيديهم، ولم يتمكّنوا من إنقاذ العشب والزرع، ما ألحق بالعشيرة خسائر غير قليلة، لكنّها احتملت مصابها وواصلت حياتها في البرّيّة.

الآن لم يعد المختار يحبّذ استمرار العيش فيها، استبدّت به الرغبة في التوجّه غربًا، الرغبة نفسها التي دفعت ابنه محمّد الكبير إلى مغادرة البرّيّة. كانت أخبار الاحتجاجات تقلقه وتدفعه إلى التريّث خوفًا من مجازفة غير محسوبة. وآنذاك، كان يتّجه بنظره إلى السماء لعلّها تجود بالمطر، فتمرع الشعاب ويكثر العشب، وتعود الحياة إلى بساطتها السابقة.

في تلك الأثناء، خرج رجال العشيرة ونساؤها وشبابها وأطفالها، واتّجهوا إلى مقام سيدنا حامد طلبًا للغيث. حملت النسوة معهنّ طواحين القمح والغرابيل والمناخل التي تذكّر بالقمح وبالطحين، وقمن برشّ قليل من الماء فوق الرؤوس استبشارًا بنزول المطر، وغنّين:

يا الله الغيث يا رحمان
اسقي زرعك العطشان

وحينما وصلوا المقام، رفعوا أكفّهم من جديد نحو السماء واستجاروا بربّ العباد أن يرأف بحالهم، وأن ينزل عليهم مطرًا مدرارًا من السماء، لكي ينبت الزرع وينمو العشب ويعمّ الخصب البرّيّة بسهولها وجبالها ووديانها. عادوا إلى المضارب وانتظروا أيّامًا ولم ينزل المطر، ما أدخل القلق إلى قلوب الرجال وجعل بعض النساء موقنات بأنّ احتجاب المطر ليس صدفة، فالعشيرة أوغلت في ارتكاب المعاصي، فاستغفرن الله كثيرًا وطلبن منه الرحمة وحسن الختام.

وما ضاعف من قلق المختار قدوم أشخاص لهم وجوه سمراء وهم يتكلّمون العربية بإتقان. جاءوا وفي أيديهم حقائب فيها أوراق ودفاتر وأقلام. حلّوا في مضافته وقالوا إنهم جاءوا لإحصاء السكان.

أرسل المختار مناديًا في العشيرة لكي يحضر الجميع. بدأ الرجال يتقاطرون على المضافة، وابتدأ التسجيل وجمع المعلومات. معلومات عن كلّ شيء. عن عدد الأولاد وأعمار كلّ واحد منهم، عن عدد الزوجات. عن عدد الأغنام والدجاج والخيل والجمال والبغال والحمير. عن الأرض وملكيّتها ومقدار الملكيّة التي يملكها الأشخاص. عن مصادر الدخل وعن السبل التي يعتمدها الناس لتحصيل الرزق.

جمعوا معلومات عن كلّ شيء والمختار متوجّس من هذا الإجراء، غير قادر في الوقت نفسه على رفضه. حتى الذين كانوا مع أغنامهم في المراعي لم يفلتوا من التسجيل. والذين كانوا خارج مضارب العشيرة لسبب أو لآخر تَمّ تسجيلهم اعتمادًا على ذاكرة المختار، وعلى معلومات ذويهم.

وسيغادر هؤلاء الأشخاص مضارب العشيرة ليعودوا في اليوم التالي إلى مضارب أخرى، وسوف يستمرّون في عملهم هذا عددًا غير قليل من السنوات، إلى أن تتمّ أوسع عمليّة لجمع المعلومات. ولن يعرف المختار إلا في ما بعد أن هؤلاء هم مبعوثو الوكالة اليهودية، التي كانت معنيّة بمعرفة كلّ شيء عن الفلسطينيين، تمهيدًا لتنفيذ مخطّطها للاستيلاء على البلاد. أبدى المختار أسفه لهذه الغفلة التي وقع فيها ووقع فيها غيره.

وكان القلق يستبدّ به جرّاء تصرّفات بعض أبنائه، وكذلك تصرّفات أخته معزوزة. فتأخذه أمّه بكلامها الهادئ الوقور إلى مناطق نائية لعلّها تبعد عنه الهمّ والقلق. تحدّثه عن جدّته مهيوبة التي أخذت أخته مهيوبة اسمها. وعن جدّه عبد الله ومقدار حبّه لمهيوبة، زوجته التي ملأت عليه حياته وملأ عليها حياتها.

كانت أمّه تتجنّب الدخول في جدال معه حينما تراه مشغول البال. وكان يتجنّب الدخول في جدال معها في أحيان كثيرة كي لا ينغّص عليها، فهو يدرك أنّها تعيش صراعًا بين البقاء في البرّيّة والرحيل منها. اعتقد أنّ إمهالها وقتًا كافيًا سيكون أفضل له ولها من النزق والاستعجال.

6

أخيرًا وافقت على الانتقال إلى مشارف القدس.

لم ترقها كلمة «الرحيل». قالت إنّها ثقيلة على السمع.

قال لها غير مرّة إنّ العشيرة لن تتخلّى عن أرضها التي في البرّيّة، وستواصل الاهتمام بها وزراعتها قمحًا وشعيرًا في سنوات الخصب. قال إنّ الانتقال إلى أرضهم التي تقع عند مشارف القدس أصبح ملحًّا كي لا يستولي عليها المهاجرون اليهود. قال: إحنا أحقّ بأرضنا منهم. قال إنّ بإمكان العشيرة حينما تشحّ مياه الأمطار الاعتماد على عين سلوان القريبة من القدس، وهي التي لا تنقطع مياهها صيف شتاء.

وافقت على مغادرة البرّيّة. لم تشأ أن تغضب ابنها خصوصًا وهي تلاحظ تبرّمه الخفيّ وتكاثر الهموم عليه. موقف مثيلة كان ملتبسًا. في البداية، وافقت على الرحيل وقالت: يقطع البرّيّة ويومها. ثم عادت واعتبرت الرحيل نوعًا من عدم الوفاء للمكان الذي ولدت فيه. وبعد فترة من التمنّع وعدم الرضى رضيت بالرحيل، خصوصًا حينما لاحظت أنّ صبحاء، والدة زوجها، غيّرت موقفها.

عبد الجبار قال إنّه لا يستطيع مغادرتها، فهو يحبّ التجوال في جبالها ووديانها وسهولها، ويطيب له أن يتحدّى وحوشها ويدخل معها

في صراع. طلب من ابن أخيه المختار أن يتركه ليواصل حياته فيها مثلما يشاء. لم يلحّ المختار منّان على عمّه، لأنّه يعرف طباعه جيّدًا، صحيح هو مغرم بالبطولات الفرديّة وبتمييز نفسه عن العشيرة، إلا أنّه لا يستطيع التخلّي عنها، وهو بحاجة إليها دومًا يحميها وتحميه، ويسرد عليها حكاياته التي لا يكفّ عن سردها كلّما وجد فرصة لذلك.

صدق حدس المختار، بقي عبد الجبّار شهرًا في البرّيّة مع زوجتيه وأطفاله، ثم ما لبث أن جمع أمتعته والتحق بالعشيرة في مكان سكنها الجديد، ولم يقل لأحد إنّ مهيرة ظلّت تضغط عليه بوسائل شتّى ومن دون استفزاز، إلى أن وافق على الرحيل.

عبّاس وعثمان لم يرفضا الرحيل، فالإقامة على مقربة من المدينة تتلاءم مع مزاج كلّ منهما وتلبّي رغباتهما التي لطالما تحدّثا عنها من دون مواربة أو تردّد. عثمان راغب في توسيع تجارته وتدعيم حضورها في حياة العشيرة، وهو يعشقها كما لو أنّ فيها رسالة خاصّة يسعى إلى جعلها في متناول الناس، وعبّاس جادٌّ في التخلّي عن اقتناء الأغنام، وهو حائر حتى الآن بين العمل في الورش أو في التجارة، ولن يطول الوقت به حتى يقرّر لنفسه أيّ عمل يختار.

صبيحة يوم الرحيل كانت قاسية على الأنفس وعلى الأبدان. نهضت النساء منذ الفجر ورحن يحزمن الأمتعة، ويضعن الملابس في ربطات كبيرة من قماش. الأولاد تولّوا أمر الدجاجات، كمنوا لهنّ أمام الأقنان، وراحوا يلقون القبض عليهنّ ويربطونهنّ من أرجلهنّ وهنّ يزعقن ويقوقئن بإلحاح. والدجاجة التي أفلحت في الهرب من بين أيدي الأولاد، كانت تنطلق راكضة حول المضارب وهم يطاردونها ويحاصرونها إلى أن يلقوا القبض عليها. أكثر شيء حزّ في نفوس النساء

الآثار التي بقيت على الأرض بعد أن طوين بيوت الشعر. هنا كان الأطفال ينامون، وفي الزوايا البعيدة كانت الزوجات ينمن مع الأزواج، وهنا عند المداخل البعيدة من أماكن نوم النساء كانت مطارح الضيوف في المضافات، حيث كانت توضع الفرشات فوق البسط الملوّنة وعليها المساند والمخدّات، وفي منتصف المضافة تستقرّ دلال القهوة المرّة ومواقد النار والأثافيّ التي توضع فوقها الدلال. إنّها حياة كاملة يجري اختزالها الآن.

توجّه منّان وأبناء عشيرته غربًا، يحملون على الجمال والخيول والبغال والحمير أمتعتهم. وكانوا أسبق في الرحيل من عشائر عرب السواحرة. ساروا مسافة طويلة، قطعوا خلالها وديانًا، واجتازوا شعابًا، بكى الأطفال أثناء الرحيل وتأفّفت نسوة من مشقّة الطريق، لكنّهم واصلوا السير واستقرّوا قرب المدينة المقدّسة، في الأراضي التي يمتلكونها، وكانوا يفلحونها قمحًا وشعيرًا في سنوات الخصب. نصبوا مضاربهم هناك، وحفروا الآبار، وحافظوا قدر المستطاع على أنماط المعيشة التي ألفوها في البرّيّة. الرجال واصلوا تربية الأغنام وبيع حليبها وصوفها في أسواق المدينة. قسم منهم لم يواصل الاعتماد على الأغنام، خصوصًا في سنوات القحط والجدب. كانت الأغنام تنفق أو يقلّ منتوجها من الحليب على نحو ينذر بالخسارة وسوء الأحوال.

وكان لا بدّ من الاعتماد على مصادر دخل أخرى. تحوّل عدد من أبناء العشيرة إلى العمل المأجور، وبعضهم اعتاد هذا العمل قبل الرحيل إلى مشارف القدس بسنوات، حينما شرعت سلطات الانتداب ببناء مقرّ للمندوب السامي البريطاني على قمّة جبل المكبر. جاء بعض أبناء العشيرة واشتغلوا عمّالاً بالأجرة في بناء المقرّ الذي صاروا يسمّونه: قصر المندوب السامي.

وتحوّل قسم آخر من أبناء العشيرة إلى الزراعة. صاروا يفلحون أرضهم كلّ أيّام السنة. ولم يكتفوا بزراعة القمح والشعير. زرعوا أشجار الزيتون والعنب والتين والمشمش والدرّاق. زرعوا في سنوات الخصب البندورة والفقّوس والفجل والخيار والكوسا والخسّ والسبانخ والقرنبيط والباذنجان. وصاروا ينقلون خضرواتهم على ظهور الدوابّ إلى المدينة، يبيعونها لتجّار الجملة، وبعد جولة في الأسواق وشراء ما يلزمهم من سلع واحتياجات يركبون دوابّهم، ويعودون إلى بيوتهم في وضح النهار.

والنساء واصلن نسج البُسُط من خيطان الغزل المجدولة من صوف الأغنام، واقتنين الدجاج والبطّ والأرانب والحمام، واعتدن الذهاب إلى أسواق القدس لبيع البيض وأفراخ الحمام والدجاج والأرانب لأبناء المدينة، وجلود الذبائح للدبّاغين الذين ينظّفونها ويحيلونها إلى جواعد للجلوس عليها ولوضعها فوق الفرشات في فصل الشتاء. وكنّ يبعن التين والعنب وفواكه أخرى. وازداد تردّدهن على المدينة للبيع وللشراء. يشترين الحلويّات والسكّر والشاي وخيطان التطريز والأقمشة على أنواعها، تلك السوداء التي يفصّلن منها أثوابًا طويلة ويطرّزنها بخيطان مختلفة الألوان، وتلك الملوّنة الخفيفة التي يفصّلن منها شلحات وسراويل.

والرجال الذين لم تعد تستهويهم تربية الأغنام أو العمل في الزراعة تحوّلوا إلى سوق العمل في المدينة. اشتغلوا حَمّالين وباعة وعمّالاً في المشاغل والشركات وفي المطاعم والفنادق والمقاهي، واضطرّتهم ظروف العمل إلى تغيير أزيائهم البدويّة. خلعوا القمباز والحطّة والعقال والعباءة وارتدوا البناطيل والقمصان والطرابيش. ولم

يحدث هذا في وقت سريع، وإنّما احتاج إلى سنوات. وكان الاشتياق للبرّيّة يراود كثيرًا من النفوس.

صبحاء بالتحديد، كانت تهذي بحبّها للبرّيّة دومًا. تنام في وقت مبكّر من الليل على غير عادتها، ولا تلبث أن تنهض من فراشها. تخرج من البيت وتمشي بخطوات بطيئة جعلت نساء العائلة يعتقدن أنّها تمشي وهي نائمة. صبحاء كانت تنفي التهمة وتقول إنّها تمشي وهي في كامل صحوها. تحني رأسها قليلاً كي لا تتعثّر في مشيتها، وتسير بين المضارب وكلاب العشيرة تهرّ من حولها وتحكّ جلودها بساقيها وتهزّ أذنابها احتفاء بها. تمضي نحو حظائر الأغنام وهي تتكلّم بصوت مسموع: الله يبعد شرّ الذيب يا رب العالمين، ويعمي عينيه عن الغنم يا الله.

تمسّد بيديها شعر الماعز وتغمر أصابعها في صوف النعاج، وتنتهر الدوابّ وهي تتعابث من دون حياء، ترنو إلى نجوم السماء، تبحث عن نجم سهيل وعن درب التبّانات وبنات نعش، ثم تنتبه إلى أنّ البحث عن هذه جميعًا غير ممكن مرّة واحدة وفي وقت واحد. تطيل التحديق في الأعالي وتعجبها صفحة السماء المرصّعة بالنجوم، ثم تعود إلى فراشها وتنام.

في الصباح، تختلط عليها الأمور. تؤكّد لنساء العائلة أنّها تصحو من نومها وتخرج لتفقّد الأغنام، ثم تنسى ما قالته لهنّ وتروي لابنها المختار كيف حلمت بأنّها كانت تمضي نحو حظيرة الأغنام خوفًا عليها من هجمة الذئاب، وتعود إلى تذكيره بتلك الهجمة التي كان علي أوغلو أوّل من صحا عليها، ولا تنسى أن تؤكّد له أنّها كانت آنذاك في الطريق إلى الحجّ مع زوجها الشيخ محمّد، ولم تعرف كلّ شيء بالتفصيل إلا بعد عودتها من بلاد الحجاز. منّان يصغي إلى كلام أمّه وهو يفكّر

في ما سمعه من نساء العائلة كيف أنّها تمشي في الليل وهي نائمة. تغضب أمّه وتقول إنّ النساء أصابهنّ الخرف بعد مغادرتهنّ البرّيّة.

ولم يلبث المختار وأبناء عشيرته أن هجروا المضارب بالتدريج. في البداية ظهرت بيوت متفرّقة هنا وهناك، بيوت من حجر لها أبواب وشبابيك، وأمامها برندات وساحات تصلح للسمر في الصيف، وكذلك للأعراس ولغيرها من المناسبات. ومع الزمن، تكاثرت البيوت وصار بعض ساكنيها يستذكرون حياتهم التي كانت في بيوت الشعر، كيف احتملوها؟ وكيف عاشوا فيها سنوات طويلة في الحرّ والقرّ من دون تذمّر أو استنكاف؟ في حين ظل آخرون يتذكّرون بيوت الشعر باعتزاز، حتى وهم يسكنون البيوت الحجرية..

المختار منّان كان يدني عقاله من وسط جبينه دلالة على الابتهاج، ورجال العشيرة يبدون ارتياحهم لمغادرتهم البرّيّة وما فيها من قسوة ومعاناة، فهو صاحب المبادرة وهو سبب الخير الذي يطال العشيرة كلّها الآن، رغم ما يدّعيه بعض الحاقدين من أنّه سعى للرحيل خدمة لمآربه الخاصّة. كان يجاهر بكلّ ذلك أمام الساهرين في مضافته، فلا يجد سوى الثناء، فتطيب نفسه إلى حدّ كبير.

مثيلة لم يطب لها المقام في المكان الجديد. أصبحت تتطيّر كثيرًا، وزاد من تطيّرها تلك البيوت التي شيّدتها العشيرة وأقامت فيها. ظلّ الحنين إلى المضارب يراود نفسها، ولم تكن تعرف شيئًا عن ميسون البحدليّة التي تزوّجها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وأسكنها في قصر بعد أن كانت مقيمة في بيت من شعر الماعز، فلم ترقها الحياة في القصر، فجاشت قريحتها بشعر ظلّت تتناقله الأجيال، مثلما أخبرها عثمان وروى لها بيتًا منه:

لبيتٌ تخفقُ الأرياحُ فيه/ أحبّ إليّ من قصر منيفِ

كانت توجّه اللوم لزوجها الـذي قـرّر الإقـلاع عن السكن في المضارب، بعد تردّده المستمرّ على المدينة، فأعجبته المباني ذات الشبابيك والأبـواب، ما جعله يعود ذات يوم إلى مضارب العشيرة ومعه عدد من البنّائين، الذين بنوا للعائلة بيوتًا من حجر لها شبابيك وأبواب . ومع ازدياد البناء تشكّلت على الجبال القريبة من القدس قرية صارت تسمّى رأس النبع، بيوتها كلّها من حجر. قالت مثيلة لنفسها: وقلوب أهلها من حجر.

تذكّرت وطفاء والحجارة التي كانت تكدّسها في بيتها وتجلس قربها في الصباح وفي المساء. واعتقدت أنّ المختار لم يتحمّس لهجر المضارب ولبناء هذه البيوت إلا لتظلّ ذكرى وطفاء ماثلة في ذهنه، فلم ترقها البيوت الجديدة ولم تشعر بالراحة فيها.

كانت تستمع ليلاً إلى عزف الريح وهي تضرب الشبابيك، فيجفو النوم عينيها، وتشتاق إلى حضن زوجها المختار الذي جفاها منذ زمن، وأصبح لا يغادر فراش زوجته الصغيرة وضحاء. تشتعل الغيرة في قلب مثيلة، وتتشاجر معها، يغضب المختار حينما يعلم بأمر الشجار، تبادر وضحاء إلى مصالحة ضرّتها إكرامًا لزوجها. تصالحها مثيلة وتلوم نفسها لأنّها بادرت إلى الشجار، وتتّخذ قرارًا بعدم تكراره.

أخـذت تطيل الاعتكاف في بيتها، وفي الفجر صارت تسمع صهيل الفرس بعد انقطاع. وأخذت تحدّث النساء عمّا تسمعه، يحدّقن فيها بين مصدّقات ومكذّبات: شو اللي تقوله الفرس يا مثيلة؟

– تقول: يا العبد اللات، اصحوا.

كثيرات كن يتطيّرن مثل مثيلة، ويشعرن بمخاوف شبيهة بمخاوفها، وصرن يحدّثن غيرهن بأنّ ما تقوله مثيلة صحيح، فقد سمعن الفرس ذات فجر تردّد: اصحوا من نومكم، اصحوا، يا العبد اللات.

اعتقدت صفيّة أنّ الوقت حان لرفع أسهمها في أوساط العائلة، حدّثت ابنها محمّد الصغير عمّا تردّده النساء. أصغى لحظات، وبدا فزعًا من أمر ما، ولم يفصح عمّا في نفسه، ثم أغرق في ترديد التعاويذ والأدعية، ونقلت أمّه ما جرى منه إلى النساء، فازداد خوفهن، وسارعن إليه يطلبن منه الطمأنينة وراحة النفوس. فاهتدى إلى طريقة سمع عنها من جدّته صبحاء، بأن يضع كفّه على رأس المستغيث أو المستغيثة به ويقرأ آيات من القرآن. تهافتت عليه النسوة، ورجونه أن يقرأ على رؤوسهنّ القرآن، فلم يبخل عليهن، قرأ القرآن من دون مقابل ولوجه الله تعالى كما قال، ولم يوافق على تقاضي أيّ أجر منهنّ، فشكرنه وتمنّين له صحّة البدن وراحة البال.

ارتفعت مكانته في العائلة، إذ أعلنت بعض النسوة أنّهنّ لم يعدن إلى سماع صهيل الفرس ودعواتها الملحّة. ومال أبوه إلى تصديق ما أشيع عن ابنه بأنّه موهوب من الله، فأبدى ارتياحًا له ولأمّه. ولم يدم ارتياحه طويلاً. كانت ثقته في موهبة ابنه تتلاشى لدى ارتكابه أقلّ غلطة، فتعود مكانة أمّه صفيّة إلى المرتبة المتدنّية نفسها، ولا يعود المختار يعيرها أيّ اهتمام، وتزداد قناعته بأنّ ابنه أبله أو ممسوس.

مثيلة هي الوحيدة التي لم تنفعها قراءة محمّد الصغير. ظلّت الوساوس تغزو رأسها، وتزايد لديها اعتقاد بأنّ فرس العائلة تحاصرها وحدها لسبب ما. كانت تعود بها الذاكرة،في بعض الليالي التي تشتاق فيها الاقتراب من زوجها، إلى اللحظات التي قضتها مع التاجر. الآن، بعد أن تكرّر صهيل الفرس مع الفجر، زهدت في الشهوات، وآثرت أن تختطّ لنفسها طريقًا يبعد عنها المخاوف وشرور الدنيا. وجدت نفسها في لحظة صدق مع النفس تقول أمام نساء العشيرة ورجالها

الذين ما زالوا يذكرون التاجر حميد بالخير، إنّه ليس جديرًا بالاحترام، وما هو إلا دجّال مراوغ وكاذب محتال.

كانت تلك فرصة مواتية لكي يصادق عثمان على كلامها، ويعلن في تجرّد بأنّه لعب لعبة طائشة لمجرّد العبث وإلهاب خيال النساء، وبأنّه هو الذي وضع الحجر في المقام، رغبة منه في العبث واختبار عقول الناس. لكنه لم يقل شيئًا، لأنّه بات يخشى على تجارته من الكساد، ولا يدري كيف ستكون ردّة فعل الناس، بعد هذا الولاء لحميد. هزّت نساء كثيرات أطواقهنّ وقلن في هلع: خافي الله يا وليّة، خافي الله.

قال لها بعض الرجال: استغفري الله يا مثيلة.

لم تضف مثيلة إلى كلامها أيّ كلام. وتكرّسَ اعتقاد في أوساط العشيرة بأنّها بدأت تهذي وتخرّف وهي لم تتجاوز الأربعين من عمرها. ظلّت صورة التاجر مبجّلة في أذهان عدد من الرجال والنساء رغم ما أثير حولها من شكوك وتقوّلات، ويزيدها تبجيلاً اقتراب قبره من قبر سيدنا حامد، وتجاورهما على نحو حميم.

ولم يكن المختار معنيًّا بهذيان زوجته. أدرك أن أحوال البلاد تزداد سوءًا. وذات يوم ماطر، كان عثمان يتجوّل في أسواق المدينة وهو مرتاح للمشي تحت المطر. حدّث المختار عن مسيرة نسائية خرجت في القدس احتجاجًا على سياسة حكومة الانتداب. اتجهت المسيرة إلى مسجد عمر، وهناك ألقت امرأة مسيحيّة فلسطينيّة، هي متيل مغنم، كلمة من على منبر المسجد، ثم خرجت المسيرة واتّجهت إلى القبر المقدّس، وهناك ألقت امرأة مسلمة فلسطينية، هي طرب عبد الهادي، كلمة أمام القبر. قال عثمان إنه ظلّ يتابع

المسيرة من مسافة ما، وأثناء الطواف في شوارع المدينة اعتدى رجال الشرطة الانكليز على المشاركات في المسيرة وأجبروهنّ على إنهائها، ما اضطرّهنّ إلى التفرّق، وما جعل عثمان يشعر بالحرج، إذ كيف يضربون النساء وهو يراهم ولا يستطيع تقديم النجدة لهن.

قال له المختار معلّقًا على ما سمعه منه: أي هي النجدة بالساهل يا عثمان! عسكر الانكليز معهم سلاح وانت ما معك سلاح.

لم يعلّق عثمان على كلام المختار، الذي سأل بعد صمت: وبعدين؟ شو صار؟

قال عثمان إنّه سمع أنّ وفدًا منهنّ قام بتسليم مذكّرة احتجاج إلى المندوب السامي البريطاني.

ولم يغب عن بال عثمان، وكذلك المختار ،كيف أصبح الانكليز يُظهرون قلقهم المتزايد من تحرّكات الفلسطينيين الحاشدة، ومن مظاهر نقمتهم المتصاعدة ضدّهم جرّاء تحيّزهم للحركة الصهيونيّة وسماحهم باستمرار الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين. وأصبحوا يبدون انزعاجهم من اقتناء الفلسطينيين، سرًّا، للسلاح. قال المختار مرّة منكرًا ادّعاءات الانكليز: وين هو السلاح؟ كان معنا سلاح شخصي، وسلّمناه لكم بناء على طلبكم.

فلم يقتنع عسكر الانكليز. جاءوا ذات يوم إلى بيته، وقال له قائدهم: المستر سميث قتل.

تساءل المختار بهدوء: من قتله؟

– أنتم.

– وليش نقتله؟ المستر سميث كان صديقنا.

بدت كلمات المختار غير مقنعة، وهو، لأسباب عدّة، لم يعد يطيق أن يرى هؤلاء الانكليز، خصوصًا كلّما تذكّر أبناء العشيرة الذين

قُتلوا بسببهم. لكنّه لاحظ أنّ الأمور تزداد تعقيدًا، فاضطرّ إلى مداراة الموقف، وصار يستقبل قائد العسكر الجديد، المستر آدامز، بحفاوة وتكريم. كان يتظاهر بالتباهي بهذه الصداقة بينه وبين المستر «دامس» كما كان يقول. وظلّ الأمر على هذه الشاكلة، حتى جاءه المستر آدامز يحذّره من خطر اندلاع الثورة في البلاد.

بدا المختار غير مصدّق. حاول أن يبدو غبيًّا بعض الشيء أمام المستر آدامز، فأيقن هذا أنّ المختار لا يخلو من خبث. هزّ رأسه ومضى وفي نفسه تعتمل التوقّعات. ظلّ المختار متوجّسًا حتى علم أنّ ابنه محمّد الكبير مقيم في يافا، وهو يعمل في مواخيرها الليليّة (قيل له هذا وظلّ غير متأكّد من صحّته). اعتبر ما يقال عن ابنه علامة على انهيار سمعة العائلة، فأكثر من الصلاة وتلاوة سور قصيرة من القرآن يحفظها غيبًا منذ زمن.

لم يكتب المستر جون سوى ثلاثين صفحة ضمّنها بعض ملاحظاته عن أهل هذه البلاد. وجد صعوبة في التدوين، ليس لقلّة المعلومات وإنّما لافتقاره إلى التركيز من ناحية، ولرغبته في معايشة سحر الشرق لا تدوينه على الورق من ناحية أخرى. ثم إنّه اكتشف أثناء أحاديثه المتكرّرة مع زملائه الضبّاط أنّ خمسة منهم يفكّرون بالمشروع الذي يشتغل عليه، فلمّا وجد أنّه قد يضيع في خضمّ هذا العدد من المهتمّين بالشرق، لم تعد حوافزه لاستمرار التدوين وجمع المعلومات ملحّة. خفّف من اهتمامه بالتدوين، أو، على الأصحّ، أقلع عنه، وراح يعيش التجربة يومًا بيوم، وعلى نحو مباشر.

فلم يعدم العثور بين الحين والآخر على امرأة من نساء هذه البلاد، تروي ظمأه إلى الغرق في سحر الشرق وملذّاته. كان يخرج من

كلّ تجربة وهو أكثر ظمأ، فاعتقد أنّ هذا الشرق هو مصدر ما يعانيه من قلق دائم، وصارت تعتريه مشاعر متناقضة: أحيانًا تدهمه رغبة في الانصهار بتفاصيل هذه البلاد ومنحها حبّه وإخلاصه رغم ما في هذا من تعقيدات، وأحيانًا أخرى يلحّ عليه كره مباغت للبلاد ولأهلها، وتتصاعد في نفسه الرغبة في الانتقام، لعلّه يخفّف من أزمته ومن استعصاء الشرق عليه وعدم استجابته لنزواته ولأهوائه، ولعلّه يتخلّص من إحساسه المستمرّ بالنقصان.

صبحاء، على العكس من هذا، كانت تشعر بامتلاء حينما تعود بذاكرتها إلى الوراء، إلى البرّيّة وما كان فيها من أحداث ومشاعر وبشر وحكايات، وابنها منّان يصغي إلى ما تقوله بانتباه: الله يرحم روحه جدّك عبد الله. كان قلبه مليان رحمة وحنان. كان لما يرقّ مزاجه يصير يلعب مع أولاده وبناته، البنات والاولاد يركبون على ظهره وهو ماشي على يديه ورجليه، وفي رقبته حبل. مهيوبة تمسك الحبل بإيدها وتقوده وتقول له: امشِ وما تحرن، إنْ أحرنت أضربك بالعصا. وهو يضحك ويقول لها: أيوه، يا مهيوبة، يعني أنا حمار. مهيوبة تترك الحبل وتحضن راس جدّك وتبوسه وتقول له: ما عاش اللي يقول عنك حمار. وبعدين، بعد اللعب مع الاولاد، كان يهتم بمهيوبة، يلعب معها وهي تلعب معه. هي تضحك وهو يضحك حتى تسيل الدموع من عينيه، ما تقول عنه غير انّه ولد صغير. ولَمّا كان يغضب يصير مثل النمر، ما واحد يقدر ينظر في عينيه.

ولما خلّفتك، كانت الدنيا نهار، والطقس صيف، وكان أوّل من دخل علي جدّك عبد الله. قال لي: يا صبحا مبارك الولد، يكون ان شاء الله من خدمك. قلت له: الله يبارك فيك يا شيخ. والدك كان سارح مع

الغنم، وما عاد للبيت إلا مع غروب الشمس. الأولاد انتظروه لما رجع وقالوا له: البشارة يا عمّنا محمّد، صبحا خلّفت ولد. أبوك فرح ودخل علي وقال لي: الحمد لله على سلامتك يا صبحا. وأبوك سمّاك: منّان. يعيش الاسم ويعيش صاحبه.

– تعيشين انت يا أمّي.

كان ذهنه ينصرف فورًا إلى الزمن الجديد. الزمن الذي يجعله قريبًا من المدينة.

جاء إلى القرية رجل يحمل جعبة فيها دفاتر وأقلام رصاص. قال إنّه سيعلّم الأولاد القراءة والحساب وحفظ القرآن، ثم أصبح مع الزمن واحدًا من أهل القرية. كانت زوجته تقوم في أوقات معيّنة من كلّ أسبوع بتعليم النسوة بعض آيات من القرآن، وبعض أناشيد دينيّة يقمن بترتيلها على مسامع الأطفال قبل أن يناموا.

أسّس الرجل واسمه عبد القادر مدرسته في مبنى استأجره من المختار، قريبًا من الساحة الرئيسة في راس النبع (أطلق الناس عليه لقب الخطيب ونادرًا ما كانوا ينادونه باسمه الصريح)، وانتظم الأطفال في الدراسة. كانت تروقهم الدفاتر المسطّرة التي كتبوا عليها بأقلام الرصاص أولى الكلمات. علّمهم الخطيب بعض الأناشيد الوطنيّة التي كتبها شعراء من فلسطين ومن بلدان عربية أخرى.

كان المختار منّان يجتاز الساحة كلّ صباح، فيشعر بانتعاش وهو يستمع إلى إنشاد الأولاد:

موطني موطني

الجلال والجمال والسناء والبهاء

في رباك في رباك

يجتاز الساحة وهو يفكّر في هذا الكلام المنغّم الذي يفيض من شبابيك المدرسة ويملأ فضاء الساحة، ينتبه إلى أهمّيّة العلم وجدواه، ويشعر بالأسى لأنّه لم يتعلّم الكتابة والقراءة، لكنّه بعد تفكير طويل وتأمّل في ما حوله من بيوت وحقول وأودية وجبال بدا معتدًّا بتجربته [illegible] . ذات مرّة، سمع أحد المتعلّمين يقول: الحياة مدرسة هي الأخرى. فأصبح هذا القول يتردّد على لسانه في شتّى المناسبات.

ولم تكن في القرية مدرسة للبنات. لم يفكّر أحد بتأسيس مدرسة لهن، في حين أنّ أشخاصًا من راس النبع كسروا المحظورات وأبدوا رغبة في تعليم بناتهم، وألَحّوا على الخطيب لكي يقبلهنّ في مدرسته، فوافق على مضض، وأصبحت لديه فيها تسع بنات وسبعة وأربعون ولدًا. ولم يسلم هؤلاء الذين أرسلوا بناتهم إليها من الاتّهامات، فهم في عُرْف كثيرين من أبناء القرية لا يقيمون للأخلاق وزنًا ولا يحرصون على شرف بناتهم، إذ يسمحون لهنّ بالدراسة مع الأولاد.

كان منظر البنات والأولاد وهم خارجون من المدرسة بعد انتهاء الدروس، يبهج القلب. هذا ما قالته سميحة وهي تعود بابنها إلى البيت. وتحسّرت هي الأخرى مثل زوجها منّان لأنّها لا تقرأ ولا تكتب، وهي الآن تجد العزاء في ابنها. ولم يستطع عبد الودود كبح جماح زوجته التي قرّرت إرسال ابنتها نوال إلى المدرسة (تذكّر أنّه قرأ وهو طفل في مدرسة بالقدس مدّة عام). كانت في الحادية عشرة من عمرها. قال لها: البنت كبرت، وبعد سنة تدخل سنّ البلوغ يا نجمة. تكفينا دراسة ابننا نوّاف.

أصرّت نجمة على رأيها، وكانت نوال متحمّسة للدراسة. ارتدت ثوبًا أسود يصل إلى كعبيها ولفّت شعرها بمنديل أبيض، ومضت مع أمّها لمقابلة الخطيب.

استقبلهما ورحّب بهما، وأبدى سروره لقبول تلميذة جديدة. كانت نوال هي الكبرى بين بنات المدرسة، علاوة على أنّ بنيتها القوية المتناسلة من بنية أمّها جعلتها تبدو أكبر من عمرها. كان الأمر لافتًا لانتباه الخطيب، ولم يشأ أن يتّخذ من عمر البنت حجّة لرفضها. شكرته نجمة وغادرت بعد أن تركت ابنتها أمانة بين يديه.

كانت نجمة موصوفة بين نساء العشيرة بالجرأة والثقة بالنفس. وهي التي تبتّ في أمور بيتها، وزوجها عبد الودود يصغي إلى ما تقرّره بانصياع. وهي صاحبة الفضل على نساء العائلة لاكتشافها الحمّام الذي تغتسل فيه النساء في ساعات ما بعد الظهر، ويغتسل فيه الرجال في ساعات ما قبل الظهر. وقع الأمر بمحض الصدفة، وإلا كان يمكن ألا تعرف نجمة وغيرها من نساء العائلة أيّ شيء عن الحمّام.

كانت قادمة إلى المدينة لتبيع التين والعنب. أنزلت السلّة عن رأسها ووضعتها أمامها، وجلست في قرنة السوق المفضية إلى المسجد الأقصى، وراحت تتابع بعينيها النساء اللواتي يعبرن طريق الواد ثم ينعطفن يسارًا ويدخلن سوق القطّانين، يغبن ساعتين أو ثلاث ساعات، ثم يخرجن منها، وعلى وجوههن نضارة لا تخفى عليها.

مشت عشرات الأمتار وانعطفت نحو سوق القطّانين، وإذا بها أمام الحمّام الذي تستحمّ فيه النساء. ولم تتردّد، بعد أن باعت ما لديها من تين وعنب، عن دخول الحمّام. راقها انتشار النساء في أرجائه وهنّ عاريات. تعرّت، وراحت تستحم، فركت جسدها بالليفة وبالصابون النابلسي ذي الرائحة التي تشي بزيتون الحقول. وحينما نال جسدها ما يكفيه من صابون وماء تمدّدت مثلما تفعل نسوة أخريات، على بلاط ساخن، وكانت تشعر بأتَمّ استمتاع.

ولم تكتف بذلك، راحت تنسج علاقات مع النسوة المدنيّات اللواتي تبدو عليهنّ مظاهر النعمة. كانت نجمة محدّثة لبقة، لفتت انتباه عدد من النسوة، فأعلنّ أمامها أنّهنّ أحببن طريقتها في الكلام. ابتهجت، وقرّرت بينها وبين نفسها أن تصبح زبونة دائمة لهذا الحمّام، تأتي إليه كلما سمحت لها ظروفها.

ولم تنس في الوقت نفسه متابعة النساء وهنّ يرتدين ملابسهنّ بعد الانتهاء من الحمّام. لدى بعضهنّ ملابس مزركشة جميلة، وأخرى خفيفة تشفّ عمّا تحتها، وهنّ يرتدينها على اللحم، ثم يتبعنها بملابس سميكة لا تشفّ عن شيء. استفسرت منهنّ عن مصدر هذه الملابس لتشتري مثلها.

وانتبهت إليهنّ وهنّ يخرجن من حقائبهنّ الجلديّة، التي يحملنها في أيديهن، أو يضعنها على أكتافهن، علبًا صغيرة فيها معاجين ودهونات يغرفن منها برؤوس أصابعهنّ كميّات قليلة، ويدعكن بها خدودهنّ فتصبح لها حمرة التفّاح. سألت إحداهن، فقدّمت لها شرحًا عن أحمر الشفاه، وعن الحمرة والبودرة التي تجعل للخدود رونقًا، وعن زجاجات العطر التي تجعل للمرأة رائحة جذّابة. سألتها عن مصدر الملابس وهذه الأصباغ والعطور. دلّتها المرأة على حانوت في أوّل سوق العطّارين، وقالت لها إنّ أسعاره معتدلة.

ولم يفكّر عثمان باستئجار حانوت في المدينة. كان تفكيره منصبًّا على راس النبع، كما لو أنّ مسؤولية من نوع ما تجعله مشدودًا إليها راغبًا في خدمتها. لم يفكّر أيضًا بالمتاجرة بما له علاقة بالنساء من ملابس وعطور. عثمان كان يجوب أسواق المدينة باستمرار، يتعرّف إلى ما فيها من سلع، ويفكّر في كلّ سلعة وفي جدواها وقابليّتها

لأنْ تفعل فعلها في نفوس الناس. ملابس النساء وعطورهنّ لم تقع في مجال اهتمامه. كان يعرف أنّها تدرّ ربحًا، لكنّه لم يفكّر فيها.

ولا يكتفي عثمان بالتعرّف إلى السلع المعروضه في المدينة واختيار ما يصلح منها للقرية. كان معنيًّا بالتعرّف إلى ما في المدينة من أحداث، وما فيها من طقوس دينيّة ومن أفكار، وما يردّده التجّار وأهل العلم من كلام في السياسة. سمع عن شيخ متعلّم من عشيرة السراوخة وهي إحدى عشائر عرب السواحرة، اسمه حسين السرخي، ومع أنّه كان رجلاً مُقْعدًا فإنّه لم يكفّ عن طلب العلم وعن الاستزادة منه حتّى وافاه الأجل، ودفن في جبل الحَرَذان التابع لأراضي السواحرة، قريبًا من بيت بناه الشيخ ليقيم فيه، وظلّ من بعده لأبنائه الذين سكنوه.

وسمع عن مفكّر مقدسي اسمه بندلي الجوزي. قيل له إنّ لديه أفكارًا تدلّ على بُعد نظر وعلى فهم عميق للإسلام. قيل إنّه ألّف كتابًا يبحث فيه تاريخ الحركات الاجتماعيّة في الإسلام. الحركات التي كانت تعمل من أجل العدالة الاجتماعيّة والدفاع عن فقراء الناس. راقت لعثمان هذه الأفكار حينما شرحها له معلّم مدرسة يتردّد على حانوت التاجر الذي يشتري منه عثمان بضائعه. حفظ اسم بندلي الجوزي وصار يأتي على ذكره كلّما جاء رجال القرية إلى حانوته. أكّد لهم أنّ بندلي الجوزي مطّلع على الثقافة الإسلامية، وأنّ للمسيحيين الفلسطينيين دورًا كبيرًا في نشر العلم والمعرفة في فلسطين. ولم يكن يبوح بكلّ ما يعرف لمن يستمعون إليه. كان يصمت فجأة ولا يعود إلى الكلام إلا بعد أيّام، حينما يكون مزاجه قابلاً لاستئناف الكلام.

عاد من المدينة قبل الغروب، عاد هذه المرّة في شاحنة صغيرة دخلت القرية ببطء فوق الطريق الترابية التي جرى شقّها قبل أشهر.

تعربش الأولاد الشاحنة وكاد السائق يدوس أحدهم وهو يركض قريبًا من عجلاتها. رأى الأولاد عثمان وهو ينزل بضائع مختلفة ويكدّسها في غرفة استأجرها خصّيصًا لهذا الغرض.

من بين السلع التي أحضرها: اللوكسات ذات الضوء العالي، وهي تنفع لليالي السهر في المآتم وفي الأعراس. أحضرها إلى راس النبع وهو يتذكّر أجداده الأوائل. تأسّى على ما قاسوه من شظف العيش حينما لم تكن لديهم وسائل إضاءة كافية، وتأسّى على ما قاسته عشيرته في البرّيّة حينما لم تُدخل هذه اللوكسات إلى بيوتها. عثمان الآن يشعر بالبهجة، هو المتتبّع الدائم لتجلّيات النار والنور، ولن يبخل على أهل راس العين بما يسهّل لهم سبل العيش.

حينما اقترب المساء، تجمّع حوله حشد من الرجال والأولاد، وراحوا يراقبون المشهد وهم منصتون. بلّل بالكاز جسمًا ناعمًا من خيطان بيضاء محبوكة على شكل كيس مجوّف صغير، قال إنّه الشامبر، الذي يتوهّج ناشرًا الضوء في مساحة واسعة. تابع الرجال والأولاد ما يقوله وهم لا يصدّقون أنّ جسمًا هشًّا مثل هذا قادر على نشر الضوء. ثبّت عثمان الشامبر في مكانه داخل اللوكس، ومن حوله كانت زجاجة لها شكل اسطواني تستقرّ بثبات. أشعل عود ثقاب وقرّبه من الكاز المتجمّع في حوض صغير، اشتعل الكاز، ووصلت النار إلى الشامبر.

بعد لحظات، راح يحرّك مفتاحًا في وسط اللوكس، وفجأة توهّج الشامبر مثل قطعة من نار، وانتشر النور في الحانوت وتمدّد نحو الخارج، فانطلق الأولاد يتصايحون في جذل، وبدا الرجال راضين عمّا فعله عثمان. اشترى عدد منهم لوكسات ستكون موضوعًا للتفاخر والمباهاة. وكالعادة، ظلّ رجال آخرون غير راضين عمّا يفعله عثمان. قالوا إنّه يلعب بالنار، واللعب بالنار لا يخلو من أخطار.

تطيّرت بعض النسوة من اللوكسات بسبب ما تضفيه من انكشاف زائد في الليل. صحيح أنّهنّ يخشين العتمة وما ينشط فيها من أرواح شرّيرة وكائنات خطرة، لكنّهنّ اعتدن مصابيح الكاز التي تبدّد العتمة باعتدال، ولا تفرض نورها الساطع على عيونهنّ وهمسهنّ الذي لا غنى عنه، كما تفعل هذه اللوكسات التي لها نور حادٌّ يحاكي نور الشمس.لم يكترث عثمان لتطيّرهن.

ولم يجد الخطيب عبد القادر غضاضة في الاستماع إلى عثمان في الأمسيات التي يتحلّق فيها الناس أمام حانوته. كان الخطيب متفتّح الذهن لا يضيق ذرعًا بأيّة فكرة. يستمع إلى كلام عثمان ويحاول الإضافة إليه، يتحدّث للناس عن الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده، ويقول إنّهما من أهمّ المجدّدين في الفكر الديني الإسلامي. تكبر المساحة التي يتجوّل فيها كلّ من عثمان وعبد القادر، والناس يتابعونهما ويعجبون كيف أنّ عثمان الذي لم يتعلّم في المدرسة سوى أربع سنوات يجاري الخطيب في موضوعات ليست سهلة. يشعرون أنّ هذا العالم فسيح على نحو جدير بالانتباه.

عثمان لم يتعلّم كثيرًا في المدرسة، إلا أنّ اختلاطه بتجّار المدينة وبالمتعلّمين فيها علّمه أشياء غير قليلة. قرّر منّان أن يُلازم المتعلّمين وألا ينفر منهم، ولا، بالتالي، من الخطيب عبد القادر الذي تعلّم في المدرسة سبع سنوات. وفي الأثناء، يتذكّر الخطيب عبد الرحمن، يرثي له ويقول: كان خطيب بيضة ورغيف. ويجد أنّ عبد القادر متميّز عليه على نحو لا شكّ فيه.

لم يعد الخطيب عبد القادر غريبًا في القرية. أصبح مع الزمن واحدًا من رجالاتها الذين يحظون بالاحترام، جرّاء إخلاصه في تدريس أبنائها وتعليمهم العلم الصحيح. وتكفّلت الأيّام بتعديل نظرته إلى

نوال، فأبدى اهتمامًا بها منذ الساعة الأولى لدخولها المدرسة. إنّها بنت جميلة ذكيّة، ولم تكن له بنات. أنجبت زوجته أربعة أولاد، وظلّ متشوّقًا لأنْ تلد طفلة تضفي رونقًا على البيت، لكنّها توقّفت عن الإنجاب، فاعتبر نوال ابنة له، وصار يغدق عليها مزيدًا من العطف والحنان. وهي اعتادت أن تذهب بين الحين والآخر بعد انتهاء الدروس إلى بيت الخطيب، تساعد زوجته في الكنس والطبخ وغسل الملابس والعناية بالطفلين الصغيرين. تضع أحدهما في السرير وتهزّه بيدها وتغنّي له بصوت رقيق. يسمعها الخطيب ويثني عليها في سرّه. يدعو الله العليّ القدير أن يجنبّها عثرات الزمان، وأن يكلأها بعين رعايته، ويقيها شرّ المبغضين والحسّاد.

رتيبة، زوجته، أصبحت تكنّ لها حبًّا كما لو أنّها ابنتها. وفي أحيان كثيرة، كانت تجلس مع الخطيب وزوجته وأولادهما إلى مائدة الطعام، ثم تعود إلى بيتها مكلّلة بمشاعر طيبة. وبسبب الألفة التي ترسّخت مع الأيام، نامت نوال عددًا من المرّات في بيت الخطيب. كانت تنام هي وأولاده في غرفة واحدة، ولا يندر أن يتفقّدهم الخطيب بعد أن يناموا لكي يعدّل الأغطية على أجسادهم. يجد ساق نوال وقد انزاحت من تحت الغطاء، يسحبه عنها بخفّة كي لا تستيقظ، وينشره على جسدها بإحكام، ثم يغطّي بقيّة الأولاد، ويقرأ فوق رؤوسهم آية الكرسي، ويغادرهم إلى غرفته.

كانت نجمة راضية عن علاقة ابنتها بأسرة الخطيب، واعتبرت اهتمامه هو وزوجته بها مبشّرًا بالخير، وفيه إيحاء بما تستحقّه نوال من تقدير، فازدادت حدبًا عليها واعتناء بها، واعتقدت أنّها ستكون امرأة محظوظة في قادم الأيّام.

عبد الودود أيضًا كان يعلّق آمالاً كبيرة على ابنته.

7

كانت الغيرة تشتعل في قلوب نساء العائلة لأنّ جمال نجمة لا يُجارى، وتزيدها جمالاً تلك الأصباغ التي تضعها على خدّيها. فقد اهتدت إلى الحانوت الذي يبيع القماش والأثواب والفساتين والملابس الداخلية والعطور ومساحيق الزينة للنساء. اشترت قماشًا زهريّ الألوان، وملابس داخليّة ناعمة الملمس، لم تعرفها من قبل أيّة امرأة من نساء عائلة العبد اللات. دفعت ثمنها وغادرت الحانوت.

ولم يهنأ بال خمس من نساء العائلة حتّى أخذتهنّ نجمة إلى المدينة. النساء الخمس هنّ: فطّومة، مهيرة، مهيوبة، هيفاء، وربيحة. دخلن الحمّام وهنّ متهيّبات خجلات، فلم يعتدن خلع ملابسهنّ إلا في بيوتهن. وهنّ الآن يتعرّين في مكان غريب، وقد يتلصّص عليهنّ الرجال. كنّ يتلفّتن نحو باب الحمّام وحيطانه وسقفه بحذر. لم تشعر نجمة بأيّ حرج. تعرّت قبلهنّ ووقفت تحت الماء بكلّ استرخاء. وكانت نسوة أخريات من المدينة يغتسلن ويرفعن أصواتهن بالغناء، أو يستلقين على البلاط الساخن مغمضات عيونهنّ كما لو أنهنّ نائمات. وثمة نسوة يمشين هنا وهناك وأجسادهن تتمايل وتترجرج من غير تحفّظ أو استنكاف.

بعد مرور الدقائق الأولى، انقشع خجل النساء الخمس على تفاوت في ما بينهن. أبدين اهتمامًا بجسد مهيرة الذي ما زال محتفظًا برشاقته رغم أنّها فقدت زوجين، وقد تفقد الثالث بسبب ما قيل عن سوء طالعها وعن كعبها المنحوس. لم تتساقط من بين ساقيها كرات من الذهب ولا دم الحيض الذي كان مبعث اتّهام لها كلّما اصفرّ العشب وذبل، فأبدين تعاطفًا معها وهي تغسل جسدها بالماء، ولاحظن إلى أيّ حدّ يتّسم هذا الجسد بالبراءة والوداعة، لاحظن كذلك أنّه جسد عاديّ مثل أجسادهنّ ولا يحيط به أيّ غموض.

غسلن أجسادهنّ وهنّ مطمئنّات مسرورات. أبدت هيفاء وربيحة خجلاً زائدًا، ثم تخفّفتا منه وتقافزتا في فضاء الحمّام مثل غزالتين، ونساء العائلة الأخريات لم يكنّ أقلّ ابتهاجًا منهما. مهيوبة راقبت ربيحة باهتمام، وأبدت إعجابها بها وهي تلاحظ استدارة حوضها الواسعة، توقّعت أنّها ستكون امرأة ولودًا حينما تتزوّج. أضمرت في نفسها قرارًا ما، لكنها لم تفصح لها عن شيء مِمّا تفكّر فيه، لأنّها قد تتردّد وتنقض قرارها ولا تفضي به لأيّ أحد، وتلغيه. هيفاء بدت مكتفية بجمالها الفتّان، وهي لا تكفّ عن التباهي بزواجها من عثمان، الشخص الذي يلعب بعقول الناس في راس النبع بما يعرضه عليهم من أفكار، ويلعب بأمزجتهم بما يجلبه إلى القرية من سلع تظلّ موضع تعليق بضعة أسابيع إلى أن تصبح مألوفة لديهم.

لم يخفّف من انزعاجهنّ سوى تذكير نجمة لهنّ بضرورة الذهاب إلى حانوت الملابس والعطور قبل انقضاء النهار. ارتدين ملابسهنّ ومضين إلى الحانوت، تحدوهنّ الرغبة في شراء ملابس شبيهة بتلك التي عرضتها عليهنّ نجمة قائلة بمباهاة: هذي ملابس نسوان المدينة، أنا ألبس مثلهن.

رغبت فطّومة في مناكفتها فقالت: لكن انت ما انت من نسوان المدينة.

قالت نجمة بأسى مكتوم: لا يهم.

وصلت نجمة والنساء الخمس الحانوت، ورحن يدقّقن النظر بكلّ ما فيه من ملابس وأقمشة، ومن عطور ومساحيق. تنشّقن روائح العطور وهنّ يدلقن قليلاً منها من زجاجات صغيرة، ووضعن على خدودهنّ بعض مساحيق جعلتهنّ غير ما كنّ عليه. قلّبن بأيديهنّ كثيرًا مما عرضه صاحب الحانوت عليهن. كانت تعتريهنّ مشاعر شتّى وهنّ يفردن الشلحات بين أيديهن، ويتصوّرنها وهي تنسدل على أجسادهن، فيسارعن إلى إقصاء هذه المشاعر إلى وقت آخر. اشترين أقمشة وملابس وعطورًا ومساحيق.

وحينما كنّ عائدات إلى راس النبع، لم تفارقهنّ سيرة الحمّام والحانوت وما تحقّق لهنّ فيهما من رغبات. نجمة هي التي بدأت الحديث. وامتدّ بهنّ الحديث وتشعّب وطال، وظللن يتبادلن الكلام ويضحكن حتى وصلن بيوتهنّ، وكنّ متعبات.

إلا أن التعب لم ينُسهنّ ما فعلته صفيّة في السوق. وما زلن يتندّرن عليها، هي التي لم تكن تطيق ذكر سيرة الحمّام، أو مجرّد التفكير في الذهاب إلى الحانوت الكائن في سوق العطّارين لشراء ملابس لا تستر الجسد ولا تراعي شروط الحياء. كانت تخيط ثيابها بنفسها، وتخيط لنفسها من قماش رخيص سراويل داخليّة تمتدّ إلى تخوم ركبتيها.

ذهبت ذات صباح إلى السوق لبيع البيض، وكان الشهر شهر رمضان، وهي صائمة تذكر اسم الله في كلّ حين، وتمنّي نفسها بأداء

الصلاة في المسجد الأقصى. وفيما كانت منهمكة في ترتيب البيض على شكل هرم أمامها لعلّه يجلب انتباه المارّين في السوق، سقطت بيضة من أعلى الهرم وانكسرت. قبضت عليها بيدها وحارت ماذا تفعل بها! أخيرًا، لم تجد بدًّا من أن تدنيها من شفتيها. شربتها وألقت بالقشرة الفارغة في وعاء قريب للنفايات، وراحت تؤنّب نفسها، واستغفرت ربّها بعد ذلك بلحظات.

انتظرت طويلاً حتى باعت البيض كلّه، وعادت إلى القرية من دون أن تصلّي في المسجد الأقصى، وروت ما وقع لها للنسوة اللواتي ضحكن حتى سالت دموع بعضهن، وبقين يستعدن ما فعلته صفيّة ويواصلن الضحك، إلى أن قالت نجمة: الله يكفينا شرّ هذا الضحك.

كلام نجمة لفت انتباه النسوة إلى منحى آخر. تذكّرن الخطيب عبد الرحمن ومغادرته مضارب عشيرة العبد اللات خوفًا من غضب الله عليهم. وتوقّعن أنّه كان سيرى في تصرّف صفية الذي أثار ضحكهن، حجّة لتأكيد مخاوفه مِمّا سيحدث للعشيرة. توقّفن عن الضحك كما لو أنّهن استشعرن خطرًا ما.

لم يكنّ راغبات في الضحك وحسب، بل كنّ أيضًا راغبات في تسقّط الأخبار الخاصة التي تقع بين الأزواج وزوجاتهم. وكنّ معنيّات باستدراج وضحاء للتحدّث عمّا لديها من أسرار. وضحاء هي أصغر زوجات المختار. تزوّجها وهي في الثالثة عشرة. رآها وهي تحصد القمح والشعير مع أمّها ذات نهار. كانت تتنقّل في الحقل مثل فراشة. أعجبه قوامها الرشيق ووجهها الذي يحمل براءة الأطفال.

وكانت مغرمة بظلّها، تمشي ويمشي ظلّها معها مثلما يحدث مع سائرِ الناس. لكنّ وضحاء كانت تعتبر ظلّها جديرًا بالانتباه، كأنّها

تخشى أن تفقده. تتلفّت دائمًا نحوه حينما يكون خلفها، وتشعر بارتياح لأنّه لا يفارقها (ستلاحظ صبحاء أمّ زوجها طبعها هذا، وستروي على مسامع وضحاء حكاية الرجل الذي أطعم ظلّه بيضة ورغيفًا، لأنّه خاف منه، فاضطرّ إلى تقديم ما معه من طعام له لعلّه يفارقه ولم يفارقه. وستضحك وضحاء، وستظلّ تعتني بظلّها ولكن من دون أن تقدّم له أيّ طعام). طلب يدها من أبيها فلم يتردّد عبد الهادي ولم تتردّد وضحاء. كانت راغبة في الزواج، وخصوصًا بعد أن رأت جسد أسعد قبل أن يغرق في بركة الماء. صارت تراه في أحلامها، تبتهج لمرآه، تقترب منه وتسأله عن اسمه فلا يجيب. يسألها عن اسمها فلا تجيب. تبدو خجلة من الكلام معه. يضحك ويقول لها إنّه يعرف اسمها. يقول لها إنّ اسمها وضحاء، وهو رآها من قبل مع أمّها. تضحك وتقول له إنّها تعرف اسمه. تقول له إنّ اسمه أسعد، وهي عرفت اسمه بعد أن غرق في بركة الماء. يقول لها إنّه لم يغرق في الماء. تؤكّد له أنّه غرق، وهو يصرّ على أنّه لم يغرق. يمدّ يده لكي يلمس يدها. تبعد يدها وتخاف، يقترب منها ويقبض على ذيل ثوبها، يرفع الثوب عن ساقيها، تبتعد عنه ويطلب منها ألا تخاف، يقترح عليها أن تنزل في الماء لكي يسبحا معًا. تشيح بوجهها عنه وتقول إنّ هذا غير ممكن. يغضب منها ويرمي جسده في بركة الماء، تصرخ وتنهض من نومها فزعة. تلعن الشيطان وتعود لمواصلة النوم وهي خائفة من تكرار حلمها.

تكرّر الحلم إيّاه مرّات عدّة، فأبدت رغبة في الزواج، وزغردت مرجانة فرحًا وابتهاجًا بزواج ابنتها. تَمّ الزواج بعد شهر من الخطوبة، وحلّت ليلة الزفاف بأسرع مما توقّعت الفتاة. اعتقدت فطّومة وعدد من صاحباتها أنّ وضحاء لم تعرف الدورة الشهريّة بعد، ولم تبلغ بعد

مبلغ النساء. تمنّين أن يسفر اختلاء المختار بها عن فضيحة، كأن يتسبّب لها بنزيف حاد، يجعله مضطرًّا إلى استدعاء القابلة، لعلّها تجد طبًّا يوقف الدم المتدفّق من أسفل بطنها.

غير أنّ رغبات فطّومة وصاحباتها لم تتحقّق. طلع النهار بعد الليلة الأولى التي قضاها المختار مع عروسه، ولم يكن هناك ما يكدّر صفوه ولا صفو العروس. بدا في أحسن مزاج، وكانت العروس تتخطّر في المكان كأنْ لم يمسسها بشر، ولم يبد عليها أيّ وهن أو إرهاق. بل إنّها كانت مزدهية بليلتها تلك كما لو أنّها امرأة مجرّبة في الثلاثين أو في الأربعين، فازدادت فطّومة وصاحباتها كرهًا لها، ورحن يدبّرن لها المكائد، ويحاولن الاحتيال عليها بمختلف الحيل.

كانت وضحاء بالغة الخجل. لاحظت فطّومة هذا حينما انفردت بها هي وصاحباتها. وضعنها بينهنّ في ساحة الدار، وتأمّلن جمال وجهها وازددن قناعة بأنّها ما زالت طفلة. وكانت قناعاتهنّ تهتزّ كلّما تذكّرن أنّها قضت ليلتها الأولى مع المختار من غير أن تصرخ وهي بين ذراعيه، أو أن تهرب من الدار خوفًا مما ينتظرها من مفاجآت. لاطفنها ومسّدن شعرها، وتحسّسن رقبتها. قالت فطّومة وهي راغبة في استدراجها إلى الحديث: عندك جرح خفيف في رقبتك.

تحسّست وضحاء رقبتها ببراءة وقالت: جرح؟ من وين بدّه يجيني الجرح؟

ابتسمت فطّومة بخبث وهي تضغط بإظفرها على رقبتها لعلّها تجرحها وقالت: يعني مش عارفة؟

تحسّست نسوة أخريات رقبة وضحاء، وتلمّسن مكان الجرح، أو المكان الذي يُفترض أنّ فيه جرحًا. نهضت وضحاء وركضت نحو باب

البيت وغابت قليلاً وعادت وفي يدها مرآة (المرآة الأولى التي تملكها امرأة من نساء العشيرة، وظلّ الأمر على هذا النحو إلى أن كسرت نجمة هذا الاحتكار، واشترت مرآة أكبر من مرآة وضحاء. حينما أحضرها المختار من السوق لم تصدّق وضحاء نفسها وهي ترى صورتها فيها. دهشت مما رأت. في السابق، وهي في البرّيّة، اعتادت النظر في ماء البئر فترى صورة لرأسها على صفحة الماء، إنّما بغير وضوح تام. وفي راس النبع، صارت ترى وجهها منعكسًا على نحو ضبابيّ في زجاج النوافذ. الآن ترى كلّ تفصيل في جسدها مجسّمًا بدقّة، فأعجبتها المرآة وشكرت زوجها لأنّه فاجأها بهذه الهديّة التي لم تفكّر فيها من قبل. صارت تطيل النظر في وجهها ورقبتها وصدرها عبر المرآة كلّما وجدت لديها وقت فراغ. وفي بعض الأحيان، كان زوجها يشاركها متعة النظر التي تجعل جسدها محطّ اهتمام. يقبض على المرآة ويرى وجهه ملاصقًا لوجهها، يبتسمان ويشعران بفرح غامر، وحينما تتركه لتغلي له القهوة، يفتل شاربيه وهو يحدّق في المرآة، ثم يقبض على المقصّ ويشذّب شاربيه إلى أن تعود).

نظرت نحو رقبتها وتساءلت: وين الجرح؟ ما عندي في رقبتي جرح.

قالت فطّومة: دقّقي النظر يا حبيبتي. جرح من إظفر المختار أو من واحد من أنيابه.

ضحكت صاحبات فطّومة، وعلّقت إحداهن: هو المختار وحش وله أظافر وأنياب؟

علّقت مهيرة: الجواب عند وضحا، وبدنا وضحا تحكي لنا.

تساءلت وضحاء: شو أحكي؟

قالت مهيرة: خبرينا عن اللي جرى وصار في الليل.

– جرى وصار؟

– أيوه يا حبيبتي. خبرينا عنّك وعن المختار.

احمرّ وجه وضحاء، وارتبط لسانها ولم تدرِ ماذا تقول. نهضت، واستبقينها. ولَمّا أدركن أنّها لن تقول شيئًا، انتبهن إلى المرآة. قبضت فطّومة عليها وراحت تنظر إلى وجهها فيها. رأت صورتها وأعجبها وضوح الصورة، مطّت لسانها خارج فمها، وبعد قليل، شدّت شفتيها حتى بان بياض أسنانها. ضحكت ورافقتها ضحكتها في المرآة. حاولت وضحاء تخليص المرآة من يدي فطّومة، وسبقتها مهيرة إليها، وراحت تكرّر ما فعلته فطّومة. قالت وهي تتأمّل وجهها: والله اني أجمل منكن.

ردت فطّومة في مناكفة مقصودة: غلطانة. وضحا هي الأجمل.

– لا، لا، أنا الأجمل.

خطفت وضحاء المرآة من بين يدي مهيرة، ورفعت طرف ثوبها لكي تتمكّن من الركض السريع. ركضت نحو باب البيت وفي يدها المرآة. أغلقت الباب خلفها وانفصلت عن فطّومة وصاحباتها، وهي تتذكر نصائح أمّها بأن تكون حذرة أثناء مخالطتها للنساء.

كانت صبحاء تعرف ما يدور في مجالسهن، فهي بارعة في التقاط الأخبار من أفواه نسوة يرغبن في البوح بما لديهنّ من أسرار. تختزن صبحاء كلّ ما يصلها من أخبار إلى أن يأتي ابنها منّان للسهر في بيتها، فتبدأ البثّ مثل مذياع، ولا تتوانى عن إبلاغه كلّ شيء، وبخاصّة ما يتعلّق بنساء العائلة: موَشّشات يا منّان، وما ظل فيهن عقل.

– من هن يا أمّي؟

– نسوان العيلة. صرن يتباهين بالملابس اللي ما بتستر أبدانهن. الله يستر علينا وعلى جميع خلقه. أي والله، أبوك ما كان يقبل لأي

واحدة من نسوانه تلبس إلا الملابس المحتشمة. اليوم، النسوان صرن يرحن للمدينة، ويشترين شلحات وسراويل على الموضة، وخليك يا تالي الحكي. وصرن يشترين البودرة والحمرة والعطر، يتبودرن ويتحومرن ويتعطّرن. وصرن يرحن ع الحمّام التركي. ما عاد يرضيهن يتحمّمن في بيوتهن. يا عيبهن! يكشفن عن صدورهن وبطونهن في حمّام المدينة، ويمكن صاحب الحمّام يتفرّج عليهن. أي والله هذا شيء عمره ما صار. النسوان صرن يلبسن ملابس شفّافة، يرضيك هذا يا منّان؟

– يلبسنها تحت أثوابهن يا أمّي.

– يعني عاجبك هذا الشيء؟ والله ما لك علي يمين، إنّي أتمنّى حبّة تراب تواريني لما أشوف نسوان العيلة غسلن شلحاتهن وسراويلهن، ونشرنهن على الحبال، يلعب فيهن الهواء، ويهفهفن قدّام الرايح والجاي. يا عيبهن!

كان يصغي لما تنقله له أمّه من أخبار نساء العائلة، ولا يتّخذ ردود أفعال متماثلة. حينما يكون سابحًا في حالة من فراغ، ينسمّ بدنه مما تقوله أمّه، ويفكّر في ضرورة ضبط نساء العائلة وفق مقاييس صارمة. وحينما يشرع في تنفيذ ما فكّر فيه يجد صعوبة هنا وأخرى هناك، ويُجابَه بمواقف بالغة التلوّن من النساء، يحلفن بالله وبالرسل بأنّ قصدهنّ شريف وبأنّهن لا يفعلن سوى ما تفعله نسوة أخريات. وفي بعض الأحيان، كنّ ينفين كلّ ما تبتدعه أمّه من حكايات، ويقلن إنّ كلامها غير صحيح، وليس لها من شغل سوى الوشاية بهنّ وتأليبه عليهن.

وبالطبع فإنّ منّان لا يمكنه أن يُجري تفتيشًا لملابسهنّ. إلا أنّه يعرف ما ترتديه زوجتاه سميحة ووضحاء، ويتراوح موقفه مِمّا ترتديانه

بين الشدّة واللين. أحيانًا تطيب له ملابسهما التي تختلف عمّا كان عليه الحال في البرّيّة، ويدرك أنّ متعة ارتداء هذه الملابس لا تقتصر على زوجتيه وحسب، بل إنّها تتعدّاهما لتصل إليه حينما تتبدّيان فيها مثل حوريّتين قادرتين على استنفار كلّ ما لديه من قدرات جسديّة. بل إنّهما تقولان له بالتصريح لا بالتلميح إنّهما ترتديان هذه الملابس له ومن أجله، وحينما يسمع كلامهما هذا يرقّ مزاجه ويمعن في التلذّذ بما تقوله الزوجتان (ملابس صفية لا تجذبه، ومثيلة مهجورة من زمان).

وفي أحيان أخرى، تجتاحه نخوة بدويّة لا فكاك له منها، وتتلبّسه خشية على سمعة العائلة، فيبدي تشدّدًا يدوم بعض الوقت ثم لا يلبث أن يتراخي ويتلاشى أثره وتعود الأمور إلى ما كانت عليه. يحدث هذا حينما يكون مشغولاً بما هو أكثر أهمّيّة وتأثيرًا على أحوال البلاد.

تابع قدوم عشائر أخرى من البرّيّة. جاءت عشائر عرب السواحرة وأقامت في أراضيها المحاذية للقدس، وتكوّنت منها مع الزمن قرية مترامية الأطراف. وصارت قرية راس النبع على صلة مع القرى المجاورة لها، ظلّت تتعزّز وتتشابك مع كرّ الأيام والسنين.

وعرف من اللحظة الأولى أنّ حكومة الانتداب نصّبت مختارًا آخر على راس النبع، فأصبح عددهم خمسة مخاتير. كان هو أكثرهم مهابة وسطوة. تعدّدت زياراته للمدينة، وصلّى كثيرًا في مسجدها ومشى في أسواقها المسقوفة وهو يتأمّل بهاءها. واستطاع أخوه عبّاس الذي التحق بمدرسة في المدينة وهو طفل مدّة عام، أن يستأجر حانوتًا فيها، يبيع فيه الطحين والعدس والرز واللبن الجميد والقطّين والعلف والسكّر والشاي. كان الناس يتذمّرون منه دومًا لأنّه يرفض أن

يبيعهم أيّ شيء إلا إذا نقدوه الثمن فورًا. وإذا تصادف أن تنازل مرّة وباع أحدهم سلعة ولم يدفع ثمنها، ظلّ يلاحقه حتى يحصل على حقّه منه، فصاروا يردّدون قولة شاعت في ما بعد في راس النبع: «مثل دينة عبّاس» فذهبت مثلاً.

لم يكن عبّاس منهمكًا في تفاصيل المدينة وفي أخبار أهلها، لأنّه كان يغلق باب حانوته بعد العصر بقليل ليعود إلى راس النبع، يقضي ليله فيها حتى الصباح، ولا يفتح باب الحانوت إلا في التاسعة. لكنّه كان على علم ببعض التفاصيل، ينقلها إليه زملاؤه التجّار. نقلوا إليه أخبار واصف جوهريّة، أحد أبناء المدينة، الذي كان موظّفًا في إحدى دوائر حكومة الانتداب. لم تمنعه الوظيفة من مواصلة التعبير عن موقفه الوطني، وعن رفضه للاحتلال الانكليزي وللهجرة الصهيونيّة إلى البلاد. تعزّز موقفه هذا بتشكيل جمعيّات إسلامية-مسيحية في القدس وفي غيرها من مدن فلسطين.

أخبروه أيضًا أن واصف جوهريّة كان مجيدًا في العزف على العود وفي الغناء. اعتاد إحياء السهرات الممتعة مع أصدقائه وضيوفه القادمين إلى القدس من الخارج، يعزف على العود ويغنّي ويحتسي الخمرة معهم حتى ساعة متأخّرة من الليل.

أخبروه أن القدس، رغم الاحتلال، كانت مقبلة على مباهج الحياة بعد رحيل الجيش التركي منها. كثرت فيها المسارح ودور السينما، وزارها الأدباء والمطربون من مصر ولبنان وغيرهما من الأقطار العربية، ولم تحدّ من هذا الإقبال إجراءات عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون المدينة وأهلها بين الحين والحين. ولم يفكّر عبّاس في قضاء ليلة واحدة في المدينة عند أحد زملائه التجار، لكي يتعرّف إلى ليل المدينة. كان يكره السهر، ولا يتحمّس للغناء.

ولم يكن مولعًا بالنساء، إلا أنّ رغبته في مولود ذكر دفعته إلى الزواج عددًا من المرّات، وفي كلّ مرّة كان يُرزق بطفلة، يعقد العزم على الزواج من جديد. وذات مرّة، رأى فلاحة بدينة في السوق، فتوطّدت العلاقة بينه وبينها. كانت تأتي إلى حانوته لشراء السكّر والشاي والعلف. فاتحها بأمر الزواج، فوافقت، خطبها من أهلها وعقد قرانه عليها وتزوّجها، وأخذها إلى حيفا ليقضي معها أسبوعًا في أحد فنادقها.

استغرب أهل راس النبع حينما عاد عبّاس إلى القرية والمرأة تسير خلفه وهي تترجرج ذات اليمين وذات الشمال. بقيت في بيته أسابيع عدّة، ولم تلبث أن غادرته لخلاف وقع بينهما، وفسّر الأمر قائلاً لمن هم في مثل سنّه من الرجال: همّتها فاترة في الفراش.

راجت شائعة بين النساء بأنّ عبّاس لم يستطع فضّ بكارة المرأة، وقلن إنّ السبب كامنٌ في صلابة جلدها الأسمر السميك الذي لوّحته شمس الحقول، علاوة على هزال جسد عبّاس الذي أرهقته الأعوام. ظلّت الشائعة تُزوْبع وتنتشر حتى وصلت مسامعه، فاستنكرها واعتبر هذا الأمر تجديفًا بالله واهب الجلود والألوان، وقرّر ألا يتزوّج مرّة أخرى إلا وهو على بيّنة من كلّ شيء.

لم يطل الأمر حتى نسي عبّاس الشائعة، رغم المرارة التي ظلّت تعتمل في نفسه حينما يرى هذا العدد الكبير من البنات لديه وليس لهنّ أخ يحميهن، ويرث تجارته الرائجة من بعده. ترعرعت تجارة عبّاس، بعد أن تكالب الناس على شراء أكياس الطحين والعدس والرز والسكّر والشاي، وبعد أن أكثرت النسوة من شراء العلف لدجاجهن. يذهبن كلّ يومين أو ثلاثة أيّام إلى المدينة، يحملن سلالاً مملوءة

بالبيض والفراخ، يبعنها في السوق، ويعدن محمّلات بالعلف والسكّر والشاي والتمور والأقمشة وبعض الحلويّات.

كان أكثر شيء يستحوذ على اهتمام النسوة، رؤية عسكر الانكليز وهم يقفون عند مفارق الطرق والأسلحة في أيديهم، أو يتجوّلون في الأسواق مراقبين حركة الناس، وكذلك رؤية أولئك الرجال الذين يرتدون المعاطف السوداء صيف شتاء، ويطلقون سوالف طويلة من الشعر الأسود تتدلّى على خدودهم من تحت قبّعات فاحمة، فيعتريهنّ الخوف، ويشعرن بأنّ ثمة خطرًا يتهدّد هذه البلاد، فيستجرن بالرسل والأنبياء والأولياء الصالحين لإنقاذها مما يُبيَّت لها من شرور.

وعلى العكس من اللوكسات ذات الضوء العالي، أحضر عثمان إلى راس النبع شموعًا قال إنّ بالإمكان إضاءتها ووضعها في زوايا البيوت، لتنشر ضوءها الناعم الذي يحاكي ضوء القمر، فتجعلها مريحة للأعصاب. لعثمان علاقة بهيجة بالشموع منذ كان طفلاً في المدرسة الداخليّة في القدس. اعتاد أن يحمل شمعة مضيئة ويطوف في الكنيسة مع صحبه التلاميذ. كان يمشي والشمعة المشتعلة في يده، تنشر من حوله نورًا خافتًا يجعل للمكان المقدّس هيبة وجلالاً، ويجعل النفوس ترقّ وتخشع. خطرت بباله الهالة الشفّافة التي ينشرها ضوء الشموع فامتلأت نفسه بمشاعر فيّاضة.

قال لمن جاءه من رجال راس النبع ونسائها لتأمّل الشموع إنّ لها استخدامات شتّى. فإذا انكسر مصباح البيت، فالشمعة هي الجواب إلى أن تتمكّن الأسرة من شراء مصباح. وإذا رغب تلميذ في قراءة دروسه على ضوء شمعة في الليل فإنّ رغبته ممكنة، وفيها تأكيد على جدّيته وعلى انشداده إلى تحصيل العلم. وقال إنّ للشموع وظائف

أخرى منعشة للمشاعر مثيرة للذكريات، ففي عيد ميلاد الزوجة أو أحد الأبناء أو إحدى البنات، تغدو إضاءة الشموع المغروسة في جسد كعكة العيد وحول مائدة الطعام، على قدر من الأهمّيّة لما تضفيه من ألفة ومودّة.

بدا كلامه هذا غريبًا على أهل راس النبع، فهم غير معتادين على الاحتفال بأعياد ميلادهم. وبعضهم لا يعرف متى ولد؟ وصبحاء لم تؤرّخ لولادة أبنائها وأحفادها إلا من خلال بعض الوقائع الفارقة في تاريخ العشيرة: مثل سنة الجراد، أو ليلة الذئاب، أو ليلة النار، أو سنة الزلزال، أو يوم السيل. وعثمان يأتي إلى القرية بطقوس مفاجئة، قد يتعاطى معها بعض الرجال والنساء، وقد لا يتعاطى معها بعضهم الآخر.

ولم يقل إنّ بإمكان الزوج وزوجته أو الحبيب وحبيبته السهر على ضوء شمعة في هدأة الليل، خوفًا من استياء أهل راس النبع من أفكاره الموغلة في الرغبة في الاكتشاف. ترك هذا للخبرة البشرية التي قد تعثر على الأمر المطلوب صدفة ومن غير ترتيبات مسبقة. وصبحاء لم تتابع بانتظام كلّ ما تفتّقت عنه قريحة عثمان.

ولم يُقنع في البداية إلا عددًا محدودًا من الناس. حينما أشعل شمعة ووضعها على الطاولة التي أمامه في الحانوت، لكي يدلّل على جمال ضوئها وضرورتها في كثير من الحالات، تبادر إلى ذهن عبد الجبار وهو يتأمّل قوامها الأبيض النحيل، وقاعدتها الرفيعة التي بالكاد تسعفها على الوقوف، أنّ هذه الشمعة قد تنقلب وتسقط فوق شرشف أو بساط فتحرقه، ومن ثم يحترق البيت بما فيه وبمن فيه. ابتسم عثمان وقال إنّ هذا يمكن أن يحدث، ومن واجب الناس أن ينتبهوا إلى ما في بيوتهم من شموع توزّع نورها على البيت باعتدال. وقال

إنّ خطر الموت كامن في كلّ خطوة نخطوها، وهو يتجاور مع الحياة بشكل دائم، وعلى الناس أن يحتاطوا لكلّ شيء، رغم الحقيقة التي تقول إنّ الحذر قد لا ينفع مهما اجتهد الناس، فالموت لا يمكن نفيه من حياتنا. ثم أدهش الجميع حينما ردّد قولاً مأثورًا قرأه في كتاب: أن تضيء شمعة خير من أن تلعن الظلام.

عبد الهادي، زوج مرجانة ووالد وضحاء، الذي كان جالسًا على كرسيّ في حانوت عثمان، انحطّ بالمشهد إلى درجة مؤسفة حينما ابتدع وظيفة أخرى للشمعة المشتعلة: طلب من عثمان أن يناوله الشمعة، فلما صارت في يده، قرّب ذبالتها من طرف سيجارته الهيشي وأشعلها، وراح ينفخ دخانها من بين شفتيه. ولم يغضب عثمان، اعتبر ما قام به عبد الهادي تنويعًا على المشهد، حتى وهو يذكّره بنجاعة أعواد الثقاب في هذا المقام.

ويمكن القول إنّ عثمان كان مسرورًا لما جرّته الشموع من كلام، وظلّ مصرًّا على إحضارها وتسويقها وبيعها للناس، حتّى لو تسبّبت في تشجيع قصص الحبّ بين الصبايا والشباب، وحتّى لو تسبّبت في حريق ما. كان على قناعة بأنّه يقوم بفعل صحيح، ولم يكن مستعدًّا للتراجع عن فعل قرّر الشروع فيه.

كان المختار يتابع على نحو متقطّع ما يحضره عثمان من سلع. ولم يعجبه إحضار الشموع، لكنّه لم يصرّح بموقفه منها. ترك الأمر للظروف ولأمزجة الناس، ذلك أنّ عثمان في نهاية المطاف هو زوج أخته، وهو لا يريد لتجارته أن تبور أو أن تتعرّض للكساد.

انشغل عن تجارة عثمان، وانخرط في الحياة العامّة على نحو أوسع من قبل. بدا كمن يخوض في بحر شاسع، وهو راغب في الاغتراف

من مياهه قدر ما يستطيع، ولم يكن يقف أمام طموحه أيّ شيء، رغم قدراته المحدودة الناتجة عن أمّيّته التي ظلّت تعذّبه كلّما جلس مع المتعلّمين القادرين على امتلاك اللغة، وعلى التفنّن في الكتابة.

تردّد على مقاهي المدينة ومطاعمها، وأكثر من الصلاة في المسجد الأقصى، وتعرّف إلى تجّار ووجهاء ومحامين وأشخاص آخرين لهم مكانتهم في المدينة، وعرف أنّ هناك تنافسًا على الزعامة وعلى النفوذ والمكانة الاجتماعيّة والسياسيّة بين عائلات القدس، وبالتحديد بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي وهما من أكثر العائلات نفوذًا في المدينة، وثمة تباين في المواقف السياسيّة بين زعماء العائلتين.

كان يشعر بالحيرة وهو يتابع عبر بعض أصدقائه ومعارفه هذه التفاصيل، ويخشى ألا تعود بالخير على المدينة وعلى البلاد بشكل عام. وحينما دعاه أحد أصدقائه إلى الانضمام للحزب العربي الفلسطيني الذي يقوده جمال الحسيني، تردّد ولم يوافق، إلا أنّه ظلّ على مقربة من الحزب وأنصاره.

ولم يمنعه هذا من زيارة دوائر حكومة الانتداب مرارًا، واستطاع أن يكفل بعض المحابيس من أبناء القرية لدى المستر آدامز، الذي أخرجهم من السجن احترامًا للمختار، على ألا يعودوا إلى إحداث أيّ شغب في أسواق المدينة. ثم أصبح المختار يجد متعته في المواسم التي تعقد في ساحة المسجد الأقصى، حيث يتقاطر الناس من كلّ أحياء المدينة ومن المدن الأخرى والقرى المجاورة، يقيمون الاحتفالات، يدبكون ويغنّون على أنغام الشبّابة والناي، ثم يتّجهون في موكب مهيب إلى مقام النبي موسى على مسافة من القدس وهم يهزجون:

لولاك يا موسى ما جينا ولا تعنّينا
ولا دهسنا الحصى ولا الرمل بِجْرينا

وحينما يحلّون في المقام يذبحون الذبائح، ويقيمون الشعائر الدينيّة ويواصلون الغناء، ثم يعلنون ولاءهم للوطن وسط نشوة لاهبة، وهم يستمعون إلى الخطباء والشعراء يـردّدون الكلمات الحماسيّة وينشدون قصائد الشعر التي تحذّر من مغبّة الأخطار التي يتعرّض لها الوطن، ويحضّون على بذل الأرواح في سبيله.

كانت القرية تمتلئ بالباعة المتجوّلين بعد موسم النبي موسى. يأتي تجّار الجلود، يشترون بقروش قليلة ما يتوافر منها لدى أهل راس النبع ، أو يقايضونها مقابل حفنة من القضامة والكعكبان وإبر الخياطة والخيطان. ويأتي نعمان وهو يحمل صينيّة على رأسه ويردّد بصوت ممطوط: حلاوة النبي بركة. فيحيط به الأولاد والبنات والنسوة لشراء الحلاوة.

كانت فلحة مغرمة بتأمّل الباعة المنتشرين في القرية، تتابع حركاتهم بإعجاب، وتنتشي لسماع أصواتهم الملعلعة، فتشعر بالفارق الكبير بين القرية والبرّيّة التي جاءت منها، وتظلّ تعتمل في نفسها رغبة في اكتشاف الحياة على نحو أوسع مما تسمح به القرية، فلا تجد ما تعبّر به عن رغباتها سوى المشي المتواصل في الدروب لسبب أو لغير سبب، والتوقّف قرب الباعة، وتبادل الأحاديث معهم خلسة. كان نعمان يسترعي انتباهها أكثر من غيره من الباعة، بابتسامته الآسرة وعينيه العسليّتين.

أمّها مثيلة لم تعد قادرة على مواصلة حياتها الرتيبة. حينما قرّر والدها الذهاب في جمع من الرجال والنساء إلى الحج، ألَحّت عليه

أن يأخذها معه، فلم يمانع، ولم يمانع زوجها المختار. ركبت جملاً، واتجهت قافلة الحجّاج جنوبًا في رحلة مضنية نحو مكّة المكرّمة. كانت نفس مثيلة تصفو كلّما أوغلت في الطريق نحو الجنوب.

وآنذاك، جاء إلى راس النبع شاعر فظّ يحمل ربابة، فاحتفى به الناس خوفًا من لسانه السليط الذي قد ينطلق في مكان آخر مشهّرًا ببخل القرية وسوء أخلاق أهلها. ظلّ معزّزًا مكرّمًا في القرية ينتقل من مضافة إلى أخرى، فطوره السمن البلديّ وخبز القمح، وغداؤه اللحم والرزّ والخبز والمرق. ظلّ غاطسًا في هذه النعم حتى رأى فلحة ذات نهار تركب حِمارًا بالقرب من بيت أهلها. جاشت شاعريّته السقيمة، ولم يستطع الصبر لأنّ الفتاة تجعل وركيها منفرجين على ظهر الحمار، وفي هذا ما يغري بتصوّرات فاحشة، ولا يترك مجالاً لحسن الظن، فأرسل نغمًا من ربابته وغنّى:

يا راكبة على حميرِك
طَلَق بارود يهيّلِك
العتب ما هو عليكِ
العتب ع اللي بين وركيكِ

تناقل الناس القصيدة العمصاء حتى وصلت إلى مسامع المختار منّان، فانتضى شبريّته وانطلق باحثًا عن الشاعر، والناس يتدافعون من حوله لثنيه عن تنفيذ مقصده. هرب الشاعر مرعوبًا وربابته تحت إبطه، ثم قرّر اعتزال الشعر حينما أدرك لأوّل مرّة في حياته خطورة أن يكون المرء شاعرًا.

بحث المختار عن ابنته لكي يلقّنها درسًا لن تنساه، لأنّها ركبت الحمار على نحو فاضح (تذكّر أنّه جعل وطفاء تركب البغل بالطريقة

نفسها في زمن سابق، ثم أقنع نفسه بأنّ ما فعلته وطفاء شيء مختلف، ولم يرها أحد سواه). ركضت، وساقاها تكادان تخذلانها، إلى بيت عبد الجبّار، عمّ أبيها. استجارت به فأجارها، وظلّت دخيلة عليه أيّامًا عدّة إلى أن خفَّ غضب أبيها، فعادت إليه، وقد همّت بالإقدام على أمر لطالما فكّرت فيه في ليالي أرقها.

كانت علاقتها توطدت مع نعمان. جاء يطلب يدها من أبيها المختار، فلم يستجب لطلبه لأنّه لم يكن مقتنعًا بأن يزوّج ابنته لبائع حلاوة لا يعرف نسبه أو حسبه، ولم يستسغ تزويجها لشخص من خارج العشيرة. نصحته أمّه ولم يستمع إلى نصيحتها. قالت له من دون مداراة: زوّجها يا منّان واستر عليها، البنت كبرت وعينها واقحة (تعجّبت صبحاء من تفاوت حظوظ البنات. مهيرة ابنة ضرّتها السابقة مهيرة، وهي من جيل فلحة، ظفرت بزوج هو ابن خالها قبل ثلاثة أعوام، وفلحة لم تظفر بزوج حتى الآن).

لم يستجب منّان للنصيحة، توقّع أن يخطبها أحد أبناء عمومتها. كان يردّد كلّما وردت سيرة البنات والزواج بهنّ قوله المأثور: أحسن إلنا إنّا نحط زيتنا على طحينّا.

ولم يتقدّم لخطبتها أحد من أبناء عمومتها، وهي لم تقتنع بموقف أبيها. انتظرت نعمان على حافّة الدرب ذات مساء. كانت صينيّة الحلاوة فرغت مما فيها. وضع يده في يدها تحت جنح الظلام وانطلقا بعيدًا من القرية.

تلك الليلة، وفي الليالي الطويلة التي تلتها، لم يستطع المختار أن يغمض جفنيه. رأى عائلته وهي تنهار تحت ضربات الزمن الذي لا يرحم، وبفعل الأمزجة المتقلّبة لأبنائه وبناته. ولم تقف معاناته عند

هذا الحد. ذات مساء، عاد فوج من أبناء راس النبع، بينهم أخوه عبد الودود ، وقالوا إنّ اليهود الذين جاءوا من بلاد بعيدة طردوهم وحلّوا محلّهم.

ضرب المختار منّان كفًّا بكف، وحار في ما يفعله، ثم أمضى أيّامًا [illegible] وهو حبيس الصمت لا يكلّم أحدا ولا يلقي بالاً إلى أحد.

وظلّ عثمان يذهب إلى المدينة ويعود منها وهو أكثر ثقة في المستقبل، لسبب لم يفصح عنه لأحد، ربّما كان واهمًا وربّما كان على صواب. وعلى أيّة حال، لم يكن ممكنًا التغاضي عن حقيقة أنّ أحوال البلاد لم تعد مطمئنة. لكنّ عثمان كان يجد دومًا ما يجعله متفائلاً، وبدا في الآونة الأخيرة متباهيًا لأنّه عرف اسمي رجلين نابهين في المدينة، أحدهما هو المربّي خليل السكاكيني الذي له آراء جديدة في التربية والتعليم، وبيته ملتقى دائم لرجال الفكر والأدب. وثانيهما هو الأديب إسعاف النشاشيبي، الذي له إلمام واسع باللغة العربية، وأسلوبه في الكتابة لا يميل إلى البساطة ابدًا.

كان أبناء راس النبع يغبطون عثمان على معلوماته التي يستقيها من الكتب ومن تجّار المدينة ومن بعض الناس المتعلّمين الذين يجلسون في المقاهي ويتردّدون على الحوانيت، ويظلّ عثمان معنيًّا بالتعرّف إليهم والاستماع إلى كلامهم الذي يجد فيه متعة فائقة. ولعلّه لهذا السبب شجّع زوجته هيفاء على تعلّم القراءة والكتابة. بدت هيفاء متردّدة أوّل الأمر، وأمام إغراء عثمان وتشجيعه استجابت لرغبته. كانا يجلسان متقاربين في الليل، وعلى ضوء شمعة يشعلها عثمان تعلّمت هيفاء كتابة اسمها واسم زوجها، تعلّمت حروف الأبجدية. في البداية بدت لها هذه الحروف منفّرة مثل أشخاص

ثقلاء، ثم صارت تشعر بها قريبة من نفسها، فتألفها وتحبّها وتدخل في علاقة حميمة معها.

كانت تستمتع وهي تقرأ درسها، وتشعر بأنّها طفلة وعثمان يتابعها بحنان. علّمها قراءة الأشعار. حفظت نشيد موطني، وغيره من الأناشيد والقصائد. كان لهب الشمعة يتراقص معلنًا عن نهاية متوقّعة. وجسدها يضمر تحت وطأة النار المشتعلة في ذبالتها، وعثمان يواصل تعليمها، وهي تستجيب لكلّ ما يقترحه عليها. وبعد الانتهاء من الدرس يجلسان متلاصقين وهما يشربان الشاي ويتأمّلان الشمعة التي تحترق في هدأة الليل، فيشعران إلى أيّ حدّ هما منسجمان.

ولم يكن هذا الانسجام يروق أختها معزوزة. معزوزة لم تقبل الزواج من عثمان حينما تقدّم لخطبتها، لأنّها كانت تجتاز فترة حداد على حبيبها حرّان. وهي اعتادت مراقبة كلّ ما يحدث بين أختها وزوجها كلّما تمكّنت من ذلك، أو فإنّها تعتمد على ما تنقله لها النساء من أخبارهما، وترى أنّ كلّ إنجاز تحقّقه هيفاء إنّما يضيف همًّا آخر إلى همومها. وحينما تستبدّ بها النقمة على أختها وعلى العشيرة، تتذكّر حرّان وتترحّم على روحه، وتشتم عسكر الانكليز الذين تسبّبوا في قتله، أو ربّما قتلوه هم أنفسهم لسبب من الأسباب.

ذات صباح، خرجت من البيت ويَمّمت وجهها صوب البرّيّة. لم تذكر لأحد إلى أين هي ذاهبة، ولم تستشر أحدًا في ما هي مزمعة عليه. ولم تفكّر باصطحاب أيّ من نساء العائلة. وصلت البرّيّة وتأمّلت سهولها وجبالها، وارتجفت قليلاً وهي تدرك كم هي وحيدة في هذا الخلاء! ثم تذكّرت أنها كانت تحيا هنا من قبل، وكانت لها أيّام جميلة وأخرى حزينة، فلم تطل التأمّل في ما حولها. اقتربت من المقبرة

واتّجهت إلى قبر حرّان. جلست قربه وراحت تحكي له كلّ شيء عن حياتها. قالت إنّها قادمة إليه لتبقى معه، توقّفت عن الكلام لحظة لعلّها تسمع ردًّا يأتيها من داخل القبر، فلم تسمع أيّ كلام.

اعتقدت أنّ حرّان يواصل الإصغاء إليها فاستأنفت الكلام، حدثته عن غرور أختها هيفاء، وكيف أنها تغيظها بدلالها المصطنع وبتعمّدها الإتيان بتصرّفات مقيتة. سكتت وتلفّتت حولها ووجدت أنّ من واجبها زيارة قبور أخرى. استأذنت حرّان وزارت قبور والدها الشيخ محمّد، وجدّها عبد الله وجدّتها مهيوبة، وزوجة أخيها فاطمة، وترحّمت على أرواحهم، ثم عادت إلى قبر حبيبها، تذكّرت وجهه الوسيم وعينيه اللتين يطلّ منهما الخجل، حينما كان يراها من بعيد ويشير لها بيده محيّيًا، وهي تردّ على الإشارة بأحسن منها، وتظلّ منتشية إلى أن تنام. تذكّرت كم رسمت من خطط حينما يتزوّجها حرّان! إلا أنّه قتل، وهو الآن مدفون هنا، وسوف تقتل نفسها لكي تبقى إلى جواره.

أخرجت قنّينة من جيبها، شلحت توبها وفرشته قريبًا من القبر، خلعت منديلها ونثرت شعرها على صدرها وكتفيها، خلعت حذاءها وتمدّدت فوق الثوب، ولم يبق على جسدها سوى قميصها الداخلي الذي لا يكاد يغطّي ركبتيها. أغمضت عينيها وفي ذهنها تتخايل صورة حبيبها. مدّت يدها نحو القنّينة، فتحتها وقرّبتها من شفتيها، ارتجفت وتوتّر جسدها وارتبكت، ظنّت أنّها سمعت صوتًا يناديها من مكان ما، بدا لها أنّه صوت حرّان ينهاها عمّا تنوي أن تفعله. أصابها دوار خفيف وسمعت فرس العائلة وهي تصهل في البرّيّة، أو ربّما توهّمت ذلك. فتحت عينيها وحدّقت في القنّينة التي يجثم داخلها الموت.

نهضت ووقفت باسقة مثل شجرة، رمت القنيّنة فاصطدمت بشاهدة أحد القبور وانكسرت. نظرت نحو السماء وكانت غيوم بيضاء تتناثر على صفحتها. راقها مشهد الغيوم وشعرت بنسيم عليل يداعب جسدها. اعتقدت أنّها غير جادّة في وضع نهاية لحياتها، ومن تريد أن تنهيها فإنّها لا تتصرّف مثل هذه التصرّفات.

مزعت من قميصها الداخلي قطعة من قماش، أخذت حفنة من تراب القبر وصرّت عليها قطعة القماش، ارتدت ثوبها ومنديلها وحذاءها، ودّعت ساكن القبر العزيز على قلبها، ووعدته بأن تزوره مرّة أخرى ومرّات، ومضت مبتعدة.

وصلت راس النبع قبل الغروب، وكان أخوها يغلي مثل مرجل فوق النار. خَمّنَ السبب الذي دفعها إلى زيارة البرّيّة، فأصابته خشية من ألسنة الناس، واعتراه قلق عليها لأنّها ذهبت وحدها في طريق خالية من البشر، وقد يعترضها أحد الأشخاص في الطريق فيعتدي عليها، ويقع منّان والعائلة والعشيرة في عار ما بعده عار.

سألها وهي تقبض بيدها على الصرّة: وين رحت يا معزوزة؟

لم تجد بدًّا من قول الحقيقة، فهذا أسلم لها وأدعى إلى راحة الضمير: إلى البرّيّة.

– شو حاملة في الصرّة؟

– تراب.

– تراب من وين؟

– من البرّيّة.

– وليش رحت للبرّيّة؟

– زرت قبر أبوي وجدّي وجدّتي، وزرت قبر مرتك فاطمة.

– وشو كمان؟

– زرت قبر حرّان.

أعجب في سرّه بجرأتها واغتاظ في الوقت نفسه من هذه الجرأة، فهي لا تخشاه ولا تقيم وزنًا لغضبه. خَمّن دلالة التراب الذي أحضرته من البرّيّة، ولم يشأ أن يعطي الأمر اهتمامًا كي لا تتردّى علاقته بأخته أكثر مما هي عليه الآن. زمجر بصوت خافت مخافة أن يتسرّب صوته إلى حيث لا يرغب ولا يريد. قال في غيظ: يعني بدّك تفضحينا يا معزوزة؟

– ما بدّي أفضحك ولا أفضح حدا.

اقتربت منه وضحاء، وقالت بصوت خافت: افلح يا بن الناس، ما صار إلا الخير، واختك ما تخاف عليها، حرّة وأصيلة.

خفّف كلام وضحاء من غضبه، حدج معزوزة بنظرة صارمة ثم أدار وجهه وابتعد.

دخلت معزوزة غرفتها ووضعت صرّة التراب قريبًا من قلبها، ثم خبأتها في صندوق ثيابها لكي تخرجها وتتأمّلها كلّما دهمها الحنين إلى حرّان. أخيرًا، جلست وحيدة وبكت.

ولم يكن عثمان يعرف إلا القليل عن معاناة معزوزة. كانت هيفاء تكتم عنه كلّ ما له علاقة بأختها، كي لا ينشغل باله، وكي لا يعطي معزوزة شيئًا من اهتمامه، أو يعود إلى تذكّر مسعاه الأوّل لخطبتها وللزواج بها، قبل أن ترفضه فيتحوّل عنها إلى هيفاء.

وعلى أيّة حال، لم يكن لديه وقت كافٍ لكي ينشغل بأمرها. كان منصرفًا إلى شؤونه الخاصة. فقد ازدهرت تجارته، وامتلأ حانوته بأصناف مختلفة من البضائع، واستأجر غرفة أخرى وملأها بالبضائع

التي يشتريها من تجّار الجملة في المدينة، ويبيعها لأهل راس النبع بأسعار معتدلة ولا يناله منها إلا ربح طفيف.

آخر سلعة أحضرها هي الحصيرة المصنوعة من قشّ متعدّد الألوان. أحضر في شاحنة صغيرة عددًا غير قليل من الحصر. جاء رجال ووقفوا أمام الحانوت، وجاءت نساء، وراح عثمان يفرد أمام الجميع واحدة منها. وهو يقول: افرشوا بيوتكم بأرخص الأسعار.

اشترى بعض الرجال والنساء حصرًا منه، في حين غضبت نساء أخريات. قالت فطّومة: يعني أبطّل أنسج بُسُط من تحت راسك يا عثمان؟

ردّ عليها: يا فطّومة، انسجي بُسُط، وكلّ واحد يلتقط رزقه.

ولم تقتنع فطّومة. وكادت تنشب مشادّات أخرى. ظلّ عثمان مصرًّا على أنّ القرية بحاجة إلى هذه الحصر التي يمكن استخدامها داخل البيوت وفي البرندات والساحات، وقال: اللي عنده رغبة يقتني البُسُط هو حرّ والله معه.

لم تقتنع فطّومة مرّة أخرى، ولم تشأ أن تواصل رفع صوتها أمام الناس، وقرّرت ألا تتوقّف عن نسج البُسُط حتى لو امتلأت راس النبع بالحصر.

اختفى قرص الشمس جهة الغرب، وبدأت عتمة خفيفة تغزو المكان. تبعثر الناس من أمام الحانوت، وظلّت النقمة على عثمان تعتمل في نفس فطّومة وفي نفوس نسوة أخريات تذمّرن من منافسته لهن، تلك المنافسة التي لم تخطر من قبل في البال.

وسيصبح اسمه: عثمان أبو الحصر. تلتصق به هذه الكنية وبذرّيّته، ولن يجدوا فكاكًا منها مع الزمن. وسوف تصبح اسمًا مألوفًا

له دلالته الإيجابيّة في ما بعد، بسبب الرواج الذي أصبحت تحظى به الحصر في أزمنة الفقر اللاحقة.

وسيتذكّر عثمان أيّامه الأولى، حينما أحضر لأطفال البرّيّة ألعابًا متنوّعة. سيروي سيرته مع التجارة لهيفاء: يومها، حينما وصل الساحة اي سرسط مضارب العشيرة، أنزل كيسًا عن ظهره، وأخرج مسدّسًا شبيهًا بذاك الذي كان على خاصرة الضابط التركي. ضغط على الزناد وسمع الأولاد صوتًا مدوّيًا. كرّر الضغط على الزناد وتكرّرت الأصوات المدوّية. تعجّب الأولاد مِمّا رأوا ومِمّا سمعوا. وبدا السرور على وجه عثمان كما لو أنّه طفل يلهو ويلعب ويستمتع بما بين يديه.

استرعت أصوات الطلقات انتباه عدد من النسوة، فاقتربن من عثمان. تناول من داخل الكيس جسمًا معدنيًّا صغيرًا، في جانبه الأيسر قطعة معدن مثل المفتاح. أدارها إلى الخلف عددًا من المرّات، ثم وضع الجسم ذا العجلات الأربع على أرضيّة الساحة، فانطلق يجري نحو الأمام. مشى بضعة مترات ثم توقّف في انتظار أن يدير عثمان المفتاح كما في المرّة السابقة. دهش الأولاد مِمّا رأوا، وازداد سرور عثمان وقال: هذي السلع أحضرتها للبيع.

صاح الأولاد بأصوات ملهوفة: أنا أشتريها. أنا أشتريها.

قال: يمكنكم الشراء ببيض وخبز وجبن ونقود.

تراكض بعض الأولاد نحو بيوتهم فيما بقي آخرون في الساحة. عرض عثمان قطعة خشبيّة صغيرة لها شكل مخروطي، وفي أسفلها سنّ معدنية. تناول خيطًا من قنّب ربط طرفه بإصبعه الخنصر، وثبّت طرفه الآخر على المخروط وراح يجدل الخيط عليه، ثم ألقاه على بقعة يابسة من الأرض بحركة قويّة من ذراعه اليمنى، فانطلق يدور بسرعة،

وسنّه المعدنيّة تسنده أثناء الدوران، إلى أن تراخت حركته واضطجع على الأرض. حاول محمّد الكبير ابن المختار منّان أن يخطفه ويهرب. كان عثمان له بالمرصاد، قبض على يده، وقال: هات قرص جبنة وأنا أبيعك هذا البلبل.

تعجّب الأولاد من اسم المخروط الخشبي، وردّدوا الاسم بشغف.

جدل عثمان الخيط مرّة أخرى على البلبل وألقاه على الأرض وهو بادي السرور، وكاد ينسى نفسه وهو مستغرق في اللعب مثل طفل. ثم انتبه وأعلن بصوت ممطوط: معي بلابل، مسدّسات، سيارات للبيع.

عرض عثمان قطعة معدنيّة أخرى مثل شبّابة الرعاة وفيها ثقوب عدّة، وضع طرفها المدبّب بين شفتيه وراح ينفخ فيها فصدرت منها أصوات عذبة. ظلّ يعزف عليها حتى تجمهر من حوله حشد من الأولاد. توقّف عن العزف وارتفع صوته معلنًا: معي زمّارات، معي بلابل، معي مسدّسات للبيع.

مع حلول المساء، باع كلّ ما أحضره معه من سلع كانت مصدر فرح للأطفال ولأمّهاتهم ولكثيرين من رجال العشيرة الذين غبطوا عثمان على بضاعته، وجعلهم يشعرون بأنّ رياحًا جديدة تهبّ على البرّيّة وتجعلها عرضة لتأثير المدينة. وظلّ صوت المزامير يلعلع بين المضارب إلى ما بعد صلاة العشاء.

ابتسم عثمان وهو يروي لزوجته تلك التجربة الأولى في التجارة، وابتسمت هيفاء وازدادت إعجابًا بعثمان.

8

قبل أن تغادر البيت، نظرت إلى وجهها في المرآة. شعرت بالبهجة، لأنّ لها هذا الوجه الصبوح. حملت معها الزوّادة والمنجل وربطت قِرْبة مملوءة بالماء على ظهرها، ومضت غير آبهة بنساء العائلة الجالسات أمام البيت يتسقّطن الأخبار ويطلقن الشائعات.

طرحت عليهنّ السلام وظلّت ماضية في طريقها إلى الحقل، وكلمات أمّها لا تزال ترنّ في أذنيها: ديري بالك من مخالطة النسوان، خلّيك حذرة. وهي على قناعة من أنّ بعضهنّ ينطوين على مكر وخبث، ويمكنهنّ أن يورّطن ابنتها التي ما زالت صغيرة السن، في مسالك غير لائقة. سمعت كلام أمّها واعتبرته نصيحة ثمينة.

اقتربت من الحقل وظلّها يتبعها فشعرت باطمئنان وهي تمشي وتلتفت إليه. وجدت زوجها وعددًا من الحصّادين من أبناء العشيرة منهمكين في أعمال الحصاد وهم يغنّون. ولم يكن معهم من النساء سوى صفيّة ومهيرة اللتين كانتا تحصدان وتستمعان لأغاني الرجال. انضمّت إليهما وراحت تحصد القمح وهي تتأمّل سيقانه الجافّة الصفراء.

اقترب منها زوجها وقال لها ولمن معها: الله يعطيكن العافية.

رددن معًا: الله يعافيك.

أسندت وضحاء ظهرها ووقفت، وشعرت ببعض الوهن يدبّ في جسدها، إلا أنها لم تفصح عن شيء. اقترح المختار على الجميع أن يتناولوا طعام الفطور. جلس الرجال تحت شجرة تين في طرف الحقل، وجلست وضحاء وصفيّة ومهيرة تحت شجرة زيتون في طرف الحقل الآخر. خيّم الصمت أثناء تناول الطعام. فجأة، شعرت وضحاء بأنّ لديها رغبة في القيء. أسرعت إلى زاوية الحقل وتقيّأت.

اقترب منّان منها وسألها عن حالها، وقال: يمكن هذا برد الصيف.

– ما أدري.

اقترح عليها أن تعود إلى البيت. وطلب من مهيرة أن ترافقها. غادرت وضحاء ومهيرة الحقل. زارتها أمّها وكانت ما زالت تتقيّأ كلّ طعام تأكله. لم يغب السبب عن بال مرجانة، إلا أنها لم ترغب في التسرّع كي لا تتعرّض هي وابنتها لشماتة النساء. وحينما أيقنت أنّ دورتها الشهريّة تجاوزت موعدها، همست في أذنها: أنت حبلى.

فوجئت وضحاء، وبدت مدهوشة كأنّها لا تصدّق ما قالته أمّها. نظرت مرجانة في عينيها، قبّلتها على جبينها وقالت: ما تخبري أيّ أحد حتى تتأكّدي من كلّ شي.

طاش رأس وضحاء من النشوة. تذكّرت ما قيل عن عشق مهيرة للقمر. مهيرة أخبرتها أنّ الأمر ليس عشقًا، وما هو إلا تعلّق بالجمال الذي خلقه الله. انتبهت وضحاء إلى أنّ على الأرض وفي السماء مصادر للجمال لا تنضب، وهذه نعم لا ينبغي التفريط فيها أو تجاهلها. صارت

ترنو كلّ ليلة إلى القمر حينما يظهر متلألئًا في السماء، تتأمّله بشغف لعلّ طفلها الذي في بطنها يحظى بجمال يحاكي جمال القمر، ولا تكفّ عن تأمّله إلا حينما يناديها المختار لكي تعود إلى داخل الدار.

ورغم ابتهاج المختار بحمل وضحاء إلا أنّ حياته لم تعد تسير سيرها المعتاد. صار قلبه ينجرح من أبسط كلمة، وخصوصًا حينما يسمع النساء وهن يعيّرن بناتهنّ كلّما عاندنهنّ أو خرجن إلى الدروب صائحات فيهن: إن شاء الله تنخطفن مثل فلحة.

بعض النساء كن يعبّرن عن نزعة عنصريّة غير واعية، والواحدة منهنّ تقول لابنتها: عبد اسمر يخطفك ان شاء الله. ثم تكرّر التذكير بمصير فلحة بعد هروبها مع بائع الحلاوة. وكلّما سمع المختار أيّ تصريح أو تلميح له علاقة بابنته، اصفرّ وجهه واضطرب صوته وتلثّم بكوفيته وطأطأ رأسه، وظلّ على هذا الحال حتى عادت مثيلة من الحجّ فوق جمل مرهق، فلم تخفّ معاناته بل ازدادت، كما لو أنّ حضور الأمّ ابتعث معه سيرة الابنة، وحينما علمت مثيلة بالأمر تزلزل كيانها ولم يبتهج قلبها لشيء مما حولها. اعتكفت في بيتها شهورًا مضنية، وأكثرت من الصلاة ومن طلب العفو والمغفرة.

كانت صبحاء في تلك الأثناء تشغل نفسها بأخبار متناثرة من هنا وهناك، ترويها لابنها لعلّها تخفّف من قلقه، وتسلّي نفسها بها في الليالي الطوال. وحينما ورد اسم وضحاء على لسان زوجها المختار تذكّرت صبحاء مرجانة أمّ وضحاء، ووجدت الفرصة سانحة للتعاطف معها ولسرد معاناتها: الله يكون في عونها مرجانة، قدّيش شافت مهانة على يديه.

– من هو؟

– عبد الهادي، والد زوجتك وضحا، الله لا يهديه. مرجانة تعجن في الليل وتخبز في النهار. تحلب النعاج قبل طلوع الشمس وبعد غياب الشمس. وفي وقت البذار والحراث، مرجانة رايحة جاية بين الحقل والبيت، تحمل لعبد الهادي الفطور وتحمل له الغدا. وفي الربيع، تقلع العشب من بين الزرع، وفي الصيف هي اللي لازم تحصد الزرع. ولازم تجزّ صوف النعاج وتقصّ شعر المعزى. تنظف الصوف والشعر وتغسله وتنشّفه وبعدين تغزله، وتدقّ الأوتاد في الأرض وتنسج البسط. ولازم تحمل على ظهرها صفائح الجبنة وتروح للمدينة، تبيعها وتسلّم ثمنها لعبد الهادي. وعبد الهادي لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب. كلّ يوم، المسبّات والشتايم مثل زخّات المطر على راس مرجانة، وأقلّ غلطة من مرجانة يا ويلها ويا حسرتها، يضربها ضرب اللطّامات. ولما الدنيا تليّل والقمر يطلع في السما، عبد الهادي يصير مثل تيس الغنم الهدود، يتلفّت ناحيتها ويبرم شاربيه ويقول: يا مرجانة، اشطفي بدنك من زنخة النعاج وتعالي لي. ييه! يا ويلي عليك يا مرجانة.

يبتسم منّان وهو يستمع إلى كلام أمّه، يجاملها ببضع كلمات، تترضّى عليه، ثم يغادرها ولا يعلَق في ذاكرته شيء من معاناة مرجانة، لأنّه مهموم بقضايا أكبر يفصح عنها حينًا ولا يفصح عنها حينًا آخر. كان عثمان أحضر معه من المدينة خبرًا مفزعًا عن استشهاد الشيخ عزّ الدين القسّام وهو يقاتل عسكر الانكليز في أحراش يعبد. لم يكن منّان سمع باسم هذا الشيخ من قبل، عثمان أكّد له أنّه أقام في حيفا ودعا إلى الثورة وهو يؤمّ الناس في جامع الاستقلال، وانضمّت إليه جمهرة من الفلاحين الفلسطينيين. عسكر الانكليز حاصروه هو

وأنصاره في الأحراش واشتبكوا معهم وأنزلوا بهم هزيمة قاسية، ويوم استشهاده كان باعثًا على الحزن في كلّ أنحاء البلاد.

ولم تسمع مرجانة من قبل بعزّ الدين القسّام، ولم تتوقّف عند خبر استشهاده إلا لحظات. واصلت حياتها محتملة البؤس والشقاء، لم تكن تتذمّر ولا تتشكّى، ولم تكن تنتظر عطفًا من أحد. علّمتها الحياة أن تحتمل أحزانها وآلامها وتداريها. وفي أحيان نادرة، وعلى غير توقّع منها، كان قلب عبد الهادي يرقّ لها، فتحدث له ولها مفارقات يتداولها أهل راس النبع في ليالي السمر باستمتاع.

إحدى هذه المفارقات وقعت وهما يحصدان الكرسنّة التي تقدّمها مرجانة طعامًا للماعز وللنعاج. الشمس ساطعة، وثمة هواء ساخن يهبّ على الوجوه، وعبد الهادي يكدّس الكرسنّة في البيدر، ومرجانة تجلس تحت ظلّ شجرة، تفرم البندورة والخيار والفلفل الحارّ، ولا تشغل نفسها كثيرًا بهموم الدنيا، فهي معتادة على الهموم. انتهت من إعداد السلَطَة، وسكبت في صحن مقدارًا من اللبن، وقطعت أقراصًا من الجبن وبعض المخلّلات، ونادت زوجها: عبد الهادي. هيا عبد الهادي.

كان مشغولاً بتمهيد مرقد في وسط كوم الكرسنّة. رفع رأسه نحوها وقال: أنا جاي يا مرجانة... جاي.

جلس بالقرب منها وراحا يأكلان الطعام، وأمام كلّ منهما قرن فلفل حار. حين شبعا قال لها بصوت حنون: مرجانة، لو تعرفين شو عملت لك في الكرسنّة!

– شو عملت يا عبد الهادي؟

احتدمت مشاعره. نهض وقبض على يدها، وقال: تعالي معي، تعالي.

نهضت مرجانة ومشت معه. حينما وصلا كوم الكرسنّة، أشار إلى المرقد الذي هيّأه وقال: اشلحي ثوبك يا مرجانة، وتمدّدي.

شلحته، ونسيا نفسيهما في غمرة الانفعال. نسيا أنّ أيديهما مشبعة بأثر الفلفل الحرّاق، فلم يلبث أن انتقل إلى مناطق حسّاسة من جسديهما. وبعد أقلّ من عشر دقائق شاهدهما الحصّادون والحصّادات يركضان شبه عاريين إلى حيث وعاء الماء الذي كان جاثمًا تحت الشجرة.

ارتبكت مرجانة وتولاها الخجل لأيّام وأسابيع، لكنّها اقتنعت بأنّ علاقتها بزوجها لا تخلو من لحظات أنس ومسرّة. تقول لنفسها وهي مستمتعة بتلك اللحظات: بَس، لو انه يخفّف من الزعل والمسبّات!

وذات صباح بكى عبد الهادي. بكى وسالت دموعه على خدّيه مثل طفل. كانت إحدى العنزات تلد ما في بطنها. تعسّرت ولادتها وحاول عبد الهادي مساعدتها، حاول أن يمدّ يده داخل بدنها فنفرت منه. قالت مرجانة وهي تضغط على بطن العنزة: الله العليم إن في بطنها جديْن. قال لها بصوت خاشع: اذكري الله يا مرجانة.

ظلّ عبد الهادي ومرجانة يحاولان مساعدة العنزة على الولادة وهي تثغو على نحو يثير الأسى في النفوس. عند اللحظة الحاسمة، خرج جدْيان من بطنها، وخرج رحمها بلونه الأحمر المريع معهما. وقف عبد الهادي مبهوتًا أمام المشهد ودموعه تسحّ من عينيه. حاولت مرجانة أن تعيد رحم العنزة إلى بطنها، فلم تستطع، ظلّت العنزة تتحرّك بنزق، ورحمها يتدلّى بين قائمتيها الخلفيّتين، ثم انشغلت عن معاناتها بالانتباه إلى الجدْيين. راحت تلحسهما بلسانها، لكي يقويا على النهوض. اقتربا من ثدييها، رضعا حليبها وهو تثغو.

أخيرًا، جازفت مرجانة وجمعت رحم العنزة بين كفّيها وأعادته بقوّة إلى داخل بطنها. تألّمت العنزة، وعبد الهادي يراقبها. أعجبته جسارة مرجانة. الجسارة التي لم يفكّر بممارستها، لاعتقاده أنّه لا يمكنه لمس رحم العنزة، احترامًا لما تجسّده من وفاء، فهي التي توفّر له ولأسرته الحليب الذي يصنع منه الجبن والزبدة والسمن، وهي التي تلد الجديان التي تكبر وتعيد دورة الحياة.

سكنت حركة العنزة، واضطجعت على الأرض، واعتقد عبد الهادي أنّها تتماثل للشفاء. بلّلت مرجانة خرقة بماء ساخن ووضعتها على بطنها لعلّها تساعدها، جمعت طرف ردنها الأسود وأشعلته بعود ثقاب، انتشر الدخان من طرف الردن المحروق، بخّرتها لاعتقادها أنّها تعرّضت للحسد. ظلّت العنزة تشيح برأسها بعيدًا من الدخان، ومرجانة تواصل تقريبه من أنفها، إلى أن قال لها عبد الهادي: يكفي يا مرجانة، يكفي.

لم تعد العنزة تثغو، ولم تعد تكترث للجدْيين اللذين يتمحّكان بها وهي مشغولة عنهما بحالها، أو كأنّها تؤجّل اهتمامها بهما إلى وقت آخر. كانت تنطفئ ويعروها الوهن والذبول.

بعد غروب الشمس، ماتت وبكى عبد الهادي، وبكت مرجانة.

❖ ❖ ❖

عاد عبّاس من المدينة وقال بلهجة تنمّ عن الشكّ في المستقبل واحتمالاته المتأرجحة: أغلقنا الحوانيت، والأسواق ما ظل فيها ناس.

ذهل منّان وأبناء العشيرة لتواتر الأخبار، وعرف عثمان أنّ كلّ القوى السياسيّة والأحزاب توحّدت رغم خلافاتها السابقة، في الهيئة

العربيّة العليا، بقيادة الحاج أمين الحسيني، وتكاثرت دوريّات عسكر الانكليز بعضها فوق الخيول، وبعضها الآخر في كتل صمّاء من الحديد المصفّح فوق عجلات تثير غبارًا كثيفًا في الطريق الترابيّة التي تصل القرية بالمدينة. واستبدّ بالناس قائد شرطة القدس الانكليزي آلن سيكرست، وألحق بهم إهانات لا يمكن السكوت عليها، فكمن له اثنان من شباب المدينة وأردياه قتيلاً. كان أحدهما، سامي الأنصاري، أصيب إصابات بالغة من رصاص أطلقه عليه مرافق القائد، ولم يلبث أن فارق الحياة، والثاني، بهجت أبو غربيّة، ظلّ أمره مكتومًا، ولم تعرف اسمه سوى دائرة ضيّقة من الثوّار. ردّد الفتية في أزقّة المدينة وردّد الكبار:

سيكْرس مات سيكْرس مات
وفي راسه سبع رصاصات

وبسبب الأوضاع المستجدّة في البلاد، بدا الخوف على نساء كثيرات في راس النبع. اعتقدن أنّ سكناهنّ على مقربة من المدينة ستجعل حياتهنّ وحياة أزواجهنّ وأولادهنّ عرضة للأخطار. تذكّرن البرّيّة واستعدن تفاصيل الحياة فيها، وقلن لو أنّهنّ بقين هناك لكُنّ أقلّ خوفًا. ثم خطرت ببالهنّ مداهمات عسكر الانكليز لمضارب العشيرة، فأدركن أنّ الخطر يتربّص بالجميع في كلّ مكان، وعلّقت صبحاء على هذا الأمر قائلة: وين ما ضربت الاقرع سايل دمه.

وتذكّرت كلام زوجها الشيخ محمّد قبل أن يموت، كان الشيخ قلقًا على مصير البلاد منذ أن رأت عيناه عسكر الانكليز، فاتّخذت صبحاء من ذلك حجّة لسرد الحكايات، والنساء يصغين لها من باب

التودّد والاحترام، حكايات عن البرّيّة وعن حياة العشيرة فيها، قبل أن يدخل الانكليز فلسطين وبعد دخولهم إليها.

في الليل، رأت فرس العائلة وهي تصهل في هياج، حاولت الاقتراب منها، نفضت رأسها عاليًا ومضت مبتعدة. ركضت خلفها ولم تدركها. استيقظت من نومها في الصباح وتذكّرت حلمها، تذكّرت الفرس وترحّمت عليها وأيقنت أنّ رؤيتها في المنام لم تكن من دون سبب. استعرضت في ذهنها أشياء كثيرة، ثم أعياها الاستعراض، فالهموم كثيرة والمشكلات أكثر من أن تحصيها، سلّمت الأمر لربّ العباد وتمنّت الخير لعائلة العبد اللات ولكلّ الناس الطيّبين.

وتوطّدت علاقة عبّاس بالثورة حينما التقى الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس والديار الفلسطينيّة، قبل أن يختفي ويغادر البلاد بسبب مطاردة الانكليز له. أخذ عبّاس يتباهى بين الناس كيف أنّه سلّم على المفتي، وتبادل معه بضع كلمات. كان عبّاس يسترسل في الحديث وهو يصف طلعة القائد العام وعمامته البيضاء كالثلج، ثم يقول: قلبه أبيض مثل عمامته.

ولم يكن عبّاس هو الوحيد الذي قابل المفتي. قابله أيضًا المختار منّان، ولم يستفض في الحديث عن تلك المقابلة، لأنّه ظلّ ميّالاً إلى التكتّم. انخرط في الثورة بالقدر الذي يستطيعه، وجنّد في صفوفها عددًا من أبناء عشيرته. واعتقد أنّه حينما قابل المفتي، فسوف يزداد حماسة لمواصلة الانخراط في الثورة، إلا أنّه فوجئ بحديث المفتي الغامض، فلم يجد سوى عبّاس لمكاشفته بانطباعاته المؤسفة.

هزّ عباس رأسه وابتسم للتدليل على بعد نظره وقال لأخيه: هذي بسيطة يا مختار.

ثم طمأنه إلى أنّه يحقّ لقائد الثورة اللجوء إلى الغموض والمناورة لتجنيب البلاد مزيدًا من المخاطر والأعباء، فاطمأنّ المختار زمنًا، ثم عادت إليه الوساوس تنهش صدره وهو يتذكّر التصريحات الملتوية حول النوايا الحسنة لصديقة العرب بريطانيا، فأدرك وهو يتلمّس صدغه أنّ الثورة قد تدخل في مأزق، فانتابه همٌّ وغمّ، وقال لمن حوله ذات مساء: أخبار البلاد تحيّر يا ناس، وتقلب الراس.

هزّ بعض الرجال رؤوسهم وقالوا: صحيح، تقلب الراس.

أخبرهم عثمان عن شاعر اسمه عبد الكريم الكرمي، قال إنّه لم يكن راضيًا عن وقف الإضراب اعتمادًا على وعود بريطانيا، فكتب قصيدة هجا فيها الحكّام العرب، وحرّض الناس على الثورة، ثم ردّد عثمان على أسماعهم بعض ما حفظه من هذه القصيدة التي يتناقلها المتعلّمون في المدينة:

انشر على لهب القصيد/ شكوى العبيد إلى العبيد
شكوى يردّدها الزمان/ غدًا إلى الأبد الأبيد
سحقًا لمن لا يعرفون/ سوى التعلّل بالوعود .

أعجب منّان بما سمعه، وأخفى عبّاس امتعاضه لأنّه لا يستطيع حفظ الشعر مثلما يحفظه عثمان.

وذات مساء، جاءت درّاجة ناريّة إلى قرية راس النبع يركبها المستر جون وخلفه امرأة شقراء يلتفّ ذراعاها على خاصرتيه، ويتطاير فستانها عن فخذيها مع كلّ هبّة ريح. توغّلت الدرّاجة في طريق القرية واقتربت من حافّة الحقول. دُهش الأولاد المتناثرون في الطريق لمنظر الدرّاجة التي تسير على عجلتين ويصدر عنها ضجيج حاد، فتجمهروا معًا ولحقوا بها من غير اكتراث للضجيج، وهم يتصايحون.

توقّفت الدرّاجة وترجّل عنها المستر جون ومسدّسه يتدلّى من خصره. كان وجهه أحمر مثل قفا السعدان كما قال أحد الأولاد، وبعد لحظة ترجّلت المرأة عن الدرّاجة وعدّلت فستانها فوق جسدها، وهي تبتسم بحبور. أبدى الأولاد إعجابهم بها ورفعوا أيديهم مقدّمين التحيّة لها، فبادلتهم تحيّاتهم بتحيّة من يدها. قال لهم الضابط بلهجة آمرة: امشوا من هنا.

حينما لم يتزحزح الأولاد من أمكنتهم، صّوب المستر جون مسدّسه نحوهم، فيما ظلّت الابتسامة مرتسمة على وجه المرأة. هرب الأولاد مبتعدين، ومضت الدرّاجة مسافة أخرى، وترجّل عنها الضابط والمرأة بعد أن وضعناها عند حافّة الطريق، وراحا يمشيان في بستان مملوء بأشجار التين والعنب والمشمس واللوز والزيتون. اقتربا من جذع شجرة، والأولاد واصلوا التلصّص عليهما من مسافة ما. رأوا المرأة وهي تستند إلى جذع الشجرة وترفع فستانها إلى أعلى والضابط يلتصق بها، وهم يتصايحون ويعبّرون عن استغرابهم، والضابط لا يقيم وزنًا لصيحات الأولاد. وحينما انتهى كلّ شيء أطلق من مسدسه طلقة في الفضاء، فانفضّ الأولاد من المكان سريعًا، وعاد الضابط والمرأة إلى الدرّاجة التي انطلقت بهما نحو البعيد.

في المساء، لم يكن لأهل راس النبع من حديث سوى تلك الزيارة. أمضوا وقتًا غير قليل وهم يحلّلون دوافعها وأسبابها القريبة والبعيدة، هذا إن كانت لها أسباب قريبة أو بعيدة. إذ ربّما كانت مجرّد نزوة لضابط انكليزي مأخوذ بسحر الشرق، أو ربّما كان الضابط وصديقته يقصدان مكانًا فوجدا أنّهما اقتربا من مكان آخر، فلم يتردّدا عن اقتناص المتعة بين أشجار هذا المكان. قال عباس معلّقًا: توقّعوا زيارات أخرى مثل هذي.

بعد لحظة أضاف: في المدينة، تحدث العجايب والعياذ بالله.

سأله المختار: عجايب من مين يا عباس؟

– من عسكر الانكليز ومعهم نسوان داشرات.

– عربيّات يا عبّاس والا يهوديّات؟

– من كلّ الأجناس يا مختار.

في الصباح التالي، لم تكن وضحاء تتوقّع قدومهم، إلا أنّهم جاءوا. جاء شحّاذو الجبل: ثلاثة رجال وامرأة، ومعهم قرد يتقافز هنا وهناك، وبغلة هرمة يضعون على ظهرها ما جمعوه من طحين وخبز وتمر وملابس قديمة. مرّوا على البيوت بيتًا بيتًا، وأمام كلّ بيت كانت تترنّم حناجرهم بمدائح لأهل البيت. يسألون الجيران، من باب الحصافة والذكاء، عن اسم صاحب البيت واسم صاحبته وبعض الأسرار: من مات ومن ولد، من تزوّجت ومن توشك أن تلد. تتجمّع لديهم المعلومات بالمجان ويحتفظون بها إلى أن تحين اللحظة المناسبة.

وصلوا بيت وضحاء. دقّوا على الباب، وكانت أغلقته خلفها منذ أن غادرها زوجها إلى المدينة، توخّيًا للحذر. نادى أحد الشحّاذين بصوته الخشن: افتحي يا وضحا، لنسمعك أحلى كلام.

ارتفعت أصوات الشحّاذين بإنشاد المدائح للمختار منّان، وبدت وضحاء مستغربة كيف عرفوا اسمها واسم زوجها! أطلّت من خلف الشباك ورأتهم. اطمأنّت قليلاً حينما رأت معهم امرأة، إلا أنّها اشمأزّت من منظر القرد، وخافت على الجنين الذي في بطنها. إذ قد تتأثّر بمنظر القرد فينتقل هذا التأثّر إلى وجه الجنين أو إلى بعض أجزاء جسده. فقرّرت ألا تفتح لهم الباب. راحت المرأة تنادي: افتحي يا وضحا، لنبارك لك بالطفل اللي في بِطنك.

دهشت من كلام المرأة، ولم تخطر ببالها حيل هؤلاء الشحّاذين. ولم تكن تعرف شيئًا عن أساليبهم في استدرار عطف الناس. اضطرّت إلى فتح الباب أمام لطرَقَات التي لم تتوقّف والمدائح التي ازدادت وتيرتها. سلّمت عليها المرأة، وقالت وهي تتحسّس بطنها بباطن كفّها: ولد إن شاء الله، تلدين الولد، ونزورك لتعطينا الحلوى.

أزاحت كفّ المرأة عن بطنها، وقبل أن تتفوّه بأيّة كلمة، قال أحد الرجال للقرد: سلّم على وضحا ست الحسن والجمال.

مدّ القرد قائمته الأماميّة وعيناه تبرقان في كلّ اتجاه. خافت وضحاء وابتعدت قليلاً. قال الرجل: لا تخافي، مدّي يدك.

لم تمدّ يدها، وقال الرجل للقرد: ارقص لوضحا رقصة العروس في ليلة زفّتها.

رقص القرد، ولم تواصل وضحاء الفرجة. غابت قليلاً داخل البيت، وعادت وهي تحمل صحنًا فيه طحين وثلاثة أرغفة. قالت المرأة وهي تأخذ الطحين والخبز: بحياة الغالي على قلبك، قليل من التمر.

أحضرت صحنًا فيه تمر، فانصرف الشحّاذون وهم يتمنّون لها حياة سعيدة. هدأت مخاوفها وهم يبتعدون ومعهم قردهم.

اقتربوا من بيت مهيوبة. حينما سألوا عن اسم زوجها قيل لهم إنّه علي حسّان عبد الله. فهذا هو اسمه أمام الحكومة وأمام الأشخاص الذين يأتون إلى القرية ولا يعرفهم أهلها. ترنّم الشحّاذون باسم علي حسّان عبد الله، وابتهلوا إلى الله أن يرزق مهيوبة سبعة أولاد وسبع بنات، لم تكترث مهيوبة لدعائهم. انتظرت طويلاً ولم تحبل ولم تنجب ولدًا واحدًا. أعطتهم طحينًا وخبزًا وبعض ملابس قديمة، ولم يكن لديها مزاج لتواصل الحديث معهم.

فهي لم تعد تطيق الانتظار، إذ مرّت ثماني عشرة سنة منذ زُفَّت إلى علي أوغلو، ولم يرزقا بولد. لم يُظهر زوجها أيّ تذمّر، وظلّ حبّه لها يزداد ألقًا كما لو أنّهما زُفّا إلى بعضهما بعضًا قبل أيّام. منحها كثيرًا من عواطفه ودلّلها، ومنحته كثيرًا من عواطفها ودلّلته. ولأنّها تحبّه، قرّرت بعد تردّد طويل أن تحضّه على الزواج بامرأة أخرى. قالت له ذات ليلة وهي نائمة إلى جواره: لازم تتزوّج.

فوجئ بكلامها ولم يصدّق أذنيه: أتزوّج؟

– نعم، تتزوّج امرأة ثانية يكون لك منها ولد.

لم يقتنع بكلام الفتّاحين الذين ذهبت إليهم زوجته. كتبوا لها حُجُبًا ووصفوا لها وصفات، ولم تنجح الحُجُب والوصفات في تمكينها من الحمل وإنجاب ولد. أخيرًا، أقنعها بالذهاب إلى طبيب في المدينة، أجرى لها وله فحوصًا، اتّضح منها أنّها عاقر. احتمل على أوغلو النتيجة، وبذل كلّ جهد مستطاع للتخفيف من أثر الصدمة على زوجته، فضاعف من حبّه لها ومن تدليلها ومنحها كلّ ما هي جديرة به من عواطف وأحاسيس، وها هو يسمعها الليلة تقترح عليه أن يتزوّج بامرأة أخرى. ولا يدري كيف طافت بذهنه في تلك اللحظة صورة سعديّة. سعديّة التي لم تهنأ في حياتها ولم تظفر بزوج ثم غرقت في الماء. كان لسعديّة جسد أحبّه علي أوغلو، رغم حرصها على إخفائه تحت الثوب الفضفاض. عيناه الخبيرتان كانتا قادرتين على استشفاف ما تحت الثوب من ثراء. وكانت سعديّة تبادل علي أوغلو نظرات حانية ما جعله يفكّر فيها رغم خشيته من غضب مهيوبة. ماتت سعديّة ولم تعرف مهيوبة بما كان بينه وبينها من مشاعر حميمة ونظرات، وهي الآن تعرض عليه الزواج.

قال لها: ما أقدر اجرح شعورك.

– انت ما تجرح شعوري، وانا من وقت عيّنت لك العروس.

– من هي؟

– ربيحة، من يوم ما شفتها في الحمّام قلت هذي هي العروس.

احتضنها بشغف، واحتضنته بشغف.

وفي الصباح، اصطحبها معه إلى المدينة، بعد أيّام من انتهاء الإضراب لذي دام ستّة شهور. دخلا المدينة وكان التهيّب يطبع بطابعه حركة الناس، وكان علي أوغلو راغبًا في إدخال البهجة إلى قلب مهيوبة، قال لها: هذا اليوم يومك، اطلبي كلّ ما تريدين.

ابتسمت وقالت: أريد كلّ الملابس اللي في المدينة.

قال وهو مستمتع بكلامها: أشتري لك ايّاها كلها.

وقال إنّه سيخلّد حبّه لها في صورة ستظلّ شاهدة على هذا الحب.

حدّثها وهما يسيران في الطريق إلى محلّ التصوير، عن عائلة سارويان التي غادرت منطقة الحدود التركيّة لعلّها تبتعد عن خطر الحروب، وجاءت إلى القرية التي تقيم فيها عائلته. نشأت صداقة بين العائلتين، وأحد أبناء تلك العائلة، كرابيد سارويان، كان زميله في المدرسة. كانا يدخّنان السجاير معًا، ويركبان حمير القرية معًا، وينتظران البنات الذاهبات إلى عين الماء معًا. ثم تأزّمت الأوضاع، وأصبح الأرمن غير آمنين على أنفسهم. هربت عائلة سارويان من القرية. حاولت عائلة أوغلو استبقاءها وتطمينها إلى أنها ستقوم بحمايتها، إلا ان كبير عائلة سارويان لم يطمئنّ لفكرة البقاء قريبًا من الخطر. هاجر هو وعائلته إلى مكان مجهول، ولم يعد علي أوغلو يعرف شيئًا عن صديقه كرابيد سارويان. والآن ها هو ذا يأتي هو وزوجته إلى

محلّ التصوير الذي يملكه آل كريكوريان. يأتيْ ويتَذكّر صديقه الذي لم يعد يراه، ولا يعرف شيئًا عن حياته في منفاه.

تهيّبت مهيوبة واعترتها مشاعر غامضة، وبدت حائرة تجاه ما يحدث في هذا العالم من قلاقل وصراعات، ولولا خشيتها من جرح مشاعر زوجها لتساءلت كيف يمكن للإنسان أن يحيا بعيدًا من بلاده ومن أهله وأقاربه، لكنّها لم تسأل لأنّ هذا السؤال يمسّ زوجها في الصميم، وهي تعرف أنّه حينما يتذكّر أهله تأخذه الأحزان بعيدًا وتسيطر عليه، لولا تدخّلها في الوقت المناسب فتقوم بكلّ جهد ممكن لتقصي عنه الأحزان.

ولم تواصل تأمّلاتها كي لا تلفت نظره إلى ما تفكّر فيه فتعكّر صفوه. ذهبت معه إلى باب الخليل، ودخلا محلّ المصوّر كريكوريان. نظرت نحو جدران المحلّ ورأت صور نساء جميلات بعيون ناعسة مع رجال معتدّين بأنفسهم، وهم بملابس أنيقة ولهم عيون صارمة. خجلت مهيوبة، وشعرت كما لو أنّ الرجال الواقفين إلى جوار النساء، نسوا نساءهم وانصرفوا إلى التحديق فيها بلا حياء، فغضّت طرفها خجلاً، وقال لها زوجها وهو يشير إلى الرجال والنساء: نتصوّر أنا وأنت مثلهم.

أدخلهما المصوّر إلى غرفة تجلّل جدرانها ستائر بنّيّة وأخرى بيضاء. تصاعدت الدهشة في قلب مهيوبة، ولم تكن مثل هذه التجربة لتخطر ببالها من قبل. خلعْ علي أوغلو كوفيّته وعقاله وراح يمشّط شعره بمشط مركون أمام مرآة. قال لزوجته: اخلعي منديلك ومشّطي شعرك.

تردّدت قليلاً، ثم خلعت منديلها وانسدل شعرها مثل شلال على صدرها وكتفيها. مشّطته بعناية، ونظرت نحو صورتها في المرآة

فارتاحت نفسها وأشرق وجهها. دخل المصوّر واتّخذ موقعه خلف آلة التصوير، ووقف علي أوغلو إلى جوار زوجته. طلب منه المصوّر أن يطوّق كتفيها بذراعه، فلم يتوانَ عن احتضانها. شعرت بالخجل ورمت رأسها نحو الأرض. نظر المصوّر عبر عدسة الكاميرا، ثم رفع رأسه وقال لها: ارفعي راس... ارفعي راس.

رفعت رأسها، وقال لعلي أوغلو وهو يشير إلى آلة التصوير: ابتسم وانظر إلى كاميرا.

ابتسم علي أوغلو ونظر إلى آلة التصوير. وقال المصوّر لمهيوبة: ابتسمي من فضلك، ابتسمي.

التقط لهما المصوّر كريكوريان صورة ستتحدّث عنها العائلة كثيرًا، وستبقى دليلاً على حبّ لم يفتر لسنوات.

بعد الصورة، ذهبا إلى سوق العطّارين. دخلا إليها من باب الخليل، كانت حركة السيارات تختلط بحركة الناس الراكبين خيولهم والراجلين. وكان أصحاب الحوانيت يعرضون بضائعهم، كأنمّا للتعويض عن أيّام الإضراب الطويل. وبين الحين والآخر كانت تظهر دوريّة لعسكر الانكليز، تنظر إليها مهيوبة بوجل وارتعاش. كانت تخشى على زوجها من الاعتقال. الخشية نفسها كانت تخامر علي أوغلو، ثم يقصيها من ذهنه وهو يمشي إلى جوار زوجته في أسواق المدينة.

اتّجها نحو الحانوت الواقع في أوّل سوق العطّارين. ولم تكن تلك هي المرّة الأولى التي تدخل فيها مهيوبة هذا الحانوت، ولم تشأ أن تشتري ثوبًا جاهزًا. اشترت قماشًا لتخيط منه ثوبًا مطرّزًا، واشترت شلحات داخلية وسراويل، وعلي أوغلو واقف بالقرب منها يتأمّلها في حبور، وصاحب الحانوت يقبض النقود من زوجها وهو يحرّك شفتيه الشبيهتين بشفتي أرنب، ويسبّح بحمد الله بصوت مسموع.

بعد الحانوت، ذهبا إلى مطعم في طريق الـواد، ومهيوبة مستمتعة بصحبة زوجها، وطقس الخريف المعتدل يضفي عليهما مزيدًا من مشاعر الحبّ. ومهيوبة تدرك بالدليل القاطع كم هي معزّزة مكرّمة عند زوجها! وكم هو معنيّ بإدخال البهجة إلى قلبها! تناولا طعام الغداء. وكان لهما يوم ممتع في المدينة.

* * *

أحضر الصورة، وكانت محفوظة في إطار من خشب بنّيّ اللون. تأمّلتها مهيوبة بارتياح. دقّقت النظر في صورة وجهها وعينيها وشعرها المنسدل على صدرها. دقّقت النظر في ثوبها المطرّز الذي ينساب على جسدها، فيختلط سواده ببياض الوجه واليدين، وتمتدّ خيوط التطريز بألوانها المتعدّدة مثل جداول على الجانبين. حدّقت في صورة زوجها الواقف بجوارها وهو يطوّقها بذراعه. أمعنت النظر في الشاربين الكثّين وفي العينين الزرقاوين. تأملت جسده الطويل، وكادت تهوي على الصورة بشفتيها تشبعها تقبيلاً لولا أنّه خلّصها من بين يديها وثبّتها بمسمار على الحائط.

ظلّت ترمق الصورة من مسافة ما، ولم تلبث نساء العائلة أن اجتحن الدار ومعهنّ حشد من الأولاد. خرج علي أوغلو من الدار كي يعطي النساء فرصة للنظر إلى الصورة وللتعليق عليها. وقفن أمام الصورة ورحن يبدين إعجابهنّ بها. قالت لها وضحاء: والله انّك مزيونة.

وقالت فطّومة: نصيبك في علي أوغلو، كلّه ذوق وكرم.

اعتقدت بعض النسوة أنّ فطومة تلمّح إلى بخل زوجها عامر، وحينما انتبهت إلى نظراتهنّ بادرت إلىَ الدفاع عن زوجها وأسهبت في

ذكر صفاته النبيلة، فلم تواصل النسوة الإصغاء إليها لأنّهنّ انهمكن في تأمّل الصورة. وبدت مهيوبة في غاية السرور، قدّمت الشكر لوضحاء ولفطّومة، وأصغت لمزيد من التعليقات. فوجئت وهي تستمع لنساء أخريات تبرّمن وقلن كلامًا لم يرقها. قالت صبحاء في لهجة تأنيب: - شالحة عن راسك يا مهيوبة!

ردّت في هدوء: علي قال لي اشلحي المنديل وشلحته.

– يا عيبك ويا عيبه!

– يا امرأة أبي، ما صار شيء.

– لا، صار وصار، والصورة هذي تقول للناس شو صار.

سكتت مهيوبة على مضض، وقالت صفيّة: والله إن التصوير حرام، هذا كلام ابني محمّد.

ردّت عليها مهيوبة وهي تكتم غضبها: التصوير ما هو حرام.

خرجت صبحاء من بيت مهيوبة من غير كلام، ما يدلّل على غضبها واستيائها. وتوالت تعليقات النساء، ووجدت مهيوبة أنّ أفضل شيء هو عدم الردّ على التعليقات، فهي معجبة بالصورة، وهي تحبّها، وستظلّ تحبّها وتنظر إليها كلّ صباح. أمّها حليمة، ضرّة صبحاء، كانت هي الأخرى معجبة بالصورة، ولم تعجبها تعليقات النساء. والأطفال كذلك كانوا معجبين بها. ظلّوا يرمقونها بفضول إلى أن اجتذبتهم أمّهاتهم من أيديهم، ومضين بهم نحو الخارج وهنّ يحملن في أنفسهنّ مشاعر متضاربة، تراوحت بين الإعجاب والغيرة والاستياء والتذمّر والخوف من مجهول قادم من جهة ما.

ضحك علي أوغلو حينما روت له مهيوبة ما قالته النساء.

* * *

الليلة هي ليلة الحناء، وبعدها تحلّ ليلة الزفاف. نامت ربيحة في فراشها وعلى كفّيها طبقة رقيقة من حنّاء. راودتها في المنام أحلام شتّى. حلمت بأنّها ترقص أمام عريسها ويداها مكبّلتان إلى الوراء، تحاول أن تقبض على يد العريس لترقص معه، فلا تستطيع، تمدّ يدها نحو ضرّتها مهيوبة لكي ترقص معها، فلا تستطيع. تتذمّر وتبدي انزعاجها، ثم تنتبه إلى أنّ يديها طليقتان، تحرّكهما في كلّ اتجاه، تبحث عن عريسها لترقص معه فلا تجده. تتساءل: أين اختفى العريس؟ هي لا تدري أين اختفى. تبحث عن مهيوبة فتجدها على مقربة منها ويداها مكبّلتان خلف ظهرها. مهيوبة تبكي. تعاتبها ربيحة وتقول لها: تبكين في ليلة زفافي! تقول وهي تواصل البكاء: علي أوغلو تركنا وغادر البلاد. تبدو ربيحة مدهوشة غير مصدّقة ما تسمعه، فتصحو من نومها، تتلفّت حولها ولا تجد سوى العتمة التي تلفّ المكان. تغمض عينيها، وتعود إلى مواصلة النوم.

ربيحة هي زوجة علي أوغلو الثالثة. رقصت في ليلة زفافها، فخمّنت نسوة العائلة وهنّ يتابعن جسدها المطواع بأنّها ستكون امرأة ولودًا، وسوف تملأ بيت علي أوغلو بالأولاد. وقد غبطنها على الزواج به مثلما غبطن زريفة ومهيوبة من قبل. فما زال رغم كرّ السنين محتفظًا بوسامته وبقدر غير قليل من الفتوّة والشباب.

رقصت ربيحة، ورقصت مهيوبة التي ما زالت محتفظة برشاقتها، فهي لم تتجاوز الأربعين، ولولا أنّها لم تنجب لما اقترن علي أوغلو بامرأة أخرى. كان هذا الأمر واضحًا لأمّها ولأخيها المختار ولأخوتها الآخرين ولكلّ نساء العائلة، والدليل على رشاقتها هذا الرقص الذي ينطوي على متعة ودلال، يبديه جسد مهيوبة المتأوّد على وقع

الأغاني والزغاريد. رقصت وهي تخاطب زوجها وعروسه: ارقص يا علي. ارقصي يا ربيحة. الليلة ليلة فرحنا كلنا يا ناس.

رقص علي ورقصت ربيحة.

وستحبل ربيحة منذ ليلة الزفاف. تلد ولدًا يسمّيه أبوه سليمان. تلد ثلاثة أولاد آخرين.

وظلّت النساء يذكّرن ربيحة كلّما جلست معهن، بأنّ أمّها ولدتها ليلة هجوم الذئاب على أغنام الشيخ محمّد، وأنّ زوجها علي أوغلو كان أوّل من صحا على الذئاب. تبتسم وتقول: يعني وجهي وجه شر! تردّ عليها إحدى النساء: لا سمح الله.

تضحك ربيحة، وتتذكّر أنّ علي أوغلو يكبرها بسنوات كثيرة.

على أوغلو روى لربيحة تفاصيل تلك الليلة. كيف اقترب ذئب مخاتل وجعل الكلاب تنتبه إليه. هرّت الكلاب وكشّرت عن أنيابها ونبحت، وراحت تحفر التربة بمخالبها. ثم رأت الذئب وهو يضع ذيله بين قائمتيه الخلفيّتين ويولّي هاربًا. تشجّعت وتبعته نابحة وهي تركض خلفه بلا خوف أو ارتباك (هو لم يشاهد هذه التفاصيل، لكنّه توقّعها لكي تأخذ الحكاية حقّها من دون انتقاص).

كانت ستّة ذئاب أخرى تكمن في الجوار. هجمت على الحظيرة وراحت تبقر بطون الماعز. وعلي أوغلو يحلم بأنّه وقع في أيدي الانكليز، رآهم يتوعّدونه بلغة لا يفقهها وإنْ كان يدرك مغزاها، فانتفض بدنه واستيقظ. أرهف السمع وكانت الماعز تثغو. نهض من فراشه وملأ كفّيه بالحجارة وقذفها نحو الذئاب. ثم انتبه إلى الرجال الذين نهضوا من فراشهم وخرجوا حفاة، وبعض نساء العائلة كنّ يتصايحن ويصرخن. وفجأة، دوّت طلقة أطلقها منّان، فهربت الذئاب.

تشتبك في داخل ربيحة أحاسيس شتّى، يضمّها علي أوغلو إلى صدره ويخبرها أنّها كانت في تلك اللحظات تنزل من بطن أمّها وتصرخ صرختها الأولى، وأنّه كان محظوظًا منذ تلك الليلة.

تبتسم ربيحة ويتأكّد لديها مقدار ما ينطوي عليه علي أوغلو من حنان.

ولن تظلّ مهيوبة محافظة على توازنها الذي أبدته في أوقات سابقة. ستعروها مشاعر لم تتوقّعها من قبل. لن تعود قادرة على احتمال أن يكون زوجها في أحضان امرأة أخرى وهي تتقلّب في فراشها وحيدة. ستشعر بالندم لأنّها شجّعته على الزواج، وستدخل في صراع ضارٍ مع تقلّبات مزاجها، ستحاول احتمال الأمر قدر المستطاع، تتذكّر جدّتها مهيوبة، وتسعى جاهدة لتقليدها في قوّة الإرادة وفي الترفّع عن الغيرة وتدبير المكائد والإساءات. وسيحاول علي أوغلو مراعاة مشاعرها بقدر كبير من المرونة وسعة الحيلة والبراعة والقدرة على مواجهة تقلّبات الأمزجة وتضارب الرغبات.

❖ ❖ ❖

قال لها حينما أخبرته بما كان بينها وبين الشحّاذين: خذي حذرك منهم. قال: يسحرونك، وتختلط عليك الأمور، ويسرقون كلّ شيء في البيت.

خافت. تفقّدت ذهبها العثملّي المخبّأ في قعر صندوقها الذي تحفظ فيه ملابسها. وجدت الذهب هناك فاطمأنّت نفسها، وجلست تتسامر معه، تسأله عن المدينة، وهو يحدّثها عمّا فيها من بشر وشوارع وبنايات وأسواق، وعمّا يحدث فيها من إضرابات واحتجاجات ضدّ

عسكر الانكليز وضدّ اليهود القادمين إلى فلسطين من كلّ الجهات.

قالت له بدلال: خذني إلى المدينة.

سألها كما لو أنّه يشجّعها على مواصلة الكلام: شو بدّك تشوفين في المدينة؟

– أشوف كل شيء: الشوارع والأسواق والناس والعسكر.

– والعسكر كمان؟

– نعم العسكر، بدّي أقول لهم شو جايبكم عندنا؟

– يحطّونك في الحبس.

– لا ما يحطّوني في الحبس.

– أقول لك؟ أتركينا من العسكر، وخلّيني آخذك إلى المسجد الأقصى.

– موافقة، نصلّي في المسجد الأقصى.

– وآخذك للمطعم.

– موافقة، ولازم نتصوّر.

– موافق، نتصوّر.

لا يضجر منّان من كلامها، وهي لا تملّ من الكلام معه.

في الصباح، ذهبا إلى المدينة. رأت عسكر الانكليز في السيارات، ورأتهم يمشون في شوارع المدينة. ولم تر أيّ اختلاف بينهم وبين العسكر الذين يأتون إلى راس النبع. خافت قليلاً، والتصقت بزوجها وقال لها وهما يغذّان السير: لا تخافي.

مشت إلى جواره ولم تعد تنظر نحو العسكر.

وصلا باب الخليل وانعطفا نحو محلّ التصوير. شعرت بارتباك وهي تدخل المحل، وحينما حدّقِ فيها كريكوريان ارتبكت أكثر،

وكادت تغطّي وجهها بطرف منديلها. أشار المصوّر إلى غرفة في الداخل. اتّجها إليها. وقف منّان أمام المرآة وبرم شاربيه وعدّل حطّته وعقاله على رأسه، ونظر نحو وضحاء. قال لها محاولاً اختبار موقفها: اشلحي المنديل.

قالت بلا تردّد: ولا يمكن اشلحه.

سكت وهو مرتاح لقرارها. نظرت في المرآة، فأعجبها منظر وجهها الجميل. نظرت نحو زوجها عبر المرآة، وتبادلا ابتسامتين. دخل المصوّر: الكل جاهز؟

– الكل جاهز.

– انظرْ لعندي، انظري لعندي، ابتسمْ، ابتسمي مدام.

ابتسم منّان ونظر نحو آلة التصوير بعيني صقر، ونظرت وضحاء بعينين ناعستين، ثم مرّ بخاطرها ما تتوقّعه من كلام النساء وتعليقاتهنّ فغامت عيناها، وستظهر صورتها في ما بعد كما لو أنّها تلقّت لكمة على أنفها فجعلت نظرها زائغًا. ولم ينتظرها المصوّر إلى أن تعيد لابتسامتها إشراقتها، قال: واحد، اثنان، ثلاثة.

ثم ضغط على زرّ بيده اليمنى، وفرقع في فضاء الغرفة صوت آلة التصوير، ورفع المصوّر رأسه، وقال: الصورة بعد خمسة ايّام.

غادرا محلّ التصوير، وقالت وضحاء: اليوم، ما أروح لمحلّ الملابس والعطور.

– هذا أحسن. في يوم ثاني تروحين انت والنسوان.

وبعد لحظة صمت، قال: نمشي في المدينة، ولمّا يدركنا التعب نروح للمسجد، نجلس هناك لوقت الصلاة.

قالت: وبعد الصلاة، نروح للمطعم.

قضى منّان ووضحاء يومًا بهيجًا في المدينة، وستتحدّث وضحاء عن هذا اليوم، ستتحدّث عنه نساء العائلة، وسيكون لصبحاء كلام كثير، وخصوصًا بعد أن يحضر منّان الصورة من محلّ التصوير، وتتفرّج عليها صبحاء وبقيّة النساء.

9

عاد محمّد الكبير من يافا وقال: البلاد على كفّ عفريت.

كان يرتدي ملابس نظيفة، وبدت لهجته قريبة من لهجة أهل المدن، فاغتاظ المختار منّان منه، وداهمته الظنون بأنّ هذا الولد قد لا يكون من صلبه، ثم استغفر الله وهو يقصي هذا الخاطر من رأسه (تذكّر ما جرى بينه وبين فاطمة في الخلاء). سأله بصوت خافت وهو يكبت غضبه: وين كنت كل هذا الوقت؟

– في يافا.

– شو تعمل في يافا؟

– أشتغل.

– شو تشتغل؟

– أشتغل في مطعم.

– في مطعم والا في ماخور؟

– في مطعم.

– وين اليهودية اللي تزوّجتها؟

– ما تزوّجت يهودية.

– طيب اللي كنت عايش معها؟

– ما كنت عايش مع يهودية.

– وين الليرات اللي جمعتها من شغلك؟

– وضعتها في البنك.

– وين هو البنك؟

– في يافا.

– وليش ما أحضرتها معك؟

– أحضرها لَمّا أحتاجها.

– ما أصدّقك.

– إن صدّقت أو ما صدّقت، أنت حر.

غضب المختار. لم يتوقّع هذا الكلام الذي يدلّ على عدم اكتراث. قال له بصوت حاد: ارجع من مطرح ما جيت، ما أريد أشوفك في البيت.

وقف محمّد في مواجهة أبيه، حدجه بنظرة غريبة مربكة تستعصي على التفسير، أو يمكن الذهاب معها إلى تصوّرات لا يمكن لأب أن يتوقّعها من ابنه الذي من لحمه ودمه. تراجع الأب خطوات، بدا عليه التردّد والتحسّب من مفاجأة، ثم قال: اخرج من عندي، اخرج.

خرج محمّد الكبير وتذكّر أنّ أباه ضربه ذات مرّة وهو صغير. ضربه لأنّه ارتكب ذنبًا لا يستحقّ العقاب. رمى حجرًا وهو يلعب في المساء فأصاب عن غير قصد عنزة كانت متخلّفة عن القطيع الداخل إلى الحظيرة، تلوّت العنزة من الألم وصدر عنها ثغاء، تألّم محمّد لثغائها، وقبل أن يبدي اعتذارًا صفعه أبوه على وجهه صفعة آلمته. بكى ومضى مبتعدًا عن المضارب متوقّعًا أن يلحقه أبوه ويعيده إلى

البيت. ظلّ يمشي والعتمة تواصل انتشارها من حوله. وصل الوادي وجلس فوق صخرة هناك، وقرّر ألا يعود إلى البيت إلا إذا جاءه أحد يسترضيه. انتظر وكانت العتمة تُحكم قبضتها على كلّ شيء. وثمة ريح تلفح وجهه وتجعله غير قادر على الثبات في مكانه، ظلّ يتململ يسرة ويمنة لعلّ الوقت ينقضي. حدّق في الصخور الرابضة على مقربة منه، وتوهّم أنّها ليست سوى وحوش لن تلبث أن تنقضّ عليه، ولن يهبّ أحد من أهله لنجدته. خاف، واستبدّ به الخوف أكثر حينما سمع عواء ذئب آتٍ من مسافة ما. نزل عن الصخرة وعاد مسرعًا إلى البيت، ولم يسمع من أبيه كلمة تُطيّب خاطره، ظلّ عاتبًا عليه حتّى غلبه النعاس ونام.

• اتّجه إلى بيت مثيلة. فوجئت بدخوله عليها بعد غياب. استقبلته بمودّة، سلّم عليها وقبّل يدها. قالت له وهي تتأمّل جسده المرهق: قبل ما أحضّر لك الأكل، لازم تتحمّم.

هدأت نفسه بعد سماعه كلامها. كانت زوجة أبيه تعطف عليه كما لو أنّها أمّه التي ماتت قبل الأوان. وهو يستحم، راحت تعدّ له الطعام، وانداحت في ذهنها الذكريات. تذكّرت ضرّتها فاطمة، والشجارات التي كانت تنشب بينهما، ومن ثم مجيء وطفاء ضرّة ثالثة عليهما. كم كانت تلك الأيام حافلة بالمتاعب وأيضًا بالمسرّات! ترحّمت على فاطمة التي لم تعش حياتها كما ينبغي لها أن تعيشها، وترحّمت على وطفاء التي كانت تتشاجر معها هي الأخرى. كانت تكره وطفاء أكثر مما تكره فاطمة، لأنّها جاءت زوجة ثالثة لمنّان، ولم تكن مثيلة متزوّجة منه إلا من أشهر معدودات. تذكّرت ليلة النار، ورأت زوجها وهو يرقص مع وطفاء. أخذت عقله وطفاء. رقص معها

ثم أجلسها على حجر وجلس أمامها على حجر، وتزوّجها، وأخذها إلى الخلاءِ ونام معها ثم عاد وعادت معه. مثيلة بكت في تلك الليلة، وفي الليالي التالية، وفكّرت بأنْ تحردَ وتعود إلى بيت أهلها نكاية بزوجها. زوجها لاحظ بكاءها واقترب منها ولاطفها واسترضاها، فرضيت وواصلت حياتها معه، ثم أصبحت علاقتها مع وطفاء تتحسّن حينًا وتسوء حينًا آخر، وكذلك الأمر مع فاطمة قبل أن يركبها الجنّ وتفقد عقلها. وهي الآن تترحّم على ضرّتيها وتطلب من الله أن يغفر لهما ذنوبهما، ثم واصلت إعداد الطعام لمحمّد الكبير الذي هجر العشيرة وعاش في يافا، وقيل عنه كلام يشيب له شعر الراس، لم تصدّق مثيلة منه شيئًا، فالناس ينقلون أخبارًا غير دقيقة في كثير من الحالات. قيل إنه يشتغل في ماخور، وهو متزوّج من امرأة يهوديّة. مثيلة لا تصدّق هذا الكلام، ولا تفكّر بالاستفسار من محمّد إنْ كان ما سمعته صحيحًا، أم أنّه مجرّد إشاعات. هي تعتقد أنّها إشاعات. هذا ما يقوله لها قلبها.

في تلك الأثناء، ذهب منّان إلى بيت أمّه لكي يشعر بشيء من الراحة وهدوء البال. بعد جلوسه عندها بلحظات راحت تحكي له عن أيّام البرّيّة، فكأنّها تشتاقها ولا بدّ من تذكّرها دومًا لتطمئنّ نفسها: الله يرحم روحه، ويسكنه في جنّة الرضوان. لما خطبني كان عمري سبع تعشر سنة. أمّي قالت لي يا صبحا، لَمّا يدخل خطيبك للسلام عليك، امسكي إيده وبوسيها. دخل علينا، وكان يتلفّت يمين وشمال، لأنّه لا كان شافني ولا كنت شفته. خطبني على وصف أمّه وأنا خطبته على وصف أهلي. أنا شفت شاب طويل مثل الرمح، انسطلت فيه والنسوان كلهن انسطلن فيه. وقفت قدّامه وأنا أتبسّم وسلّمت عليه

•

وبست إيده، وقال لي: كيف حالك يا صبحا؟ قلت له: الله يسلمك يا محمّد. قعد على الفرشة وقعدت جنبه، كتفه على كتفي، وذراعه على ذراعي. والنسوان طلعن ثاني يوم يقلن: والله هذي صبحا موشّشة وما في عينها ذرّة حياء. ولولا إنّا قاعدات عندها وعنده، كانت نامت في حضنه يا قبرت سلالتها. أمّي لما شافت النسوان يتغامزن قالت لي: قومي اغلي الشاي لخطيبك. خطيبي قال: خليّها قاعدة يا عمتي، وخلّي الشاي بعد ساعة. كأنها طابت له القعدة وأنا قاعدة جنبه وملزّقة فيه. أنا والله صرت حيرانة، أردّ على أمّي والا أردّ عليه. بقيت قاعدة والنسوان يتغامزن. بعدين نهرتني أمّي بصوت خلاني أنطّ على غير مليح: قومي يا بنت! قمت وغليت الشاي وعيني ما تفارقه. بعد الخطبة بشهر تزوّجنا. تزوّجنا في الربيع الله يهدّي بالنا ويجعل كل أيّامنا من ربيع لربيع. ركّبوني على ظهر جمل. خفت وانا راكبة على الجمل. أمّي قالت لي: ديري بالك يا بنيتي، إياك تفتحي افخاذك على ظهر الجمل. قلت لها: ما تخافي يا أمّي، أنا ترابيتك. وركبت على ظهر الجمل ورجال عشيرتنا وعشيرة عريسي مشوا قدّام الجمل وغنوا وأطلقوا النار من بواريدهم، والنسوان مشين خلف الجمل وغنّين، وأنا كان على وجهي غمغام خفيف، وشايفة الرجال ومعهم عريسي، وأنا من الفرح الدنيا ما هي واسعتني. وما شفت إلا الجمل صار يهدر ويرغي ويزبد، وصار يلوي رقبته، وركض كأنّه قرصته حيّة. صرخت من الخوف. والنسوان صرخن، والرجال لحقوا الجمل والجمل ركض، وأنا مْتَرِتْحَة في ظهره وجسمي يتشوطَح مرّة شمال ومرّة يمين، تعبت وانا مْتَرِتْحة وسقطت عن ظهره، فتحت عيني وإلا عريسي يتلقاني بين يديه. حملني وقال لي: ما تخافي يا صبحا. قلت له: الله يسلّم يديك

يا محمّد. هذاك يوم لا يمكن أنساه. ييه! أيّام وأيّام مرّت. الله يرحم روحه ويجعل الجنّة مثواه.

ولم يكتف منّان بما روته أمّه له هذه الليلة. كانت لديه رغبة في البقاء عندها أطول وقت ممكن. ربّما كان مجروحًا من تصرّف ابنه محمّد الكبير معه، وهو بحاجة إلى حنانها لكي يخفّف من ألمه، وربّما استدعى حديث أمّه عن البرّيّة ذكريات هاجعة في صدره، فلم يشأ أن يفصح عنها. قال لها: احكي لي حكاية الرجل اللي أطعم ظلّه بيضة ورغيف.

ضحكت صبحاء، وتذكّرت ولع وضحاء بظلّها، وقالت: لو كانت وضحا معك، كنت حكيتها.

– يعني ما بدك تحكيها؟

– بحكيها، بس أقوم اصلّي، بلاش تفوتني الصلاة.

وبعد أن صلّت أمّه صلاة العشاء، دخلت راس النبع مجموعة من الرجال الملثّمين بالكوفيّات، وعلى أكتافهم بنادق، وحول خصورهم أحزمة تنتظم فيها صفوف متراصّة من الفشك. دخلوا مضافة المختار منّان، وجاء ابنه يوسف يدعوه لأنّ في المضافة ضيوفًا يرغبون في التحدّث معه.

غادر بيت أمّه ورحّب بالضيوف، ثم أصغى إليهم وهم يتحدّثون عن الثورة التي استأنفت انطلاقتها، وعن ضرورة المشاركة فيها. تردّد المختار في إعطاء جواب، تحمّس ابنه يوسف لها، ودخل محمّد الكبير المضافة من دون استئذان، فسكت والده على مضض. نظر محمّد إلى الرجال المسلّحين باحترام، من دون أن يعني ذلك أنّه مستعدٌّ للالتحاق بهم. نظر محمّد الصغير إليهم وهو يتمتم بصوت خافت، وبدا منجذبًا إلى أحاديثهم حينًا متوجّسًا منها حينًا آخر.

وظلّ عبّاس واجمًا، يفكّر في أمر الحانوت الذي عاد إليه، بعد أن أمرت القيادة بإنهاء الإضراب وبالتوقّف عن القيام بعمليّات مسلّحة. وهو لا يدري الآن متى تصل البلاد إلى حالة من الاستقرار. لم يطل مكوث الثوّار في بيت المختار. جاءت دوريّة الانكليز بغتة. نهضوا على عجل وهم يقبضون على بنادقهم. انسربوا عبر الوادي متلفّعين برداء العتمة. زمجرت مصفّحات الانكليز وعرباتهم فوق الطريق الترابيّة، وتوقّفت قريبًا من البيوت، نزل منها ضابط وعدد من الجنود واتجهوا إلى بيت المختار منّان. نادى الضابط بصوت غاضب: مختار، يا مختار.

خرج المختار ومن حوله جمع من أبناء عشيرته، صاح فيه الضابط: سلّمنا الخارجين على القانون.

– صدّقني ما شفتهم.

حاول المختار أن يلجأ إلى الحيلة وإلى المراوغة لعلّه يخفّف من وطأة المواجهة. قال: ممكن تعرّفني على حضرتك؟

وأضاف: أنا صديق للمستر دامس، اسأله عني.

تجاهل الضابط كلام المختار، فكأنّه لم يسمعه، قال: تعال معنا.

احتجّ المختار وقال: أجيء معكم لأيّ هدف؟

أشار الضابط بيده إلى جنوده. هجموا على المختار ودفعوه بقسوة نحو إحدى العربات. دُهش لهذه الإهانة، وظلّ صامتاً لأنّه لا يريد أن تلحق به إهانة أخرى أمام أبناء العشيرة. قال الضابط وهو يحدّق في الجميع متوعّدًا: تفرّقوا من أمامي. تفرّقوا!

رنّت كلمات الضابط في أذنيّ المختار، واعتقد أنّها قيلت من قبل. فكّر قليلاً ثم تذكّر ما قالته له أمّه عن الضابط التركي الذي وصف

أبناء العشيرة بأنّهم: جنكلة، لا قيمة لهم، ثم طلب منهم أن يتفرّقوا من أمامه، فتضاعف إحساسه بالإهانة. أجرى الضابط وجنوده تفتيشًا في بعض بيوت القرية. خافت النساء وبكى عدد من الأطفال. نعفوا أكياس القمح على البلاط. فتّشوا المخازن ومهاجع النساء، ولم يعثروا على أسلحة، لم يعثروا على مسلّحين.

ركب الضابط والجنود عرباتهم العسكريّة وانصرفوا ومعهم المختار. بدا أبناء العشيرة مستائين مما جرى لكبيرهم. وقفوا حائرين ثم عادوا إلى مضافته يعمرونها هم وأولاده أثناء غيابه، ويتجادلون حول ما يخبّئه المستقبل لهم من مفاجآت. الوحيد الذي لم يعد موجودًا معهم هو يوسف ابن المختار.

❖ ❖ ❖

أسبوعان في السجن. تلك تجربة أولى في حياته. لم يتوقّع يومًا أنّه سيدخل السجن. حينما عاد إلى راس النبع زغردت أمّه صبحاء، وزغردت وضحاء وأمّها مرجانة. زغردت بقيّة زوجات المختار وبناته ونساء العشيرة الأخريات، رُفعت سبع رايات على سطح الدار، أضيئت اللوكسات وشعّ نورها وانتشر داخل البيت وخارجه، ولم يتوقّف الغناء إلا بعد منتصف الليل. ومنذ انتشر الخبر، تجمّع رهط من رجال القرية واحتشدوا في مضافة المختار يهنّئونه بالسلامة. وكانوا معنيّين بسماع شيء مما كابده في السجن ورآه.

بدا هادئًا كما لو أنّه تعلّم من الأسبوعين اللذين قضاهما في السجن الشيء الكثير. لم يفْرط في الكلام. قال إنّهم ظلّوا يضغطون

عليه من أجل أن يعطيهم معلومات عن الثوار. قال لهم: ما اعرف عنهم أي شيء.

وقال إنّه التقى في السجن رجالاً من مدن وقرى فلسطينيّة مختلفة، بعضهم محكومون لسنوات طويلة بتهم حيازة أسلحة ونصب كمائن لعسكر الانكليز، وبعضهم ما زالوا ينتظرون إصدار الأحكام عليهم.

قال إنّ المحقّقين الانكليز هدّدوه بأن يقضي بقيّة حياته في السجن، ولم يتزحزح عمّا قاله منذ اللحظات الأولى لبدء التحقيق معه. كان منتشيًا بالتجربة التي خاضها وصمد فيها حتى النهاية، وحينما يئس المحقّقون منه أفرجوا عنه وعاد إلى بيته.

قال إنّه رأى في السجن شابًّا ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه، قال: كنّا نشوفه وهو خارج من الزنزانة، القيد في يديه ورجليه.

ردّد عدد من الرجال بصوت واحد: الله يحميه.

مضت الشهور والثورة مستمرّة، وازدادت معاناة الناس من بطش عسكر الانكليز والعصابات الصهيونيّة المسلّحة. وكان أحد قادة الثورة واسمه عبد القادر الحسيني ينشط في جبال القدس. عرفه المختار منّان وعبّاس، والتقياه حينما زار سرًّا مضافة المختار، وكان تحت إمرته عدد من قادة الفصائل المسلّحة، من بينهم: عبد الغني حيمور قائد فصيل عرب العبيدية، محمود أبو ادهيم قائد فصيل عرب السواحرة، الشيخ عيسى أبو قدّوم قائد فصيل عرب التعامرة، وجاد الله الخطيب قائد فصيل صورباهر.

كان عبّاس يمضي سحابة يومه، حين لا يذهب إلى حانوته، جالسًا في الظلّ الذي ينشره حائط بيته، يدخّن غليونه الطويل الذي

أحضره معه من البرّيّة، ويرنو بعينين غائمتين إلى المدى المنظور. تبدو بيوت القدس متراصّة فوق الهضاب، ينتفض محدّقًا في من حوله: يا عالم، من وين طلع لنا هذا البلاء؟

يسمع همهمات مقتضبة، فلا يعثر من خلالها على إجابة شافية تُدخل الطمأنينة إلى نفسه. التحق بالثورة، وأخذ مع حلول الظلام ينطلق في رهط من رجال راس النبع، يتوزّعون على الطريق التي تجتازها دوريات العسكر، يكمنون في انتظارها، وحينما تطلّ عرباتهم ومصفّحاتهم مدمدمة فوق الطريق، يمطرونها برصاص بنادقهم، ثم ينسحبون إلى بيوتهم، يدفنون البنادق في جوف الأرض، وينامون والقلق يسري في عروقهم. وفي النهار، ينتشرون في اتجاهات شتّى. بعضهم يذهب إلى عمله، ويتسقّط آخرون منهم الأخبار. ولطالما ردّد عثمان على أسماعهم ما قاله الشاعر عبد الرحيم محمود أثناء اندلاع الثورة ومشاركته فيها:

سأحمل روحي على راحتي/ وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسرّ الصديق / وإمّا ممات يغيظ العدا

تعلّم عبّاس كيف يصنع المتفجّرات، ينسف بها الجسور ويقطع الطرقات. وذات مساء، جاءهم رجل طويل القامة أشقر الوجه ومعه يوسف ابن المختار. تهيّب منه الناس أوّل الأمر، قدّمه لهم يوسف وقال: هذا فؤاد نصّار.

أفاض في الحديث عن مآثره فأعجبوا به واطمأنّوا إليه. وأخذوا يصغون إلى كلماته البسيطة، وهم يعتقدون أنّه ساحر يخطف العقول ويبهر الأبصار، فازداد إعجابهم بالرجل، وتعلّقوا به، وحينما غادرهم بعد أن شفي من جرح في كتفه، ظلّوا متلهّفين على لقياه من جديد.

وظلّت صبحاء موزّعة بين الماضي والحاضر. الماضي الذي تتذكّره بشغف وتحنّ إليه وإلى ما اشتمل عليه من أحداث وتفاصيل، والحاضر الذي يسيل فيه دم الثوّار ويروي أرض فلسطين من شمالها إلى جنوبها، ويجعلها دائمة القلق على حفيدها يوسف الذي لم تعد تراه، وعلى أبناء العشيرة الذين يخرجون كلّ ليلة تحت جنح الظلام للمشاركة في الثورة.

روت لمنّان: الليلة اللي فاتت شفتها في الحلم وما كان حولي ناس. شفتها وهي تصهل وراسها لفوق. مشيت على مهلي عشان ما تجفل مني. وقلت لازم أقودها وأرجّعها للأهل والخلان، خلّيها تشوف بيوتنا اللي سكنّا فيها جنب المدينة. شفتها تركض في البرّيّة. وقلت: وانا شو مودّيني للبرّيّة بعد ما رحلنا منها؟ ولما شفت قبر جدّك وقبر والدك قلت اكيد انّي جاية ازور القبور. ولما قرّبت من الفرس شمست وأبعدت عني. قلت والله مبيّن عليها زعلانة مني. قلت لها: تعالي يا حبيبتي تعالي. وقرّبت منها مرّة ثانية وهي شمست وابعدت. وما شفت الا أبوك يقرّب مني ويقول لي: خلّي الفرس بحالها يا صبحا، خلّيها، الفرس زعلانة منكم. قلت انت وينك يا حاج محمّد؟ من زمان ما شفتك، قال لي: انت مش عارفة وين انا؟ إلي سنين بنتظرك. وقتيش بدك تيجي عندي يا صبحا؟ قلت له: توكّل على الله يا حاج، وان شاء الله ما أتأخر عليك. صدّقْ وآمنْ يا منّان، إنها الفرس لما شافتني بحكي أنا وأبوك، رجعت قرّبت منّا وظلّت تصهل وتصهل، لحد ما فتحت عيني وقمت من النوم. قمت واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقلت الله يلعن حلم ابليس، ولما تذكّرت الحلم قلت والله تقول إن منيّتي قرّبت.

– ما تقلقي يا أمّي، انكتب لك عمر جديد.

– الله يسمع منك، وان رجعت فرس العيلة إعلمْ وادرِ إنه رايح يكون عندي عيد.

❖ ❖ ❖

جاء الغجر من بعيد ونصبوا خيامهم في إحدى ساحات راس النبع. ربطوا حميرهم في طرف الساحة، وتجوّلت نساؤهم بين الخيام بملابسهنّ المزركشة، وبالحلق في آذانهنّ وأنوفهن، وبالأساور في أيديهنّ والخلاخيل في أرجلهن.

وفي إحدى الخيام، جلس رجل كثّ الشاربين وأمامه موقد للنار، يزيدها اشتعالاً الكور الذي يضغط عليه الرجل، فيخرج الهواء من فوّهته نحو الموقد. وعلى النار يسخّن الغجري قضيب حديد إلى حدّ الاحمرار، ثم يطرقه بالمطرقة ويسوّي أطرافه على سندان أمامه حتى يرقّ، ليتحوّل إلى منجل للحصاد.

تقاطرت النسوة على خيمة الغجري، واشترين مناجل للحصاد ومقاور لتقوير الكوسا وإبرًا للبوابير وخواتم من معدن خفيف وحلقًا للأذنين، ولم تكن سلع فرقاد غالية التمن. دفعن له خبزًا وبيضًا وجبنًا، وقليلات هنّ اللواتي دفعن قروشًا فلسطينيّة أحضرها أزواجهنّ أو أبناؤهنّ من كدّهم في البيّارات وفي المطاعم والفنادق، وفي أعمال البناء.

وتقاطر الرجال على خيمة فرقاد، يمدّون له سواعدهم لكي يرسم عليها بالوشم أسماءهم واسم فلسطين (لم يكن فرقاد يعرف القراءة والكتابة، كان يعتمد على من يستطيع الكتابة، فيكتب بقلم الكوبياء على جلد الشخص المعني، ويقوم فرقاد بتتبّع الكتابة بالإبرة وبالصبغة

الخضراء)، بعض الشباب طلبوا من فرقاد أن يرسم على صدورهم بالوشم صورًا لحبيباتهم (يرسم صورة أيّة امرأة فيعتبرها الحبيب رمزًا لحبيبته). آخرون طلبوا منه أن يرسم على سواعدهم وصدورهم بالوشم صورًا للأفاعي وللوحوش، ربّما لاكتساب مزيد من الهيبة، وربّما انصياعًا لموضة انتشرت في قرى أخرى وظلّت تواصل انتشارها حتى وصلت راس النبع. كان فرقاد يلبّي رغباتهم مقابل أقراص من الجبن وأرغفة من الخبز أو بعض النقود.

واعتاد شباب القرية وأطفالها الاقتراب من خيام الغجر لإشباع فضولهم. ففي الأماسي، بعد غروب الشمس بقليل، ينطلق غناء من الخيام وأصوات دفوف ونايات. ويختلط غناء النساء بغناء الرجال، فتبدو راس النبع كما لو أنّها في مهرجان. كان وطّاف يلازم خيام الغجر منذ حلّوا في القرية، وبدا معجبًا بالبساطة التي يمارسون من خلالها حياتهم. في الصباح يبقى الرجال في الخيام، يدخّنون لفائف التبغ ويبرمون شواربهم، وهم يشربون الشاي الذي يغلونه على نار الحطب، ويمارسون مهنة الحدادة بقليل من الجهد والتعب، فيما النساء يخرجن إلى بيوت راس النبع وإلى القرى المجاورة للتسوّل ولقراءة البخت ولرسم الوشوم على خدود النساء والبنات.

وذات نهار اقتربت ثلاث منهنّ من بيت وضحاء. وقبل أن تنجح في إغلاق الباب خوفًا من مفاجأة ما، دخلن البيت ووقفن يستجدينها لتجود عليهنّ بشيء مما لديها من طحين وزيت وسكّر وشاي. تذكّرت كلام زوجها عن خداع الشحّاذين وسحرهم الذي يمكّنهم من حمل متاع الدار وما فيها من مؤونة، وربّة الدار لاهية عنهم لا تدري كيف تتصرّف أو تردّ الأذى، فلم يرقها دخول الغجريّات إلى البيت.

ولكي تتداركَ ما حذّرها منه زوجها، سارعت إلى تقديم الطحين والزيت والسكّر والشاي للغجريّات الثلاث. أخذن ما جادت به عليهنّ وخرجن شاكرات لها كرمها، ولم يبدر منهنّ ما يعكّر صفوها. تابعتهنّ وهنّ خارجات فأشفقت عليهنّ وظلّت تتابعهنّ بعينيها حتى ابتعدن، ثم أغلقت الباب وانهمكت في تنظيف البيت وشطفه بالماء.

ظلّت الغجريّات يعدن من مشوارهنّ اليومي مع المساء، واعتاد وطّاف أن يتابع واحدة منهنّ تعلّق قلبه بها منذ رآها أوّل مرة، وهي ترقص على أنغام دفّ، تنقر بأصابعها الرشيقة عليه فتاة أخرى. اقترب منها وسألها: شو اسمك؟

– اسمي مروادة، أبي كبير الغجر اسمه فرقاد.

– أنت بنت حلوة.

– شو اسمك أنت؟

– وطّاف.

حدجته بنظرة حانية وهو يقف أمامها بجسمه الضخم المترامي الأطراف. قالت له: أهلا وسهلا بك. تفضّل، اجلس.

جلس على حشيّة من قطن وقماش، وواصلت هي الرقص على أنغام الدفّ. كان لها خصر نحيل وقدمان رقيقتان. هزّت خصرها وتلوّت مثل غصن البان، ونقلت قدميها فوق الأرض ببراعة، ووطّاف يتابعها بانبهار. بعد دقائق، توقّفت عن الرقص وقالت: كفاية لهذا المساء.

غابت في خيمة أخرى، وحينما نهض وطّاف وغادر الخيمة رأى جمهرة من شباب القرية وأطفالها يتحلّقون على مقربة من خيام الغجر. لم يعجبه هذا المشهد المكتظّ بالفضول وبالتمادي على حقّ الغجر في ألا يكونوا موضع مراقبة. وقف محدّقًا في الجميع بنظرة

تنذر بالشر. تفرّق الجميع من حوله في الحال، وراح يمشي نحو بيت أبيه وفي داخله نشوة عارمة.

❖ ❖ ❖

محمّد الكبير لم يعجبه الحال، ولم يرقه ما أحدثه قدوم الغجر إلى راس النبع من حراك. ظلّ يحنّ إلى أيّام يافا ولياليها، لعن الثورة التي حاصرته في قرية لا تعرف طعم الحياة. أخذ يفكّ الخيول والحمير من مرابطها، لكي تركض على غير هدى في دروب راس النبع وحقولها، ثم راح يسطو على أقنان الدجاج، يذبح ما شاء منها في الخلاء، يشويها ويأكل لحمها وينام أينما اتّفق، حتى ضجّت القرية وشاعت فيها الشائعات. شكت بعض النساء إلى صويحباتهنّ من مجهولين يطرقون أبوابهنّ في عتمات الليالي، وفي غيبة أزواجهن، فلا يفتحن لهم الأبواب. خيّم الخوف على نساء كثيرات، فاضطرّ محمّد الصغير إلى الخروج عن صمته المحيّر، وقال: الأحوال ما ساءت إلا لَمّا عاد محمّد الكبير إلى راس النبع.

دعا إلى زيارة مقام سيّدنا حامد، ولم يرافقه فيها إلا عدد قليل من الرجال والنساء. تشكّك محمّد الصغير في عمق إيمان الناس، وتذكّر ما يتناقله أبناء العشيرة من كلام الخطيب عبد الرحمن، ولم يبح لأحد بما فكّر فيه. وحينما هدّ التعب فوج الزوّار على الدرب الطويل، قال إنّ هذا ضروري لتطهير الأنفس من أدرانها. آمنت مثيلة بكلمات ابن ضرّتها، وتحاملت على نفسها حتى وصلت المقام، وهناك اختلّ توازنها وهي تتذكّر التاجر فأخذت تهذي. استغرب محمّد

الصغير أمرها وظلّ يقرأ آيات من القرآن على رأسها حتى هدأت. ثم أقام هو ومن معه من الرجال حلقة للذكر. بعدها صلّوا واستغفروا الله، وعادوا مشيًا على الأقدام.

بات محمّد الصغير أكثر تصميمًا على محاربة الشرّ المستوطن في النفوس. واعتقد أنّ الأمان سوف يخيّم على راس النبع بتكرار الرحلات إلى مقام سيّدنا حامد. دعم اعتقادَه هذا، اكتشاف الفعلات المشينة التي اقترفها أخوه محمّد الكبير، فلم يلبث المختار منّان أن ألقى القبض على ابنه وأنزله في بئر خالية من الماء. حرّم عليه الطعام والشراب سبعة أيّام، لولا أنّ مثيلة كانت تغافل المختار، وتذهب ليلاً إلى البئر، ترمي إليه خبزًا، وتدلي إليه بدلو فيه ماء، يشرب منه حتى يرتوي، وهي تتمتم فوق فوّهة البئر: اشرب يا حزين، اشرب.

وتعود إلى البيت، فلا يراها المختار، لأنّه مشغول بالثورة والثوّار، وبابنه يوسف الذي لم يعد إلى الظهور في راس النبع. ولا يحسّ بها محمّد الصغير الذي باتت تؤرّقه فكرة خلوّ القرية من جامع يؤمّه المصلّون، فقرّر أن يدعو الناس إلى بناء جامع.

تلك السنة، انتهت الثورة وعانت البلاد من آثار الانقسام الذي نشأ بين العائلات المقدسيّة، وكذلك بين الأحزاب السياسيّة، وترك آثارًا مدمّرة على البلاد والعباد. وعرف منّان كيف لعبت فصائل السلام المضادّة للثورة دورًا في إشاعة البلبلة، فوقعت فوضى وظهر قاطعو طرق لا همّ لهم سوى سلب الناس ونهبهم، وجرت اغتيالات طالت بعض من شاركوا في الثورة. وقامت قوّات الانتداب البريطاني بتصفية عدد من قادتها البارزين، من بينهم عبد الرحيم الحاج محمّد/ أبو كمال الذي استشهد في سهل صانور، وغنّت فيه نساء راس النبع:

يا ابو كمال في صانور راحِ
ويا حسرة فلسطين على الملاحِ

وأنجزت قرية راس النبع بناء جامع، وذهب محمّد الكبير إلى يافا، وتوقّعت سميحة أن يعود ابنها يوسف إليها. انتظرته أيّامًا وأسابيع وشهورًا ولم يعد، فلم يهدأ بالها. ظلّت تتذكّر ابنها وتبكي، وفي أحيان أخرى كانت ترفع صوتها بغناء حزين ترسله إلى يوسف أينما كان لعلّه ينجو من شرور الدنيا وغدر الغادرين. ظلّت مجروحة القلب عليه، واعتقد المختار أنّ يوسف قتل، فأصابه الغمّ، إلا أنّه لم ييأس. ظلّ ينتظر لعلّه يظفر بخبر عن ابنه المفقود.

وأدرك أنّ العالم ليست له حدود. راح يتذكّر المدن التي عرف أسماءها من المذياع: لندن، برلين، باريس، موسكو، فامتلأ قلبه خشوعًا ورهبة، وهو متروك هنا لعسف الزمن في قرية صغيرة لا يكاد يسمع بها أحد. ولم يتوقّف عن عدائه لعسكر الانكليز، شاركه في ذلك عبّاس وعبد الجبّار وعثمان وآخرون. كانوا يتابعون الأخبار من مذياع خشبي كبير. يعتريهم القلق مما يحدث في هذه الدنيا من قتل ودمار، يعتريهم القلق أكثر بسبب ما تتعرّض له بلادهم، ويتعرّضون هم له من أذى وقتل وإذلال. عثمان يغالب القلق ويتلفّع بهدوء ينمّ عن حكمة وبعد نظر، يردّد بعض أبيات من الشعر، يصغي الحاضرون إليه ويعجبون بفصاحته. ومنّان، حينما تحلّ لحظة صمت، يقول: اللعنة على هذي الأوضاع وعلى الانكليز اللي تسبّبوا فيها.

يقول عبّاس: بدنا نتحمّل يا منّان.

يهزّ عثمان رأسه موافقًا على ما يقوله عبّاس.

ولم يتوقّف الجدل بينهم طوال أيام الحرب. قال المختار إنّ الانكليز لن يخرجوا من البلاد، وخالفه في الرأي أخوه عبّاس. واتّخذ عثمان موقفًا قابلاً لأكثر من احتمال.

وامتدّ الجدل حتى طال شخص المفتي، فأعلن المختار عدم رضاه عن خطّته بوقف الإضراب، فلم يتّفق معه في الرأي عبّاس. قال لأخيه: هالحين جاي تحكي، الإضراب انتهى من أربع سنين.

قال المختار وهو مصرٌّ على رأيه: من أربع سنين والا من عشر سنين، وقْف الإضراب كان مش صحيح.

تدخّل عثمان، وقال بهدوء: الناس تعبوا من الإضراب، والتجّار كمان تعبوا، يعني خلّينا نحكي بصراحة.

سكت المختار على مضض، وأعجب عبّاس بصراحة عثمان، ولم يكن على استعداد للتحدّث بالصراحة نفسها خوفًا من لسان أخيه، وخصوصًا حينما يجري التطرّق لأمور التجارة والتجّار. وعاد يرسم بالكلمات للناس من حوله صورة ناصعة عن مواقف المفتي، وعن قلبه الطيّب الأبيض مثل بياض عمامته.

ولم يكن المختار متيقّنًا من صحّة أيّ شيء، كان يميل في بعض الأحيان إلى تصديق عبّاس، وفي أحيان أخرى يهاجم المفتي، فاختلفت في راس النبع الآراء، واحتدم النقاش أيّاماً وليالي ما بين مؤيّد للمفتي ومعارض، والمذياع هو الوحيد الذي كان يحسم حُمّى الأصوات الهادرة، جالباً إلى القرية أخبارًا عمّا يحدث في هذه البلاد وفي غيرها من البلدان. يدير المختار مفتاح التشغيل، فيعمّ الصمت في المضافة انتظارًا لنشرة الأخبار، يصدر المذياع صوتًا ممطوطًا كما لو أنّه إيذان بما سيأتي بعد قليل، وفجأة يندلع صوت رخيم: هنا القدس، دار الإذاعة الفلسطينية، إليكم نشرة الأخبار.

تطيّرت مثيلة من مذياع زوجها المختار، وقالت إنّه مسكون بأرواح شرّيرة لا تجعلها تنام الليل، ولم يلبث وسواس مثيلة أن انتشرت عدواه، فأصبحت نساء أخريات يتشكّين من همهمات غامضة وأصوات مبهمة تفيض في عتمة الليل من خلف الجبال. لم تعد مثيلة تسمع فرس العائلة تناديها ليلاً، فلم يسعدها الحال، خصوصًا بعد أن زارها في المنام، طيف ملاك أبيض قال لها إنّ فرس العائلة لا تظهر إلا للمحظوظين الأوفياء، فانشرح صدرها وراق مزاجها، لكنّ الفرس انقطعت عنها، فأرجعت هذا الانقطاع إلى فعل الأشرار الذين لا يكفّون عن إرسال الأرواح الخفيّة عبر الظلمة، لتدبّر أمرًا ليس طيّبًا في كلّ الأحوال.

ازداد عذاب مثيلة، وأخذت تصيخ السمع كلّ ليلة لعلّها تظفر بنداء تطلقه فرس العائلة، ولم تظفر بالنداء. ساءلت غيرها من النسوة إنْ كنّ استمعن إلى نداء الفرس، فأنكرن هذا الأمر، وأفشت إحداهنّ إلى مثيلة سرًّا مؤرّقًا، ظلّت تحتفظ به لنفسها سبعة أيّام خوفًا من سوء العاقبة. قالت إنّها رأت في المنام فرس العائلة مجندلة على رأس جبل، تنهش لحمها الوحوش والغربان، فاستعاذت مثيلة بالله من هذا الحلم، رفضت تصديقه واتّهمت جارتها بأنّها مسكونة بشيطان خبيث أو أكثر، فامتعضت المرأة وأنّبت نفسها لأنّها أفشت السر.

ولم يقرّ لها قرار حتى ذهبت إلى خلوة محمّد الصغير، وباحت له بمكنونات نفسها. ارتبك ولم يستطع أن يداري هلعه. وقفت تراقبه وهو منطرح على الأرض مرغيًا مزبدًا، سارعت أمّه إلى إشعال عود ثقاب، قرّبته من الطرف السفلي لردن ثوبها، أشعلته وفاحت في فضاء الغرفة رائحة قماش يحترق. أدنت طرف الردن والدخان منبعثٌ منه من أنف ابنها، وراحت تبخّره وهي تردّد رقية لعلّها تبعد عنه الحسد

وبقيّة الشرور: حوّطتك بالله من عيني وعين خلق الله، من عين أمّك وعين أبوك، وعين الناس اللي شافوك...

ولم تكمل رقيتها، لأنّه نهض بعصبيّة وغادر البيت مهرولاً إلى الجامع، حيث يقيم شيخه حلقة للذكر لا تنقطع. ظلّ محمّد الصغير يتمايل فيها يمنة ويسرة وهو يردّد مع المنشدين:

يا ذا المكيّ يا ذا المكيّ
ذكر محمّد واجب عليّ

ثم استلقى وسط الجمع غائبًا عن الوعي، وظلّ كذلك إلى ساعة متأخّرة من الليل، رأى فيها فرس العائلة تركض في السهول المترامية، وعلى صهوتها رجل كأنّه شواظ من نار ونور، تبيّن فيه صورة أخيه يوسف، فاستيقظ مملوء الجوانح بالدفء والحبور. سارع إلى أبيه يوقظه من نومه ويخبره بما رأى، فاستبشر الأب خيرًا بالرؤيا، وسأل في إشفاق:

– انت شفت يوسف؟

– شفته يا أبي، ثق بما أقول.

– حي يرزق؟

– ثقتي بالله كبيرة يا أبي.

– كيف شفته؟ وكيف هي أحواله؟

تلفّت محمّد الصغير حوله في حذر وقال هامسًا: كان يمتطي فرس العائلة، وهو من نار ونور.

حلّ خشوع في قلب الأب، فلم يعد قادرًا على الكلام، واصل محمّد الصغير: لا تبح بذلك لأحد يا أبي.

هزّ الأب رأسه في امتثال، وظلّ يرقب ابنه وهو عائد إلى خلوته. حاول الأب أن يعود إلى فراشه فلم يحتمل، تسلّل إلى فراش صفيّة،

فاستيقظت وقد تملّكتها المفاجأة، ظلّت تفكّر بهذا التحوّل الذي أصاب زوجها بعد جفاء، حتى قال لها: ابنك محمّد ما شاء الله عليه، والله يحميه.

استغربت صفيّة، حاولت أن تستبين الأمر، لكنّه صدّها وقال: أزوّجه في أسرع وقت، عشان يزداد هذا النسل المبارك.

انتشت صفيّة، والتصقت بجسد زوجها بلا تردّد أو حياء، ولولا الخوف من الفضيحة وسخرية النساء لأطلقت زغرودة مدوّية. كتمت فرحتها ولم يعاودها النوم. أجهدت نفسها وهي تستعرض بنات راس النبع في مخيّلتها لترى أيّهن تصلح زوجة لابنها.

ولم يطل الوقت حتى تبدّت آثار النعمة على وجهها، وأخذت تتباهى بين النسوة بالمكانة التي تحظى بها في قلب المختار، فاغتاظت من ذلك ضرّتها سميحة، وأخذت تكثر من ذكر ابنها الذي انضمّ إلى الثوّار ولم يعد. أصبح من عادتها حينما يكون المختار في البيت أن تنوح بصوت ملتاع معدّدة مناقب يوسف، فيضطرب المختار، ويأمرها بالسكوت، فلا يزيدها الأمر إلا عنادًا، فتدخل عليه صفيّة لتهمس في أذنه قائلة: هذا كيد نسوان، صدّقني.

فيزداد اضطرابًا.

ولم تكترث مثيلة لهذا التحوّل الذي كان من حظّ صفيّة. زهدت في الرجال قبل هروب ابنتها من البيت، وزادها ما فعلته فلحة زهدًا فيهم، ولم تعد تذكر شيئًا من أيّام الصفاء التي نالتها في عهد الصبا. ولم تكترث وضحاء لتباهي صفيّة بما آل إليه وضعها، فهذا الوضع مؤقّت ولن يدوم، وهي تعرف مكانتها في قلب زوجها، لأنّها أصغر زوجاته وأكثرهنّ حظوة لديه.

أصبحت لصفيّة صديقات كثيرات، تجلس كلّ صباح معهن، يتهامسن بكلام يحاذرن من وصوله إلى مسامع الرجال. صفيّة تعرف

أسباب تكاثر الصديقات من حولها، فقد تسرّب الحديث عن نيّة المختار منّان تزويج ابنه محمّد الصغير، إلى كلّ البيوت، فتقبّلته بنات، وأحجمت عنه أخريات، وقلن إنّ محمّد الصغير لا يليق زوجًا بأيٍّ منهن.

انتقت صفيّة لابنها فتاة توسّمت فيها الفلاح وكثرة النسل. عرضت الأمر على منّان، فوافق من فوره، واضطرّ محمّد الصغير إلى الإذعان تحت إلحاح أمّه وتوسّلاتها.

ابتدأت ليالي العرس، وتكدّر المختار لأنّ يوسف الذي رآه محمّد الصغير فوق صهوة فرس العائلة لم يعد. تكدّر أكثر لأنّ محمّد الكبير هو الذي عاد. عاد ليلة الزفاف، يحمل كيسًا فيه زجاجة أثارت فضول الناس. أخرجها محمّد الكبير وقرّبها من أنفه وبدا كما لو أنّه يشمّها، ثم قال والناس واجمون: تعرفون ما هذا؟

لم يطق عبد الجبّار الصمت، قال: ما هذا يا محمّد؟ قل وما تعذّبنا.

– حليب سباع.

فضّ غطاء الزجاجة، وفاحت في المكان رائحة حريفة. سكب قليلاً من محتوى الزجاجة في كأس، بدا السائل بلا لون، قال عبد الجبّار: هذا ماء! لولا هذي الرائحة.

أضاف محمّد الكبير قليلاً من الماء إلى الكأس، فأصبح لون السائل أبيض. شرب جرعة كبيرة، وهو ينظر حوله بعينين زائغتين. تجمّع رهط من الفضوليّين حوله. راقبوه وهو يشرب السائل الأبيض، وأطلقوا تعليقات عدّة وهمهمات.

لم يرق الأمر لمحمّد الصغير، اعتبر كلّ الذي يجري أمام ناظريه فألاً سيّئًا في ليلة عرسه، واعتقد أنّ الشياطين هي التي أرسلت محمّد الكبير ليفسد عليه فرحته.

شرب محمّد الكبير ما في الكأس، وملأها إلى منتصفها من جديد، وعرض على عبد الجبّار أن يتناول جرعة، فتوجّس عبد الجبّار خيفة من التجربة، ثم قرّر الدخول فيها. شرب جرعة، وما لبث أن أغمض عينيه وهزّ رأسه وقال: طعمه ما هو زين.

تأكّدت وساوس محمّد الصغير حينما دخل عبّاس ممتعضًا وصاح: ما هذي الرائحة؟

ردّ محمّد الكبير منتشيًا: حليب سباع.

حدّق عبّاس في الزجاجة لحظة ثم قال: خمر! تشرب الخمر!

تجهّم وجه المختار منّان، وحاول ألا يصدّق أنّ ابنه الذي جاء إلى الدنيا من صلبه يشرب الخمر. نظر إلى وجه عبّاس لعلّه يغيّر رأيه، وأصرّ عبّاس على أنّ ما يشربه ابن أخيه، إنّما هو الخمر الذي حرّمه الله. وقع محمّد الكبير في المأزق الذي صنعته يداه، حاول أن ينهض مبتعدًا حينما رأى الشرّ في عيني والده. مشى خطوتين ثم ترنّح. أخذ يقيء وهو يضغط بيديه على معدته، أخيرًا سقط متهدّلاً مثل قتيل.

حاول منّان أن يدوس بقدمه بطن محمّد الكبير لولا أنّ الناس منعوه، فلم يجد ما يخفّف من غضبه سوى زجاجة الخمر، تناولها بعصبيّة وألقى بها بعيدًا، فانطلقت مخلّفةً وراءها أصواتًا مشروخة وهي تنكسر.

انكسر قلب صفيّة. خافت على ابنها من سوء العاقبة. وقبل أن يدخل على عروسه اختلت به، وبقيت صامتة تتأمّله وهي لا تدري كيف تبدأ كلامها معه. لاحظ أنّها محرجة وقال: يا أمّي، لديك كلام.

نطقت وقالت: يا ولدي، هذي عروسك، هي حلالك وانت حلالها.

– كلامك عين العقل والصواب يا أمّي.

– لا تخجل منها، اكشف لها جسدك وهي خلّيها تكشف لك جسدها.

– كلامك لا يخالف شرع الله.

– ابدأ من عند سرّتها، حُطْ راس خنصرك على السرّة، وافتح كفّك على وسعها، وخلّ راس إبهامك يمتد لأسفل بطنها.

– كلامك يُشعرني بالخجل يا أمّي، ولكن، لا حياء في الدين.

ظلّت طوال تلك الليلة ساهرة تنتظر خبرًا من ابنها الذي اختلى بعروسه ساعات، فلمّا لم يأتها منه خبر، غلبها النوم قبيل الفجر ونامت.

في الصباح، شقّت العروس باب غرفتها، وكانت وحيدة. عجز العريس عن القيام بواجبات الليلة الأولى فتوارى عن الأنظار، ثم وجدوه معتكفًا في الجامع يردّد الذكر مع سيّده الشيخ.

اغتمّ المختار منّان، وأيقنت صفيّة أنّ أيّام عزّها لن تستمرّ بأيّ حال. حاولت تبرير الأمر بوضع اللوم على عاتق محمّد الكبير الذي ملأ البيت أرواحًا شرّيرة، فلم يقتنع المختار بكلامها، ولم تيأس صفيّة. طلبت من ابنها أن يعود إلى البيت، فعاد. طبخت له كمّيّة من الفلفل الحار، وأجبرته على التهامها، ففعل، ثم أطلقته مثل حيوان جريح إلى مخدع عروسه، وهي تترصّده من ثقب الباب، لكنّها اغتمّت حينما خرج من المخدع خائبًا.

ازدادت نقمة منّان على صفيّة وولدها. وصار يشعر بالحرج كلّما جاءه أناس من أهل القرية يهنّئونه بزواج محمّد الصغير. رأت صفيّة الشماتة تطلّ من عيون النساء العدوّات، فتحيّرت ماذا تفعل!

ثم وجدت أنّه لا بدّ من الحيلة للإبقاء على علاقة الودّ التي شهدتها مؤخّرًا مع زوجها. قالت له: عرفت السبب.

لم يطلب منها منّان أيّ توضيح. إلا أنّها واصلت كلامها وقالت: هذي العروس أخته في الرضاعة.

وأقسمت أيمانًا مغلظة أنّها أرضعتها وهي طفلة في المهد، ولهذا لم يكن بمقدوره أن يفضّ بكارتها ويرتكب المعصية. اغتاظ منّان وعنّفها لأنّها لم تنتبه إلا بعد فوات الأوان، وكاد يصدّق دعواها، لولا أنّ أمّ العروس انبرت لها ونفت كلّ أقوالها، وأكّدت أمام الملأ أجمعين، أنّ ابنتها ليست أختًا في الرضاعة لمحمّد الصغير.

اشمأزّ منّان من لغط النساء، وتمنّى لو أنّه لم يزوّج هذا الولد. انزوى عن الناس أيّامًا لا يكلّمهم ولا يستمع إليهم، حتّى جاءه محمّد الكبير، واقترح عليه أن يختبر صحّة أقوال صفيّة. قال لأبيه: آخذه معي إلى يافا.

– إلى يافا؟

– نعم، أدلّه على امرأة.

– تدلّه على امرأة؟

– نعم، للتأكّد من فحولته.

– كيف؟

– إيه يا أبي، ما أسهلَ العثورَ على امرأة هناك! اليهوديّات أكثر من الهمّ على القلب، والعربيّات.

نهض منّان وقد حلّ حزامه الجلدي عن وسطه، اقترب من محمّد الكبير، رفع الحزام فوق رأسه من غير أن يضربه (فكّر في ضربه ثم تراجع لسبب ما): هذا كلام تقوله لي!

ابتعد محمّد الكبير من أمام أبيه، وحينما علم محمّد الصغير بما اقترحه أخوه استغفر الله تسعًا وتسعين مرّة. عادت زوجته التي ما زالت بكرًا إلى بيت أهلها، ولاذ بالتكيّة التي أقامها سيّده الشيخ بالقرب من الجامع، وظلّ يتردّد عليها ويقيم فيها فترات طويلة إلى أن هجرها الشيخ، في الأيّام المريرة التي تلت نكبة الفلسطينيين الكبرى.

10

لم يستوعب المختار بالسرعة الممكنة طلب ابنه وطّاف. ظلّ يماطله أيّامًا وأسابيع، ووطّاف لا يتراجع عن طلبه. تعلّق قلبه بمروادة وهو راغب في الزواج بها. قال له: أخوك أدهم أكبر منك، وما تزوّج.

– أدهم ما بيفكّر في الزواج، وهو حر.

اعتقد منّان أنّ الغجر دبّروا لابنه سحرًا جعله متعلّقًا بالفتاة. أو ربّما هو جمالها الذي سحر وطّاف. كان منّان رآها وأدرك مقدار ما تنطوي عليه من فتنة وإغراء، إلا أنّه أبدى انزعاجه من ذهابها مع قريباتها للتسوّل. وحينما فاتح وطّاف بهذا الأمر لم يكترث وقال لأبيه: لَمّا أخطبها أمنعها من التسوّل.

سكت منّان على مضض، ولم يشأ أن يجادل ابنه أكثر مما ينبغي، لأنّه يخشى أيّ ردّ فعل قد يقدم عليه هذا الابن الذي وهبه الله من القوّة ما يوازي قوّة عدد من الرجال. قد يستبدّ به الغضب ويمارس شغبًا في القرية، وقد يتّفق مع مروادة على مغادرة القرية، مثلما غادرتها فلحة. وهو يشفق على ابنه في الوقت نفسه لأنّه لم يظفر بشيء من حنان أمّه وطفاء. وطّاف عاش يتيمًا. وحينما أرسله

في المدرسة لم يرقه الخطيب الذي كان يضرب الأولاد على أيديهم بمسطرة خشبيّة. وذات مرّة قرّر الخطيب معاقبته لاعتقاده أنّه كان في عداد المشاغبين في ساحة المدرسة، قال له: افتح يدك لكي أضربك. امتنع عن فتح يده. ضربه على كتفيه وعلى قفاه. ثم كرّر العقوبة نفسها في ما بعد. احتمله وطّاف مرّة واثنتين وثلاثًا، وفي المرّة الرابعة هجم عليه وظلّ يضربه بقبضة يده حتى أدماه. طرده الخطيب من مدرسته، فلم يتعلّم وطّاف إلا قليلاً، وانصرف حينما بلغ مبلغ الرجال إلى حراثة الحقول، يحرثها بكلّ شغف، وحينما تخطر بباله الراحة، يتمدّد فوق الأثلام الرخوة التي شقّها بمحراثه ويغفو هناك، يحلم أنّه في حضن أمّه، ثم ينهض من نومه ويواصل عمله. وفي المساء يحدّث أباه عن حلمه الذي رآه.

تلفّت منّان نحو ابنه الواقف أمامه مثل الطوْد، وقال في سرّه: وطّاف بدّه يحرث مروادة، كان الله في عونها. قال له: أخطبها لك وتتزوّجها بالحلال.

انحنى على أبيه وقبّل رأسه، وخرج من البيت وهو يكاد يطير من الفرح. انتظر مروادة حتى عادت من مشوارها اليومي وزفّ إليها الخبر. في المساء، رقصت مروادة كما لم ترقص من قبل.

وظلّ المختار يستقبل كالعادة كلّ مساء رجال عائلته في مضافته. أوّل شيء يخطر ببالهم ما يجري في البلاد من ظلم يمارسه عسكر الانكليز والعصابات الصهيونيّة التي تزداد قوّة مع الأيّام، وقيام الوكالة اليهودية بشراء مساحات من أراضي فلسطين تملكها عائلة سرسق الإقطاعية اللبنانيّة وبعض العائلات الأخرى. يثني بعض الرجال على جيرانهم من عرب السواحرة الذين يحرصون على شراء

الأرض من فلسطينيين آخرين، ويشيرون إلى بعض رجال عشيرة الشقيرات الذين اشتروا أراضي قريبة من قصر المندوب السامي في جبل المكبر. ويستنكرون بيع الأرض للوكالة اليهوديّة، ويعلنون نقمتهم على سماسرة الأرض. يخبرهم عبّاس أنّ شاعرًا يعمل في إذاعة القدس اسمه ابراهيم طوقان كتب أشعارًا يهجو فيها السماسرة، وقال إنّه سمع أحد المتعلّمين يردّد هذه الأشعار، وتحسّر لأنّه لم يستطع حفظها ليردّدها على أسماعهم، تحسّر أيضًا لأنّه هرب من المدرسة حينما كان طفلاً، ثم نسي ما تعلّمه فلم يعد قادرًا على القراءة والكتابة. ونوّه كثيرون بمقدرة عثمان على الحفظ وعلى إجادة القراءة، وتذكّروا السنوات التي قضاها في مدرسة بالقدس. ولم يكن عثمان معهم في تلك الليلة وإلا لكان له جواب.

تبدأ نشرة الأخبار، يصمت الجميع إلى حين، وبعد النشرة يشترك كلّ الحضور تقريبًا في التعليق على الأخبار. عبد الودود هو الوحيد الذي يظلّ صامتًا ولا يبدي أيّ رأي (وهو على العكس من أخيه عبّاس، ما زال قادرًا على فكّ الحرف وعلى الكتابة، ولو ببطء ومن غير إتقان، جرّاء السنة التي قضاها في المدرسة).

هذه الليلة، كان يتململ كأنّه على وشك أن يقول شيئًا، لأنّ نجمة التي اعتادت التنصّت هي وعدد من نساء العائلة على ما يدور في المضافة، لاحظت أنّ زوجها هو الوحيد تقريبًا الذي يظلّ صامتًا. أنّبته على صمته وقال إنّ ما يلجمه عن الكلام ملابسه العتيقة. ذهبت إلى السوق واشترت له ملابس، وقالت له: هذي الليلة، لازم تحكي مثل باقي الرجال.

وعدها خيرًا. لبس القمباز الجديد والكوفيّة والعقال، ونشر العباءة على كتفيه وبدا مثل شيخ من شيوخ العشائر. ابتهجت نجمة لهيئة زوجها ولطول قامته ووسامته. ذهب إلى المضافة وألقى تحيّة المساء على الجالسين، وجلس. وأخذت نجمة مكانها على مقربة من المضافة ومعها عدد من النساء.

امتدّ الحديث وتشعّب وعبد الودود غارق في الصمت. كان يجد الكلام صعبًا في حضرة كبار العائلة الذين يجيدون الكلام ويبرعون فيه، ولا يتهاونون مع من يتحدّث ولا يجيد الكلام. ورغم هذا، فإنّ عبد الودود لا يمكن أن يظلّ صامتًا هذه الليلة، وإلا فسوف تغضب منه زوجته.

كانت التعليلة على وشك أن تنتقل من الأحاديث الجدّيّة إلى أحاديث الهزل والمزاح والتعليق على جمال النساء وعلى أخبارهن، وهو تقليد يمارسه رجال العائلة بلا تحفّظ أو حياء، خصوصًا وأنّ الأطفال ممنوعون من الاقتراب من المضافة، فلا حرج من نثر الكلام في كلّ اتجاه، والجميع (يُستثنى منهم عبد الودود) مطمئنّون إلى أنّ نساء العائلة لا يسمعنهم.

تنحنح عبد الودود وقال بصوت متلعثم: يا الربع، ترى أنا أخبركم: إنْ رحلتم رحلنا، وإن بقيتم بقينا.

قال جملته هذه وسكت. غطّت نجمة وجهها بكفّيها وهي محرجة من كلام زوجها الذي جاء خارج أيّ سياق. تنطّح له المختار منّان، وقال وسط الضحكات الهازئة التي انطلقت من هنا وهناك: لو ما تكلّمت كان أحسن لك.

وأضاف: كلامك هذا متأخّر كثير، لو أنّك قلته قبل ما نرحل من البرّيّة كان قبلناه منك.

لم يتلفّظ عبد الودود بأيّ كلام ردًّا على أخيه الكبير لأنّه لا يمكن أن يغضبه، ولأنّه لم يجد في رأسه ما يقوله ردًّا على أخيه. خيّمت لحظة صمت. قال عبّاس وهو ينفخ دخان غليونه الطويل: اقلبوا الموجة، وخلّونا نسمع إنْ كان عندكم أخبار سارّة.

تنحنح عبد الجبّار وقال: اسمعوا يا جماعة، نوينا التزهزه. اليوم عرفت ليش صار عندنا رجال تتحكّم فيهم نسوانهم.

انتبه الجميع إلى ما قاله عبد الجبّار. وبدا أنّ في الأمر ما يثير الفضول. انتبهت نجمة وبقيّة النساء، وأرهفن السمع. تنحنح عبد الجبّار وقال بصوت خافت: يطلعن فوقهم في الفراش.

صدرت همهمات وتعليقات وهمسات وضحكات: يا عيبهم الأنذال، يا عيبهم!

بدا الأمر مستهجنًا. نجمة ومن معها أصابهن حرج ممزوج بانفعالات، والمختار منّان تذكّر أنّه ما زال ينام مع زوجاته بالطريقة التي تعلّمها من أجداده، لكي ينجبن أطفالاً شجعانًا. تأمّل بينه وبين نفسه الوضعيّة المذكورة ولم يستسغها، لاعتقاده أنّ فيها إهانة لذكورته. حتّى عبد الودود لم يستسغها، صدر عنه تعليق محكم هذه المرّة وقال: قلّة الحيا انتشرت في كلّ مكان.

لم يعلّق على كلامه أحد. سمعت نجمة كلام زوجها ولم يصدر عنها أيّ ردّ فعل واضح. والمختار منّان لم يرغب كما يبدو في مزيد من حديث الزهزهة. طلب من أحد أبنائه أن يدير القهوة المرّة على الحاضرين، وأشار بيده إلى شاعر الربابة الجالس في ركن المضافة. فهم هذا الإشارة، هيّأ ربابته ثم ارتفع صوته مغنّيًا على أنغامها في هدأة الليل.

عاد عبد الودود من المضافة، وكان متهيبًا مما سيقوله لزوجته التي لا بدّ من أنّها سمعت تعليق أخيه على كلامه. وجدها صامتة كأنّ في رأسها قرارًا ما. اطمأنّ قليلاً حينما رآها تمضي نحو ركن الغرفة، تفتح صندوق ثيابها وتنهمك في تقليب الملابس. خلع قمبازه والكوفيه والعقال، وكان على وشك أن يندسّ في فراشه وينام حينما رآها في الضوء الشحيح تخلع ثيابها وترتدي رداء خفيفًا ينحسر إلى ما فوق ركبتيها، كانت اشترته قبل أيام من المدينة.

نفخت على مصباح الكاز الجاثم في قرنة الغرفة، تراقصت شعلة اللهب داخل الزجاجة الرقيقة ثم انطفأت، ونامت إلى جواره، وراحت تعرّيه مما بقي على جسده من ثياب. شعر بتغيّر مفاجئ في سلوكها. كانت تبدو في مرّات غير قليلة زاهدة في الاقتراب منه. بدا جسدها أكثر حيوية واندفاعًا، وفيما كان يتهيّأ للنهوض لكي يؤدّي واجبه الزوجي، وجدها تثبّته على ظهره وتصعد فوقه. كاد يزيحها عنه، إذ ما زالت سخريات أقاربه ترنّ في أذنيه، وحينما رآها مستميتة في تحقيق رغبتها استكان لها، وبدا مستثارًا جرّاء ما أبدته من استثارة. ولم يدم الأمر سوى دقائق معدودات.

بدت متعاطفة معه حينما أبدى مخاوفه من عواقب هذه الفعلة التي جرّباها لأوّل مرّة. خاف أن يزداد تحكّمها فيه، وبدا مشوّش الذهن وهو يتمتم ببعض كلام. ابتسمت وطمأنته وقالت: ما تخاف، أنت رجلي المطيع في الأوّل وفي التالي.

لم يردّ على كلامها ولم يشأ أن يدخل معها في حوار كي لا تسوء العلاقة بينهما. وحينما لم يعد لديها ما تقوله، واصلت نومها إلى جواره، وكان هذا جديدًا بالنسبة له. كان من عادتها أن تنام وحدها. بعد دقائق علا شخيره ونام.

ولم يكن المختار منّان مقتنعًا بأنّ أيًّا من زوجاته ستحكمه إذا ما جعلها تهبط عليه من فوق. فتساءل بينه وبين نفسه كيف غاب عنه هذا الأمر من قبل، وكيف غاب عن وطفاء؟ طرق باب وضحاء فوجدها نائمة، ولم يرغب في إيقاظها رأفة بها بعد يوم طويل من الخدمة في البيت وفي الحقل. طرق باب صفيّة فوجدها لم تنم بعد. قالت له إنّها غير قادرة على النوم لسبب ما. ارتاحت نفسها حينما عرفت أنّه سينام عندها الليلة. طلب منها أن تطفئ نور المصباح على غير عادته. أطفأت المصباح، وغطس الاثنان في لُجّة الظلام. دهشت صفيّة مما جرى بينها وبينه هذه المرّة، وتأكّدت من أنّه لم يعد معنيًّا بأنْ يولد له أولاد أشدّاء شجعان.

في الصباح، روت للجارات ولبقيّة زوجاته ما جرى بينها وبينه، وضحكت نجمة، لأنّ أسرار العائلة أصبحت مكشوفة على نحو صريح.

ولم تكن تنقص المستر جون الصراحة أو الوضوح. كانت تصرّفاته ورغباته مكشوفة في وضح النهار. تنفّس الصعداء حينما ظفر بعد انقطاع بموعد مع امرأة من أهل البلاد. كان متهالكًا على إشباع رغبة لم يتمكّن من إشباعها حتى الآن. رآها في حانوت الملابس والعطور وهي تتفحّص الأقمشة والأثواب الطويلة والملابس الداخليّة. أبدى اهتمامًا بها وكان بالصدفة ذاهبًا إلى هناك لكي يشتري فستانًا لصديقته اليهوديّة. حدّق في وجهها بشكل مقصود، التفتت نحوه وابتسمت. قال لها: اسمي جون، وأفكّر في تأليف كتاب عن هذي البلاد.

قالت: اسمي نجمة.

اشترت ثوبًا طويلاً وملابس داخليّة. خرجت وخرج معها جون ولم يشتر فستانًا لصديقته. مشت في السوق ومشى معها. واعدها

على اللقاء في اليوم التالي عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا، بالقرب من باب الخليل.

وهو ينظر نحو ساعة يده الآن. يتمشّى بقلق في مكتبه الكائن في بناية الملك داود المطلّة على سور القدس. يقف في نافذة مكتبه وينظر نحو السور. منذ سنتين انتقل إلى هذا المكتب في قسم الاستخبارات العسكرية، يترجم من العربيّة إلى الانكليزيّة معلومات يستقيها من الصحف والنشرات، ويقدّمها للمسؤولين في قيادة القسم. هنا يشعر بالطمأنينة، فهو غير مضطرّ للذهاب مع الدوريّات العسكريّة، أو للخروج إلى الشوارع لقمع التظاهرات وتفريق المتظاهرين من أهل البلاد. هنا لن تأتيه رصاصة من فلسطيني غاضب. وهنا سوف يمارس عمله، ويتشرّب في الوقت نفسه سحر الشرق، وما زالت أمامه ساعتان.

خطرت بباله فكرة. غادر مكتبه وتوجّه إلى حانوت الملابس والعطور. اشترى ثوبًا طويلاً مثل الذي اشترته نجمة وملابس داخليّة مدروزًا على أسفلها كشكشٌ ناعمٌ أبيض، ومن حانوت مجاور اشترى ثلاث شمعات، فهو يحبّ أن يسدل الستائر ويضيئ الشموع التي تضفي جوًّا شاعريًا على المكان. مشى في سوق العطّارين واشترى بخّورًا وعنبرًا وحبّة البركة وزيتًا. بقيت لديه نصف ساعة، قضاها في التجوال السريع في أسواق المدينة. وقبل الموعد المحدّد كان هناك قريبًا من باب الخليل. وقف ينتظرها، وهو غير قادر على مداراة انفعاله. أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها بعصبية وهو يمشي بنزق خمسة أمتار إلى الأمام وخمسة أمتار إلى الوراء.

مرّ به سقّاء كهل يحمل على ظهره قربة مملوءة بالماء، فكّر حينما رأى جون يمشي متبرّمًا مثل دجاجة على وشك أن تبيض،

باختبار مفرداته القليلة التي يحفظها من اللغة الانكليزيّة، وقف أمامه وسأله: يو سبيك انكلش؟

ردّ عليه جون بخبث: نو.

قال السقّاء بهدوء: بريتش آرمي إنْ بالستاين نت غوود.

ولم يشأ أنْ يفرط في الكلام، اكتفى بما قاله ومضى من غير اكتراث، ولم يتفوّه جون بأيّة كلمة، والساعة الآن هي الثانية عشرة ظهرًا، ولم تأت. انتظرها نصف ساعة. انتظرها ساعة. انتظرها ساعتين، ثم غادر المكان.

اتّجه إلى بيت شوشانا. كم أصبح ضجرًا من صداقة شوشانا! لكنه الآن محتاج إليها بعد هذه الصفعة التي تلقّاها (في أوقات سابقة تلقّى صفعات مشابهة، ولم ييأس من تكرار المحاولات). طرق باب بيتها ووجدها هناك، أسدل ستارة النافذة الوحيدة في غرفة نومها، ثم أشعل الشمعات الثلاث، عرّاها من ثيابها وجعلها ترتدي الملابس الداخليّة والثوب الطويل. تأمّل جسدها بالثوب الشرقي وقال لها: أنت نجمة.

استغربت كلامه، ولم تفهم قصده إلا حينما أشعل النار ونثر البخّور فوقها، لاستجلاب سحر الشرق. قالت له: نعم. أنا نجمة.

انتعش قليلاً لكلامها وشجّعه الضوء الخافت على المضيّ في لعبة التصوّرات، قال: ارقصي مثل نساء الشرق، هزّي بطنك واضربي الهواء بفخذيك وساقيك.

حرّكت شوشانا جسدها النحيل، حاولت أن تهزّ بطنها فلم تتقن الهزّ. رقصت مثل امرأة أوروبيّة في ملهى أوروبي، فلم يعجبه رقصها. بعث اشتعال الشمعات الثلاث في نفسه جذوة مفاجئة. جذبها من يدها وراح يعرّيها ويفرك جسدها من أوّله إلى آخره بالزيت، ولم تحتدم

شهوته. بذل جهدًا لإيهام نفسه بأنّ هذه التي تتمدّد على السرير هي نجمة. نجح في مسعاه دقيقة أو دقيقتين، ثم انجلى الوهم وعادت الحقيقة الصارخة تملأ قلبه المعذّب وتضنيه. إنّها شوشانا التي ملّها ولم تعد ترضيه. وشوشانا ليست من هذا الشرق. وهو لم يعد يجد فيها ايّة إغراءات. امتلكها عددًا لا يحصى من المرّات، امتلكها في غرفتها الصغيرة وفي غرف الفنادق، تحت الأشجار وعلى شاطئ البحر، فوق سطح البناية وفي بركة السباحة داخل الماء. وهو يدرك بوضوح أنّ شغفه الخاصّ يتمثّل بامتلاك مزيد من نساء هذا الشرق. فكيف ومتى يتمّ له ذلك حتى يرتاح؟ أخمد نار الشمعات الثلاث وهو متعجّب كيف لا تخبو رغبتها في الاشتعال. بكى على صدر شوشانا، وشوشانا بادلته بكاء ببكاء.

❖ ❖ ❖

وضحاء هي المرأة التي لن يجد مثلها المختار. ولم يغضب منها إلا عددًا قليلاً من المرّات. غضب منها ذات مرّة حينما عاد إلى البيت بعد يوم طويل قضاه في المدينة. كانت تعدّ له مفاجأة لم يتبيّنها في الحال. وجدها تغطّي وجهها بغمغام عرسها. استغرب أمرها واعتقد أنّها راغبة في إحياء طقوس العرس، ما جعله مستعدًّا للذهاب معها إلى أبعد مما تتصوّر. رفعت ساقها وبان بياض الساق، فاعتقد أنّ ظنونه في محلّها. رأى خلخالاً يطوّق أسفل الساق. فابتهج لمرآه. قالت: هذا من فعل مروادة.

– ما شاء الله!

راح يتأمّل الساق ووضحاء تتخطّر في الدار مثل غزالة، والخلخال يخشخش ويصدر أصواتًا بهيجة. قال: ما بدّك تكشفين عن وجهك؟

كشفت عنه ببطء ودلال ما جعله يجزم بأنّها لم تعد تلك المرأة الخجول التي عرفها من قبل. نزعت الغمغام فأصيب بالذهول. رأى وجهها طافحًا بأشكال متعدّدة من الوشوم الخضراء على جبينها وخدّيها، وعلى رأس أنفها وذقنها. سألته: مش معجبك؟

– لأ، مش معجبني، من هي اللي عامله في وجهك ها العمايل؟ مروادة؟

– أيوه، مروادة.

ظهر الاشمئزاز على وجهه، وشعرت وضحاء بالحرج. توقّعت أنّ زوجها سوف يُسرّ لمنظرها، فإذا النتيجة عكس ما توقّعته، ولم يعد بالإمكان إعادة الوضع إلى ما كان عليه، فاحتملت غضبه أيّامًا عدّة، ثم عادت الأمور تسير سيرها المعتاد. ومع الزمن أصبح المختار يألف الوشوم على وجهها ويرى فيها سببًا من أسباب انجذابه إليها.

أصبح لديه منها بنتان وولد. سَمّى الأولى صبحاء، وكانت طفلة جميلة سمراء. سَمّى الثانية نجلاء وكانت طفلة جميلة شقراء. وتعجّب من هذا، ثم تذكّر الحكمة التي تقول: البطن بستان، فيه من كلّ الألوان. وسَمّى الطفل الذي ولدته وضحاء هذا الصباح: محمّد. فأصبح لديه ثلاثة أولاد يحملون الاسم نفسه. وفي ما بعد صار الناس يطلقون على محمّد الثالث لقب محمّد الأصغر، تمييزًا له عن محمّد الكبير ومحمّد الصغير.

شعر بالعزّة والفخار حينما تذكّر أنّ لديه الآن من نسائه أربعة عشر ولدًا وستّ بنات. دخل على وضحاء بعد أن بشّرته القابلة بولادة طفله الجديد، سلّم عليها وحمد الله على سلامتها. حمل الطفل بين ذراعيه، وحينما سألته وضحاء: شو اسم الولد يا منّان؟

قال من دون تردّد: محمّد.

قالت: اللهم صلّ على سيدنا محمّد.

ولم تكن راضية عن هذا الاسم، ليس لأنّها تكرهه، فهو الاسم الذي يحمله سيّد المرسلين، ولكن لأن لزوجها ولدين آخرين يحملان الاسم نفسه. كانت ترغب في أن يكون لطفلها الذي انتظرته بشغف اسمٌ خاصّ به لا يشاركه فيه أحد.

حينما لاحظت مرجانة بعض الكدر على وجه ابنتها، اقتربت منها وقرصتها بالخفية في خاصرتها، لأنّها لا ترغب في أيّ سوء فهم. لم يلاحظ منّان ما اعتمل في رأس وضحاء، وبان إلى حدّ ما على وجهها. كان مأخوذًا بالفرحة التي شغلته عن أيّ شيء. نظر إلى مرجانة وقال: غزّي الرايات يا مرجانة.

راحت مرجانة تعدّ الرايات وهي تزغرد، واتّجه المختار إلى مضافته وجلس متأمّلاً رحلة حياته التي رأى خلالها كثيرًا من البشر، وجرّب كثيرًا من الفرح وتجرّع في الوقت نفسه كثيرًا من الأحزان.

في المساء، تقاطر عليه المهنّئون بميلاد محمّد الأصغر، وهو آخر أطفاله الذكور حتى الآن. كانت تلك مناسبة لتذكّر الماضي الجميل، حيث راحة البال وبساطة العيش وتآلف الناس وتراحمهم، أو هذا ما يشعر به المختار والجالسون في مضافته. إذ كلّما عاد الناس بأذهانهم إلى الوراء شعروا بحنين إلى الماضي، ربّما لأنّه جزء من حياتهم التي مضت وانقضت، لكن، لو تذكّروا بدقّة تفاصيل الشقاء الذي عاشوه لما تأسّفوا على أيّامهم السابقة، ولأدركوا أنّ أيّامهم الراهنة في بيوتهم التي من حجر هي أفضل كثيرًا مما سبق، رغم ما يواكب هذه الأيّام من مخاطر وهموم.

حينما غادره المهنّئون توجّه إلى بيت أمّه التي كانت مسرورة لأنّ لابنها منّان ثلاثة أولاد يحملون الاسم نفسه، وهو اسم جدّهم محمّد. تذكّرته وقالت: الله يرحمه ويسامحه ويسامح جميع خلق الله.

– من هو يا أمي؟

– أبوك.

– آمين يا رب العالمين يا سميع يا مجيب ويا رحمن.

ثم استرسلت في سرد حكاية عن زوجها، والد منّان.

❖ ❖ ❖

في بعض الأحيان، كان من عادته أن يغادر المدرسة لساعة أو ساعتين، يذهب إلى المدينة لقضاء شأن من شؤونه أو يمضي الوقت في بيته لسبب ما، أو يخرج إلى الحانوت يقضي فيه وقتًا يتحاور مع عثمان وغيره ممن يجدهم هناك، وفي تلك الأثناء، لم يكن يضع ثقته إلا في نوال. ينصّبها مسؤولة عن المدرسة أثناء غيابه. تضبط الأولاد والبنات، ولا تسمح لأحد بالخروج من المدرسة إلا بعد اقتناعها بسبب مشروع للخروج. تطلب من الأولاد الصغار أن ينسخوا درس القراءة، ينشغل الصغار بالنسخ. وتطلب من البنات والأولاد الأكبر سنًّا أن يردّدوا الأناشيد بصوت جماعي وبإيقاع موحّد، فتنطلق الحناجر منشدة، وتكون نوال في طليعة المنشدين والمنشدات.

يعود الخطيب إلى المدرسة ويجلس على كرسيه وهو يتابع أداء نوال، فيبدو معجبًا بضبطها للمدرسة وبسيطرتها على البنات والأولاد. يزداد إعجابًا بها يومًا بعد يوم، ويتوقّع لها مستقبلاً حافلاً بالنجاحات.

ينتبه إلى أنّها لم تعد طفلة. جسدها الممشوق غادر الطفولة منذ زمن، وهو يخشى أن يُخرجها أهلها من المدرسة. صار يخشى أن

يأتيها أحد الخطّاب من أبناء عشيرتها. فتمنّى أن تُعمى العيون وأن ترتدّ عنها لتبقى أطول مدّة ممكنة في المدرسة.

ولم تكن عينا أمّها نجمة تغفلان عنها لحظة واحدة. هي تعرف أنّ جسد ابنتها ينضج على نحو لافت للانتباه، وهي راغبة في استمرار تلقّيها العلم في المدرسة. ولم يكن اهتمامها بها يصرفها عن متابعة شؤونها الخاصة، لأنّها نجمة التي تتنوّع اهتماماتها ورغباتها.

التقت في الحمّام للمرّة الثالثة بامرأة هادئة الطباع. سألتها: ممكن اعرف إسمك؟

– اسمي عفيفة.

– اسمي نجمة.

ونشأت بين المرأتين صداقة، وتكرّرت بينهما الأحاديث. أبدت عفيفة إعجابها بنجمة وعرضت عليها العمل في بيتها، فهي تعمل معلّمة ولديها ثلاثة أطفال، وزوجها حنّا يعمل مديرًا في بنك، وهما بحاجة إلى من ترعى أطفالهما أثناء وجودهما في العمل. دعتها بعد الحمّام إلى بيتها. ذهبتا معًا، ومشت نجمة إلى جوار عفيفة وشعرت بزهو، وتمنّت لو أن نساء العائلة يرينها وهي تمشي مع المعلّمة مشية الندّ للند، رغم أنّها لم تذهب إلى مدرسة ولم تتعلّم حرفًا واحدًا.

في الطريق، روت نجمة لصديقتها عفيفة ما جرى بينها وبين الانكليزي جون. قالت إنّها فكّرت بأن تلطمه على وجهه حينما راح يتبارد عليها، ثم قدّرت أنّ هذا التصرّف سيلفت انتباه الناس في السوق، وسيكثر الكلام الذي قد يطالها بسوء. قالت: أكيد، هو راح إلى الموعد وأنا ما رحت.

علّقت عفيفة وهي تبتسم:

– تصرّفك صحيح.

وصلتا باب الخليل، وركبتا سيارة إلى حي الطالبيّة حيث تسكن عفيفة. يتكوّن البيت من ثلاث غرف، وحوله حديقة لها سور مرتفع. تناولت نجمة طعام الغداء مع عفيفة وحنّا، ووعدتهما بالتفكير بأمر العمل في بيتهما، وقالت إنّها ستخبر زوجها بكلّ شيء. وحينما سألها حنّا عن عمله، قالت: يشتغل في الحقل، ويربّي الأغنام.

اقترح عليها أن يأتي زوجها معها، لكي يعمل مراسلاً في البنك، وفي ساعات ما بعد الظهر يمكنه الاعتناء بحديقة المنزل مقابل مبلغ من المال. قالت وهي مرتاحة لاقتراحه: ان شاء الله يصير خير.

غادرت بيتهما، وفي جعبتها أخبار وحكايات.

ولم يغب عن بالها أنّ نوال أصبحت في الخامسة عشرة. ختمت المصحف، وأتقنت جدول الضرب وقراءة كتاب اللغة العربيّة، وحفظت كثيرًا من الأشعار والأناشيد الوطنيّة والدينيّة، وبدا عليها التفوّق الملحوظ في الدراسة، ما جعل الخطيب عبد القادر يضمر لها في قلبه مزيدًا من الإعجاب.

وإلى جانب تفوّقها في الدراسة، تبدّت أنوثتها على نحو صريح، فاختلطت مشاعر الخطيب تجاهها وتشابكت. كان ينظر إليها في السابق بوصفها طفلة يكنّ لها تقديرًا كما لو أنّها ابنته، ويمحضها عواطفه وحبّه على هذا الأساس، ثم تغيّرت مشاعره. صار يقول في سرّه كلّما رآها: يا أرض احفظي ما عليك.

وصارت أنوثتها تأخذه إلى منعرجات غامضة لا يجرؤ على السماح لها بالتغلغل في قلبه إلا على نحو محدود، يصدّها ويقصيها ويقرأ بعض قصار السور من القرآن الكريم. وفي الليل كانت أحلامه تشي بأنّ عاطفة الأبوّة التي يكنّها لنوال تلاشت وحلّت محلّها عاطفة أخرى. يراها وهي تقترب منه في المساء. يتأمّل جسدها الوافر وهي

تنحني لتقدّم له فنجان القهوة. يستغرب كيف تحضر له القهوة وهو نائم، تقول له أنت لست نائمًا، أنت تنظر إلى صدري وأنا أنحني. يقول لها إنّ عينيه وقعتا صدفة على صدرها، وعليها أن تبتعد، وأن تحُكم قبضتها على فتحة ثوبها كي لا يندلق أحد النهدين أو كلاهما منها. تسأله: هل أنت راغب فعلاً في أن أبتعد؟ سأذهب إلى بيت أهلي ولن أعود. ينهض ويلحق بها وهي تحاول الخروج من الباب، يقبض على يدها ويجذبها نحوه، تلتصق بصدره، ويصحو من نومه وهو لاهث الأنفاس.

قال لها قبل أن تدخل غرفة الصف: إلى متى تستمرّين في الدراسة؟

قالت: لحد ما تقول لي: هذا يكفي.

قال: هذا يكفي. أنت كبرت وعليك أن تهتمّي بجسدك.

– ما له جسدي؟

– البنات اللي في مثل عمرك متزوّجات.

– كل شيء قسمة ونصيب.

ولم تضف إلى كلامها أيّ كلام. والخطيب ظلّ صامتًا ولم يفصح عن غايته، إلا أنّه راح يمنّي نفسه بالزواج من نوال، لكي تحمل منه وتلد بنتًا يسمّيها نوال.

في المساء، أرسل علي أوغلو لكي يخطبها له من أبيها. تردّد علي أوغلو ثم جاء وطلب يد نوال للخطيب الذي يكبرها بعشرين سنة. بدا عبد الودود راغبًا في تزويج ابنته طلبًا للستر، واستجابة لما هو متعارف عليه بين العشائر: البنت إذا جاءها النصيب فلا تحرمها من نصيبها. لكنّه لا يستطيع البتّ في الأمر قبل التشاور مع نجمة. وحينما

تشاور معها، كان جوابها الرفض القاطع، مع تقطيبة على وجهها جعلته غير قادر على الكلام.

في اليوم التالي، لم ترسل ابنتها إلى المدرسة. جعلتها تتغيّب عنها ثلاثة أيّام، وفي الأثناء حاولت أن تعرف كيف تفكّر ابنتها. سألتها إن كانت راغبة في الزواج من الخطيب. زمّت نوال شفتيها وأجابت بالرفض. قالت: هذا مثل أبوي. سألتها إن كانت لها رغبة فيه، وهي تخجل من البوح برغبتها. قالت بصراحة ووضوح إنها لا ترغب فيه.

تكلّمت نوال ببراءة وعفويّة ومن دون انفعال. وكانت أمّها معنيّة بأن تُتمّ ابنتها دراستها حتى نهاية السنة الدراسيّة، قبّلتها على جبينها ونصحتها بأن تأخذ حذرها من الخطيب ومن غيره، وبأن تنتبه لنفسها ولا تذهب إلى بيته كما كان الحال في السابق. نصحتها بأن تكرّس وقتها لدراستها. هزّت نوال رأسها موافقة على كلّ كلمة قالتها أمّها.

تضايق الخطيب لأنّ أهل نوال لم يلبّوا طلبه، وتضايق أكثر لأنّ نوال غابت عن المدرسة. في اليوم الأوّل لغيابها اعتقد أنّها متوعّكة. وقع في بلبلة وحيرة، واعتقد أنّها ترغب في الزواج به إلا أنّ أهلها هم الذين رفضوه. أخبره علي أوغلو أنّ أباها أبدى موافقته وأنّ أمّها هي التي رفضت طلبه. شعر بالنقمة على نجمة. منذ رآها أوّل مرّة، أدرك بأنّ هذه المرأة صعبة المراس، وبأنّ التفاهم معها ليس سهلاً. أكيد، كانت لدى نوال رغبة في الزواج به، وأمّها هي التي قمعت رغبتها ولم تسمح لها بالتعبير عنها، ولهذا السبب أصابتها وعكة صحيّة منعتها من القدوم إلى المدرسة.

في اليوم الثاني، لم تأت نوال إلى المدرسة. تكدّر الخطيب، وشعر بامتعاض. هل أصيبت بوعكة صحّيّة حادّة؟ هل تعرّضت لأذى على يدي أمّها؟ هل قرّرت أمّها منعها من تلقّي العلم في المدرسة؟ ليته استعان بالمختار منّان، أكيد المختار لم يكن ليعارض على زواجه بابنة أخيه، لأنّه هو نفسه تزوّج بامرأة صغيرة السن، وهو أكبر منها بأكثر من عشرين سنة.

في اليوم الثالث، اعتقد الخطيب أنّ نوال لن تعود إلى المدرسة. فانقلب مزاجه، ولام نفسه لأنّه فكّر في الزواج من تلميذة على مقاعد الدراسة. وهو لم يقدم على طلب يدها إلا لاقتناعه بأنّ هذا أمر لا غبار عليه، وليست فيه أيّة منافاة للشرع، ولديه قصص عن شيوخ ومعلّمين تزوّجوا تلميذاتهم اللواتي تلقّين العلم على أيديهم، وكنّ خير زوجات لهم، وخلّفن لهم أولادًا نابهين وبنات.

انقلب مزاجه وشعر باستياء، لأنّ غياب نوال لليوم الثالث جعله في غاية الاضطراب. وما زاده اضطرابًا أنّ ثلاث تلميذات تغيّبن في هذا اليوم، وعرف من زميلاتهنّ أنّ أهلهنّ استاءوا من رغبة الخطيب في الزواج من تلميذته، فمنعوا بناتهم من الاستمرار في تلقّي العلم على يديه.

في اليوم الرابع جاءت نوال. وبدت أكثر تحفّظًا في تعاملها معه، وأمّها تعي أنّ ابنتها لن تستمرّ في هذه المدرسة إلا لما تبقّى من أسابيع على انتهاء السنة الدراسية، وسيكون لها وضع آخر لم تشأ أن تفصح نجمة عنه لأيّ أحد، لاعتقادها أنّ الكتمان ضروريّ للوصول إلى ما تصبو إليه نفسها.

11

أضيئت الساحة التي تتوسّط بيوت العبد اللات بثلاثة لوكسات (من الماركة التي يبيعها عثمان) سطع نورها وامتدّ نحو أبواب البيوت والطرقات المؤدّية إليها، بدت الساحة مكشوفة على نحو أثار مشاعر متضاربة في صدور النساء اللواتي جئن إلى بيت العرس للرقص والغناء. هذه الليلة، سيحتفل المختار منّان وأبناء عشيرته وعشائر أخرى من راس النبع بعرس ابنه وطّاف. تقاطر الرجال على الساحة بعد الغروب، وجاءت النساء وامتلأت بهنّ دار المختار. وظلّ الأولاد يتراكضون في الساحة وهم يتصايحون ويغنّون: مبارك عرسك يا عريس.

جلس المختار في صدر الساحة ومن حوله عدد من وجهاء العشائر ابتهاجًا بالعرس. ولم تحدث المفاجأة منذ البداية. جاء حدوثها متأخّرًا بعض الشيء.

ابتدأت السهرة بالسامر الذي اصطفّ فيه الرجال في صفّ مستقيم وهم يهزجون.

كان السامر يبعث في نفوس الرجال ذكريات مضت، ويستثير مشاعر ظلّت خافتة وهي الآن تتأجّج بفعل هذه الأصوات التي تخترق المدى وتصل إلى أسماع نسوة يلذّ لهنّ سماع أصوات الرجال.

بعد السامر، حان وقت الدبكة على أنغام الشبّابة. وقف أحد الرعاة في وسط الساحة وانعقدت من حوله حلقة الشباب، وهم يقبضون على أيدي بعضهم بعضًا. أطلق الراعي نغمًا من شبّابته وغنّى أحد الشباب أغنية. سمعته النساء المحتشدات عند الشبابيك وفي باب البيت لمراقبة الدبكة، فأطلقن الزغاريد وقمن بالردّ على الغناء بالغناء.

اشتعلت قلوب الشباب وازدادت حماستهم، وبدا كما لو أنّ هنالك شيئًا من التواطؤ الخفي بينهم وبين البنات، فراحوا يرجّون الأرض بحركات أرجلهم التي ينتظمها إيقاع محدّد يجعل لها أثرًا ممتعًا في النفوس.

وقف وطّاف في رأس حلقة الدبكة، وإلى جواره أخوه أدهم. ولأنّه اللوّيح، فله الحقّ بأن يفلت يد أخيه وينطلق في الفسحة الواقعة داخل الحلقة، يتنقّل فيها بخفّة ورشاقة ثم يعود إلى مكانه الأوّل. رجَّ وطّاف الساحة بخبطات قدميه الكبيرتين، وهو يدبك الآن بعنفوان لأنّ الليلة هي ليلة عرسه.

ولم تقع المفاجأة إلا حينما جاء أصهار وطّاف إلى السهرة. جاء فرقاد والد العروس ومعه رجال الغجر ونساؤهم. تدفّقوا نحو الساحة بعد أن انتهت الدبكة. نقرت إحدى نساء الغجر بأصابع يديها على الدف، وهزّت مروادة خصرها ورقصت. رقص رجال الغجر معها ورقصت النساء. اجتذبت مروادة عريسها من يده ورقصت معه، وهو رقص معها.

دُهش المختار منّان مما رأى، وتذكّر ليلة النار في البرّيّة، (مع فارق بطبيعة الحال بين الليلتين) حينما رقص الرجال والنساء معًا.

تذكّر وطفاء وما جرى بينه وبينها. وبدا مستغرقًا في الذكريات حينًا وفي متابعة ما يجري أمام عينيه حينًا آخر. وتعجّب بينه وبين نفسه كيف أنّ نوازع البشر تتشابه على نحو ما. وهمّ في لحظة معيّنة أن ينهض وينطلق نحو الساحة ليرقص مع الراقصين.

نظر نحو أطراف الساحة، ففوجئ بنسوة العشيرة وقد خرجن من البيت، وتجمهرن قريبًا من الساحة ليتابعن نساء الغجر وهنّ يرقصن مع الرجال. بل إنّ بعض بنات العشيرة كنّ من موقعهنّ يقلّدن رقص الغجريّات، يتمايلن ويحرّكن خصورهنّ وهنّ ثابتات في أماكنهن. وفيما انشغل أكثر شباب العشيرة بمتابعة المشهد من مسافة ما، اندفع آخرون للرقص مع الراقصين والراقصات.

ازدادت دهشة المختار وردّد في سرّه: هذي الحياة، قدّيش فيها عجايب ومسرّات! تذكّر وطفاء مرّة أخرى وترحّم على روحها. تذكّرها حينما عاد من مضافة أبيه واستلقى إلى جوارها، وكانت البرّيّة آنذاك عرضة لتقلّبات لم تكن في البال. تقلّب في الفراش وتقلّبت وطفاء واصطدمت ساقاها بساقيه، فأعجبته هذه المناوشة الصامتة بين الجسدين. أرسل ساقه على امتدادها لتستقرّ فوق بطنها، فأدركت أنّ لحظة التجلّي حانت. وكان لا بدّ من كلام يصعّد المشهد إلى ذروة ما. قالت هامسة: خذني إلى مكاننا الأوّل.

دهش من اقتراحها، وتذكّر ليلة النار وما تخلّلها من تفاصيل. نهض من فراشه وقال: تعالي.

جذبها من يدها فأصبحت قامتها محاذية لقامته، وخرجا في العتمة الساجية. اضطجعا فوق التراب وكرّرا المشهد الأوّل بما انطوى عليه من هياج، واستعادت هي ردود فعلها الأولى، وبدت مضطربة

النفس لأنّها تعرض جسدها في الخلاء تحت سماء بنجوم لا حصر لها. كادت تنتفض مثلما انتفضت من قبل، ولم يلبث جسدها أن استكان حينما انتبهت إلى أنّها في حضن زوجها. استمرّ المشهد حتى الذروة المشتهاة، عاد بعدها منّان ووطفاء إلى فراشهما يخيّم عليهما سكون الليل الذي يملأ الأرجاء.

استلقى إلى جوارها وهو يفكّر في اختلاف أمزجة النساء، وفيما كانت أنفاسها تنتظم وهي تغرق في نوم لذيذ ظلّ يغبط نفسه على الاقتران بها، ويشعر بفرادة تلك الليلة الأولى التي جمعته بها. هزّ رأسه وقال لنفسه: هذي الليلة نفرح بعرس ابنها، وليتها كانت هنا لتشاركه الفرحة في عرس وطّاف. وتساءل إنْ كان أدهم ووطّاف يذكران أمّهما في مثل هذه الليلة. أمّه صبحاء لا بدّ من أنّها تتذكّرها الآن. سألته قبل أيّام فيما إذا كان صحيحًا ما سمعته يتردّد على ألسنة النساء عن وطفاء. قالت إنّها عرفت هذا الأمر من وقت طويل، ولم تشأ أن تسأله عنه لأنّها لم تصدّقه. وحينما ألَحّ عليها بضرورة الإفصاح عمّا لديها من كلام، قالت إنّها سمعت أنّ وطفاء كانت تعبد الحجارة التي جمعتها في بيتها في البرّيّة. ابتسم منّان لهذا الكلام المزوّر وطمأن أمّه بأنّه غير صحيح. تساءلت صبحاء: والا ليش كانت تجمع الحجارة في البيت؟ أخبر أمّه بأنّ هذه كانت رغبة وطفاء التي رافقتها منذ الطفولة، وهي رغبة بريئة لا تؤذي أحدًا.

ولم يشأ أن يعلّق على انتقال هذه الرغبة إلى وطّاف ما دامت أمّه لم تتطرّق إليه. وهو لا يدري إنْ كانت أمّه اطمأنّت بالفعل إلى كلامه أم أنّها تظاهرت بالاطمئنان. ولم يقطع عليه تأمّلاته سوى بعض وجهاء العشائر ممن كانوا جالسين من حوله. لاحظ أنّهم يتململون ويتهامسون، ولم يسمع شيئًا من همسهم.

شعروا بالحرج جرّاء ما يجري أمام عيونهم، ونهامسوا في ما بينهم: العبد اللات فسقوا والعياذ بالله.

– صدق من قال: جدّهم الأوّل أبو لهب.

ثم تعلّلوا بأنّ النعاس غلبهم فانسحبوا عائدين إلى بيوتهم، ولم يغب عن بال منّان السبب الحقيقي لانسحابهم، ما جعله ينهض ويطلب من الجميع أن يتوقّفوا عن الرقص.

كان وطّاف هو الذي تفاجأ أكثر من غيره مِمّا فعله والده، لكنّه لم يشأ أن يعكّر بهجة العرس، فلم يتدخّل في الأمر. قال المختار بصوت لا يظهر فيه أيّ أثر للاستياء: يعطيكم العافية، والنسوان إلى داخل البيت.

لم تحتجّ النساء على كلامه، حتّى مروادة لم تحتجّ ولم تخالف رغبة والد عريسها. اتّجهن جميعًا إلى داخل البيت، واستمرّت السهرة إلى منتصف الليل. ولم ينم المختار إلا قبل الفجر بقليل. أفكار كثيرة غزت رأسه وجعلته قلقًا حينًا مطمئنًّا حينًا آخر، فهو محبٌّ للحياة، وفي الوقت نفسه فإنّه يخشى كلام الناس الذي لا يرحم أحدًا، ويشغله التفكير بالخطأ وبالصواب وما بينهما من احتمالات. أخيرًا حسم الأمر بجملة سيظلّ يردّدها كلّما اتخذ قرارًا يمكن تأويله على أكثر من وجه، أو كلّما أربكته معضلة ما: خلِّ الكون يعمر.

قالها لنفسه مرّات عدّة، ثم غزا النوم عينيه ونام.

❖ ❖ ❖

على النقيض من والده كان وطّاف. لم يكن يكترث لكلام الناس، ولا يحسب أيّ حساب لاحتمالات الخطأ والصواب. يأكل حتى يشبع،

ويشرب حتى يرتوي ولا يهاب أحدًا مهما ادّعى الشجاعة، وهو معنيّ بعزّة نفسه وبكرامته، وما قبلها هيّن، وما بعدها هيّن. وهو لا يؤذي أحدًا رغم قوّته المفرطة.

عاش مع مروادة بأتَمّ انسجام. ظلّت غريزة الأنثى تستحثّها على إحاطته بالعناية القصوى، وظلّ ذكاؤها الفطريّ يحفّزها على استنفار كلّ مكامن الحبّ والرغبة والعطف والوفاء في داخله، فلا يفارقها. يطلب منها أن تريح رأسها على صدره في الليل وتنام، ويحملها بين ذراعيه مثل طفلة في النهار كلّما خرج إلى الحقل ليحرثه أو لكي يقلّم الأشجار، أو كلّما ذهب إلى بيت والده.

تعجّبت نساء العشيرة من ولعه بها، ومن فرادة الحركات التي تبدر منه تجاهها، إذ تبدو كالعصفورة بين ذراعيه وهو يجتاز الطريق نحو بيت والده. مروادة تشعر بالزهو وهي ملتصقة بجسد زوجها، وحينما يقترب من باب البيت تطلب منه أن ينزلها لكي تمشي على قدميها، يقول لها: تنزلين بعد ما ندخل البيت.

يدخل على أبيه وهو يضمّها إلى صدره، فلا يبدر من الأب أيّ كلام. ينظر نحو مروادة التي تبدو خجلة من نظرات والد عريسها، فيغضّ الوالد طرفه، ويرحّب بابنه وبزوجته. يجلس وطّاف على فرشة من صوف، وتجلس مروادة إلى جواره وهو يقرّبها منه على نحو حميم.

ينتظران طعام الغداء، ويقضيان وقتًا ممتعًا وهما يستمعان إلى أحاديث الوالد عن البرّية وعن وطفاء. وطّاف يتذكّر البرّيّة وقد عاش طفولته فيها، ولطالما ركض في سهولها وصعد جبالها مع غيره من الأولاد، ولطالما تحدّث الناس عن جسارته حينما لم تجرفه مياه السيل وهو ولد يلعب مع الأولاد. وطّاف يتذكّر تفاصيل كثيرة عن

البرّيّة، لكنّه لا يتذكّر شيئًا عن أمّه التي ماتت بعد أن ولدته، وهو مشغوف بكلّ كلمة يحكيها أبوه عنها. الأب يقول إنّها كانت امرأة ولا كلّ النساء. كانت جميلة متينة الجسد، لا تُغضب زوجها ولا تجعله ينفر منها، ترحّب بالضيوف، حتّى لو جاءوا بعد موعد العشاء، تعجن الطحين وتوقد النار وتخبز الخبز على الصاج، وتطبخ اللحم للضيوف، يقدّمه منّان لهم هنيئًا مريئًا، ويشربون القهوة المرّة ويسمرون إلى ساعة متأخّرة من الليل ثم ينامون، وتنام وطفاء.

يواصلان الاستماع إلى حكاياته إلى أن يحضر الطعام، يأكلانه بشهيّة ثم يغزو النعاس عيني الوالد الذي اعتاد أن يظفر بغفوة بعد الغداء. يتركانه سابحًا في بحر النوم ويخرجان، هو بقامته العالية وهي بجسدها النحيل.

والنساء يواصلن تأمّل هذه الألفة التي لم يجرّبنها، مع أنّهن راغبات فيها، ويتواصل همسهن: نصيبها مروادة، ما أحسن حظّها!

كانت مروادة تعي أنّ النساء يحسدنها على هذا الحبّ الذي يغمرها به وطّاف، ولم تكن تتباهى به أو تتعالى على النساء. كانت تظلّ على سجيّتها إمرأة بسيطة قانعة بحياتها مطمئنّة إلى نوايا زوجها التي لن تتبدّل مع الأيّام. هذا ما يقوله قلبها لها.

كان وطّاف يتحسّس بطنها في الليل، ليتأكّد إنْ كانت حبلى. يتنمّل جسدها وتنتعش أحاسيسها وهو يقول إنّه راغب في أن تحبل وتلد بنتًا يسمّيها وطفاء، تكريمًا لذكرى أمّه. كانت مروادة تبدي ارتياحها لهذه الرغبة، ويكبر حبّها لوطّاف الذي يريدها أن تخلّد ذكرى أمّه بمولود ينزل من بطنها، يتوق جسدها إلى الحبل الذي لم يحدث حتّى الآن.

ولا تستقرّ مشاعرها على حال، إذ سرعان ما ينقلب مزاجها حينما تتذكّر أجدادها. تقضي قسطًا من الليل وهي تبكي، تضع رأسها على صدر وطّاف وتبكي على الأجداد الذين تجرّعوا العذاب في البلدان البعيدة قبل أن يأتوا إلى فلسطين، ويعيشوا بين أهلها. تقول إنّهم كانوا يتعرّضون للتعذيب في السجون، وكانت خيامهم تُقتلع بقسوة ويؤمرون بالرحيل إلى أمكنة نائية. وفي أحيان كثيرة، كان بعض الأوروبّيّين يمزّقون شمل العائلة الواحدة، يأخذون الأطفال من آبائهم وأمّهاتهم، يضعونهم في الملاجئ ويطلقون عليهم أسماء غير أسمائهم، ويفرّقون الأزواج عن زوجاتهم كي يحدّوا من تناسل الغجر، على أمل أن ينتهوا من الوجود.

يسرّي وطّاف عنها ويخفّف من أحزانها الثاوية في أعماقها وهو يمسّد شعرها، ويسألها: انت شو بعرّفك عن عذاب الأجداد؟ تقول له إنّ أباها روى لها كلّ شيء عنهم منذ كانت طفلة، وهي نشأت وكبرت على وقع الأحزان وعلى تأثيرها المؤلم في نفسها. يجفّف وطّاف دموعها ولا يكفّ عن ملاطفتها إلى أن تتوقّف عن البكاء وتغفو ثم تنام.

وذات مساء، عاد من الحقل ومعه مروادة. كانت ترتكز بردفيها على ذراعه اليمنى وهو يجتاز بيوت أهله وأقاربه. بدَت مثل طفلة مدلّلة. وخطر ببالها المشهد القديم حينما كانت تبول في سروالها، تعنّفها أمّها وتلومها. تجرّها إلى اللقن المعدني الدائري، تنزع عنها ملابسها، وتسكب الماء على جسدها، تخرجها من اللقن وتُلبسها ملابس نظيفة ثم تتركها من دون كلام.

حينما غادرت طفولتها، تعاظمت رغبتها في الاغتسال بعد البلل. صارت تتحكّم في مسامات جسدها على نحو عجيب. ترسل

إليه إشارات في الوقت الذي تشاء، فيسيل عرقها مثل مطر غزير، تبتلّ ملابسها، تخلعها وتسارع إلى الماء، تغتسل وهي في أتَمّ استمتاع.

وهي جالسة على ذراعه، خطر ببالها أن تختبر صبره عليها إذا ما مارست هوايتها، هل سيغضب منها مكرّرًا سلوك أمّها معها؟ سترى وليكن ما يكون. غامت عيناها وهي ترسل الإشارات إلى مسامات جسدها وتضغط عليها، وعلى الفور أحسّ وطّاف بسائل ساخن يبلّل ذراعه وخاصرته. سألته بصوت خافت: تبلّلت؟

قال لها بإذعان: تبلّلت.

– انت زعلان مني؟

– أبدًا.

أضاف وهو يتوقّع ما ترغب فيه: بعد قليل أحَمّمك.

سخّن ماء في وعاء معدني، قبض على ذيل ثوبها وعرّاها وهي مستكينة مثل طفلة بين يديه. حملها من خاصرتيها وثبّتها في اللقن، وقفت مثل سروة مضمومة الأغصان. وَحْوَحَتْ وتدلّلت وتغنّجت وهو يسكب الماء على جسدها، ثم وهو يفرك الجسد بالليفة والصابون. ولم يعنّفها قبل الاغتسال أو بعد الاغتسال مثلما كانت تعنّفها أمّها. نشّف جسدها بمنشفة، ثم احتضنها ومدّدها في الفراش.

في تلك الليلة كانت صبحاء تحكي مع نفسها بصوت مسموع: والله غيبته ما هي ببلاش. ما مرّ الليلة لا هو ولا عبد الودود ولا عبّاس، ولا واحد من الاولاد، ولا واحدة من البنات. الله أعلَم شو صار لهم! يجوز انّه منّان تعبان ومش جاي على باله يسهر. والليلة خلاني لحالي وغاب. ما هو عنده هموم كثيرة يا ويلي عليه. همّ النسوان، وهمّ الاولاد والبنات. وهمّ العيلة والعشيرة والقرية والبلاد، وعسكر

الانكليز اللي جرّوه للحبس وخلّوه فيه أسبوعين. وبعدين، عنده بنت شردت من الدار، ومحمّد الكبير داير من بلد لبلد يسكر ويخمر، ولا عنده زوجة ولا ولد. ومحمّد الصغير أهبل يا ويل امّه عليه. ووطّاف دايمًا عابط مـروادة في حضنه ودايـر فيها من دار لـدار، تقول إنه متباهي فيها وإنه ما في إلها مثيل بين النسوان. بس شو بدنا نقول؟ وطّاف ما حدا يقدر يحكي معه، وما حدا بيدري وينتا بيزعل وبصير مثل الثور الهايج. والا يوسف اللي ما حدا بيعرف وين هو؟ وينك يا يوسف؟ انجرح قلب ابوكِ عليك؟ من يومِ ما التحقت بالثوار ما واحد بيعرف انت وين؟ والثورة انتهت وانت بعدك غايب يا يوسف. خلّوني لحالي الليلة وما حدا طل عليّ. الله يستر ليكون صار شي في العيلة وانا مش عارفة. ومنّان ما طل. يمكن وضحا ما خلّته يطلع من عندها. هذي بطحا اللي قلنا عنها يا ما اعقلها! طلعت مخبّية في قشورها. مش قليلة هالبطحا. دايمًا ملزّقة في منّان، ليل نهار، مثل القرادة. مصّت دمه يا قبرت سلالتها، تقول انها لا تشبع ولا تقنع. والله لولا الحيا اني بدّي اقول له: يا بنيي ما تخليها تظلّ ملزّقة فيك، ينشف دمك وما تعود قادر توقّف على رجليك. ومنّان ما يطلع من الدار وما يروح على محلّ الا لما يأخذ إذن من بطحا. إني أخاف الله، إنها عامله إله سحر. منّان ابني وانا عارفته. منّان ما كان هيك. صارت بطحا مش ناقصها غير تحط سرج على ظهر منّان وتركب عليه. الدنيا آخر وقت، وكل شي في هالدنيا تشقلب فوقاني تحتاني. والله يجور على عسكر الانكليز مثل ما جاروا علينا، ويبعد عنّا أذى اليهود اللي أجونا من برّا البلاد، وخلّوا عيشتنا نكد في نكد. والله خلّوني لحالي الليلة، ومنّان ما طلّ. وأحسن إشي اني أصلي وأحط راسي على المخدّة وأنام.

أخيرًا، نام محمّد الكبير على الجنب الذي يريحه كما يقال. وجد متعته في الاستقرار في القدس. ترك يافا وعاد إلى القدس. اعتاد قبل استقراره فيها أن يتجوّل في أسواقها من الصباح إلى المساء، ثم يعود ماشيًا إلى راس النبع. أصبح شغفه بالمدينة أكثر مما كان متوقّعًا. كان يقول لأصدقائه حينما تضمّهم جلسة سمر: يافا هي أجمل مدن فلسطين. الآن، بعد جولاته العديدة في شوارع القدس وأسواقها صارت المدينة أقرب إلى قلبه. وأصبح غير قادر على مفارقتها، يجوب الأسواق ويتمعّن فيها، ويقترب من دور العبادة: هنا مسجد وإلى جواره كنيسة. هنا درج صاعد وهناك ساحة تحيط بها الحوانيت، وتنتصب من حولها البنايات. وللمدينة أبواب عدّة، وهو في العادة يدخلها من باب الخليل أو من باب المغاربة.

كان يدخلها أحيانًا من باب الأسباط، يصعد الطريق الممتدّة من كنيسة الجثمانية وينعطف نحو اليسار، ويصعد طريقًا صعبة المرتقى ويكون سور المدينة ممتدًّا أمامه وهو يحيط بالمدينة إحاطة كاملة، ويمشي حتّى يصل باب الأسباط، يدخله ويتجوّل في الأسواق وهو منشرح القلب. كم يحبّ محمد الكبير مشهد المدينة حينما يصلها في الصباح!

جرّب مِهنًا عدّة فيها. في البداية، اشتغل حمّالاً يحمل أكياس الطحين على ظهره، ويحمل سلال الخضروات، وحقائب السيّاح القادمين من خارج البلاد (في يافا، عمل أجيرًا في محلّ لبيع الأسماك، ثم نادلاً في مطعم). لم يجتذبه إلى هذه المهنة سوى ولعه بالتقرّب من السيّاح، فلم تقف أحلام يقظته عند حد. توقّع أنّ سائحة وزوجها العجوز سيعجبان به فيسارعان إلى بناء فندق في القدس يكون هو

مالكه وهو المشرف عليه مقابل أن يكون للسائحة وزوجها جناح خاصٌّ فيه. أو لربّما يوصيان بأن يكون هو وريثهما الشرعي بعد موتهما، فتهبط عليه ثروة لم تكن في البال. توقّع أنّ الحظّ سوف يدفع إليه بسائحة شابّة يرقّ قلبها له، وتتعلّق به وتمحضه حبّها، وسيبادلها حبًّا بحب، وستتحدّث المدينة عن حبّهما الذي لم تشهد له مثيلاً من قبل، وسيتزوّجها وستعلن هي أمام الملأ أجمعين أنّها ستغادر بلادها، وستعيش مع زوجها هنا في القدس إلى آخر يوم في حياتها.

ولم يتحقّق أيّ من أحلام يقظته. رأى سائحات كثيرات وسيّاحًا كثيرين، ولم يأبه به أحد منهم أو واحدة منهن. كلّ الذي تحقّق له بعد العمل المضني في حمل الحقائب إتقان بضع كلمات من اللغة الانكليزية كان يتباهى بها أمام أقرانه وأقاربه كلّما عاد إلى راس النبع. وصارت أحاديثه عن المدينة تجتذب إليها الشباب وهو يصف أسواقها وشوارعها وأماكنها المختلفة باستفاضة وإعجاب.

وحينما ملّ عمله هذا، اشتغل في مطعم في حارة النصارى يقدّم لزبائنه اللحوم المشويّة والسلَطات وكؤوس البيرة والعرق والنبيذ. كان ينظّف الصحون والملاعق والكؤوس، ويشرب العرق من زجاجة يخبّئها في مطبخ المطعم. ومع اقتراب المساء، يكون قد ثمل. ولم يدم عمله في المطعم سوى ستة شهور. اختلف مع صاحب المطعم على أجرته الشهريّة، التي لم تكن مجزية بأيّ حال. ولم يكن صاحب المطعم راضيًا عن سلوكه أثناء العمل، وبخاصّة حينما تتعتعه كؤوس العرق فيصبح غير قادر على خدمة الزبائن، فاختلف معه واضطرّ محمّد إلى مغادرة المطعم.

اشتغل حارسًا لمخازن الغلال التي يملكها رجل ثريّ من أبناء المدينة. كان ينام طوال النهار في غرفة ملحقة بالمخازن، وينهض

بعد العصر، يتناول طعامه ويتأهّب للحراسة وهو يحمل عصا تعينه على التصدّي للصوص. لم تتعرّض المخازن للسرقة إلا مرّتين. في الأولى تصدّى محمّد الكبير للصوص، صاح فيهم وركض خلفهم بشجاعة أدخلت الرعب في قلوبهم، وكاد يقبض على أحدهم وهو يفرّ من أحد الشبابيك. في الثانية، جاء اللصوص وتسلّلوا داخل المخازن فيما كان محمّد الكبير نائمًا قرب بابها الرئيس. كان أحضر زجاجة عرق شربها ولم يستطع مقاومة النعاس. طرده صاحب المخازن من الحراسة، لأنّه ألحق به خسارة تقدّر بعشرات الليرات.

اشتغل بستانيًّا في حديقة القبر المقدّس خارج سور المدينة. وكانت له غرفة صغيرة في زاوية الحديقة ينام فيها. تغمره البهجة فيما تتفتّح الورود والأزهار وهي تغتذي بالماء الذي يدلقه تحت سيقانها، ويلذّ له الاستماع إلى أجراس الكنائس كلّ يوم أحد. كان فضاء المدينة يمتلئ بالأنغام الصادحة التي تنشأ عن رنين الأجراس.

ومنذ أيّامه الأولى في الحديقة، تعرّف إلى مريم، وهي فتاة ناضجة تكبره بخمس سنوات، تمشي حاسرة الرأس وشعرها ممشّط نحو الخلف على شكل شليش. كم كان يحبّ شليشها ووجهها المدوّر الأبيض، وفستانها الذي يكشف عن ساقيها، فتبدو له مثل ملاك هبط عليه من السماء!

تشطف مريم القاعة التابعة لحديقة القبر المقدّس وفناء الكنيسة وأدراج البناية المجاورة للكنيسة، ثم تنشّفها بقطع القماش المعدّة خصّيصًا لهذه الغاية. وحينما تنتهي من عملها تأتي إلى الحديقة لتشرب كأس شاي يعدّها لها محمّد الكبير. يجلسان متجاورَيْن. تحدّثه عن نفسها ويحدّثها عن نفسه، تحدّثه عن المربّي

خليل السكاكيني، وتقول إنّها معجبة به، وهي تتابع كلّ أخباره. تحدّثه عن البيت الذي بناه بعرق الجبين في حيّ القطمون، على أمل أن يستقرّ فيه هو وزوجته وابنه وابنتاه، يبدي اهتمامه بما تقول، ثم يصمتان والأزهار من حولهما تواصل تفتّحها البطيء. يتأمّل عينيها ويقول: اشربي شايك.

مع مريم، جرّب محمّد الكبير الحبّ لأوّل مرّة، وشهدت حياته تحوّلات لم تكن في باله أو في بال أبيه المختار الذي انقطعت أخباره عنه وقتًا غير قصير.

صباح الأحد، اقترحت عليه أن تأخذه إلى الكنيسة ليحضر تعميد ابن أخيها بعد الصلاة.

– تأتي معي؟

– أكيد.

مشى إلى جانبها وهو يرتدي بدلة كحليّة وقميصًا وربطة عنق. مريم هي التي اختارت له ملابسه هذه. رافقته إلى السوق قبل أيّام لتختار له الملابس التي تروقها وتروقه. اطمأنّ إلى ذوقها واشترى ما اقترحته عليه. لأوّل مرّة يرتدي محمّد الكبير بدلة وربطة عنق.

سارت إلى جواره وهي ترتدي فستانًا فضفاضًا مرشوقًا بأزهار مختلفة الألوان. كانت تدرج مثل حمامة فوق بلاط السوق، وهو يودّ لو أنّه يحتضنها هي والمدينة وكلّ ما تطاله يداه لكي يعبّر عمّا في داخله من حب. في الطريق إلى الكنيسة، حدّثته عن حبّ خليل السكاكيني لزوجته سلطانة. قالت إنّه يعبدها عبادة. قال محمّد إنّه يغبطه على حبّه لها. وقال لمريم إنّه يحبّها مثلما يحبّ خليل السكاكيني زوجته. قالت إنّها تصدّقه وهي راغبة في حبّ مثل هذا لكي يتحدّث عنه

الناس. قالت إنّ أهل المدينة يتحدّثون عن حبّ خليل لسلطانة. قالت في أسى: لكن ولا إشي يـدوم على حاله. قـال: شو قصدك؟ قالت: الموت. سألها: مالنا وما للموت. قالت: ماتت سلطانة، وخليل السكاكيني انهبل عليها لَمّا ماتت، والدار اللي بناها ليعيش فيها مع سلطانة، عشّش فيها الحزن بعد رحيل سيّدة الدار. تأسّف محمّد لهذا الحبّ الذي طواه الموت. قالت مريم: الموت ما طوى حبّه لها. بعده بحبّها. وقالت إنّه يزور قبرها كلّ صباح، يبكي على القبر، يتحادث معها ويبثّها همومه ثم يودّعها على أمل اللقاء في الصباح التالي، ويمضي إلى عمله وهو حزين.

دخلا الكنيسة، أشعلت مريم شمعة وأشعل محمّد شمعة.

قالت لأخيها ولأقاربها الذين وجدتهم في الكنيسة: هذا محمّد، زميلي في العمل.

قالت لمحمّد: هذا أخي إلياس.

سلّم محمّد على إلياس وعلى بقية الرجال والنساء. تبادل الجميع مجاملات سريعة ثم راح محمّد يستمع إلى الصلاة، ومريم تصلّي مع نساء أخريات ورجال:

أبانا الذي في السماوات. ليتقدّس اسمك. ليأت ملكوتك.

لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.

استمع إلى الأصوات التي تملأ فضاء الكنيسة باستمتاع، وتذكّر كم كانت تغمره البهجة وهو يستمع إلى تهاليل الرجال في مسجد يافا صباح عيد الأضحى!

واصل الاستماع، وراح يـردّد بصوت خافت مقطعًا من صلاة الكنيسة، ومقطعًا من تهاليل العيد في المسجد. سمعته مريم في ما

بعد وهو يفعل ذلك، واعتادت أن تردّد معه الصلاة والتهاليل. تبتسم له ويبتسم لها، ثم ينطلقان في شوارع المدينة في المساء، كما لو أنّ المدينة لهما وحدهما.

بعد الصلاة، راح محمّد يتابع طقوس التعميد. رأى الخوري يسكب الماء في حوض، يدهن جسد الطفل بزيت الزيتون المعبّأ في زجاجة، ثم يقبض على الطفل بيديه ويغطّسه في الماء ثلاث مرّات، والطفل يبكي ويفرفط ويحاول التملّص من يدي الخوري، والخوري يُحكم قبضتيه على جسد الطفل ويغطّسه في الماء. تمنّى محمّد الكبير بينه وبين نفسه لو أنّه يتزوّج بمريم في أقرب وقت، تحبل منه وتلد ولدًا، ويقومان على تربيته وخدمته إلى أن يكبر، ويصبح رجلاً له مكانته في المدينة. قطع خواطره وراح يصغي إلى الخوري الذي يردّد التراتيل الدينيّة.

أخيرًا، حملت مريم الوعاء الذي يحتوي على ماء التعميد، واتّجهت نحو الخارج، تبعها محمّد، وقالت له: هذا ماء مخلوط بزيت مقدّس، ولا يجوز الدوس عليه بالأقدام.

اختارت شجرة قريبة في فناء الكنيسة، سكبت الماء تحت جذعها، وعادت هي ومحمّد إلى داخل الكنيسة. بقيا هناك وقتًا آخر ثم غادرا المكان. ولم تحدث في ذلك اليوم أيّة مفاجآت، في مدينة صارت المفاجآت جزءًا لا يتجزّأ من حياة الناس فيها.

المفاجأة التي أدهشت عائلة العبد اللات، هي مغادرة نجمة لقرية راس النبع وإقامتها في القدس. اتّفقت مع عبد الودود على الانتقال التدريجي إلى المدينة، فلم يعترض ما دامت هذه هي رغبتها. استأجرت بيتًا من غرفتين في حي المغاربة داخل السور. وصارت تأتي إلى حيّ الطالبيّة، إلى بيت عفيفة وحنّا في الصباح

المبكّر كلّ يوم، تقطع المسافة مشيًا على قدميها، تمشي بخطوات ثابتة وباعتداد بالنفس، وهي تتنشّق هواء المدينة النقي. تعتني بالأولاد، تنظّف البيت وتشطف الدرج وتعدّ طعام الغداء. ثم تجلس في الصالة، وتمدّ نظرها عبر الزجاج نحو بيوت المدينة، فتشعر بمتعة واسترخاء، وتلهج بالشكر لربّها الذي هداها إلى الذهاب إلى الحمّام، والتعرّف إلى عفيفة.

نامت أوّل ليلة في بيتها الجديد، وشعرت بالوحشة لأنّها تنام وحدها في بيت لم تنم فيه من قبل. خافت قليلاً، خصوصًا وأنّ أحوال البلاد ليست مستقرّة. اعتراها قلق خفيف، وشعرت لوهلة بأنّها ربّما تسرّعت في هذا الانتقال. نهضت مجفلة وقطعت حبل أفكارها، اقتربت من الباب وأصغت بصمت، توهّمت أنّها سمعت دقّات على الباب. ظلّت مصغية دقيقتين أو أكثر، ولم تسمع شيئًا غير عادي. تفقّدت شبابيك البيت وتأكّدت من إغلاقها، وعادت إلى سريرها. التأم حبل أفكارها من جديد، وحينما تذكّرت أنّ ابنتها نوال بحاجة إلى استكمال دراستها في المدينة، تحمّست لقرارها ونامت من غير هزّ كما يقال.

بعد أسبوع، انتقلت الأسرة إلى المدينة. والتحقت نوال بالمدرسة الأهليّة التي تعمل فيها عفيفة. كانت فرحة نوال أكبر من أن توصف. والتحق أخوها نوّاف بمدرسة للأولاد، واشتغل عبد الودود مراسلاً في البنك. كان عليه أن يتخلّى أثناء العمل عن زيّه البدوي، لا قمباز ولا كوفيّة ولا عقال طوال ساعات الدوام. عليه أن يرتدي بنطالاً من القماش الكاكيّ وفوقه جاكيت وعلى رأسه طربوش. كان عبد الودود في الأيّام الأولى للعمل، وهو في هذا الزي، يشعر كما لو أنّه

عارٍ لا يستر بدنه شيء. ومع الأيّام، صار يألف زيّه الجديد، ولا يتورّع عن الذهاب إلى قرية راس النبع وهو يرتديه.

نجمة أيضًا، خلعت الثوب الأسود الطويل وارتدت الفستان، فبدت أصغر من عمرها بعشر سنوات. وكان هذا سببًا كافيًا لإدخال [illegible] قلبها وقلب عبد الودود. ظلّ المختار منّان حائرًا تجاه هذا التحوّل في سلوك أخيه وزوجته: شو جرى لعقل عبد الودود؟ وشو جرى لعقل نجمة يا ناس؟

وقعت هزّة في العائلة ثم انتشرت لتطال العشيرة كلّها، لأنّ نجمة خلعت ثوبها وارتدت الفستان، وكان ارتداء عبد الودود البنطال والجاكيت مستغربًا أيضًا، لكنّه بدا أخفّ وطأة على النفوس مِمّا فعلته نجمة. اعتبرت صبحاء ونسوة أخريات تصرّف نجمة خلاعة وفجورًا، واعتبره بعض رجال العائلة تحدّيًا للعائلة ولتقاليدها. بعض شبابها بلغت بهم الحماسة حدّ التفكير بترصّد نجمة وضربها حتّى لا تعود قادرة على النهوض من الفراش، ومن ثم حبسها في أحد بيوت العائلة عقابًا لها على تصرّف مثل هذا. ولولا ضغط المختار منّان عليهم وتحذيره لهم من مغبّة ما يفكّرون فيه لوقعت مصيبة. صحيح أنّ المختار لم يحتمل ما أقدمت عليه نجمة، ولم يقرّها عليه، إلا أنّه لم يصل في تطرّفه حدّ السماح بمعاقبتها. قال للشباب: اتركوا لي الأمر، وأنا بخلّيها تلبس الثوب الطويل.

ترك الشباب الأمر لحكمة المختار. أرسل لها رسائل عدّة على نحو غير مباشر، لعلّها تتراجع عمّا فعلته، فلم تتراجع. انزعجت لما طالها من تشهير وتهديدات، واعتراها ارتباك، واستبدّت بها حيرة في بعض الأحيان، ولم تتراجع عمّا قرّرته ونفّذته بمحض إرادتها.

احتمل المختار الكسفة التي سبّبتها له، ولم يستوعب إلا بعد وقت غير قصير رحيل أخيه وزوجته إلى المدينة، والعمل فيها والتخلّي عن بعض عادات القرية وطقوسها. وانقسمت نساء العائلة في ما بينهن، مهيرة ومهيوبة وربيحة وهيفاء غبطن نجمة على النعمة التي غطست فيها حتّى شوشة راسها. سميحة لم تتدخّل في ما يخصّ نجمة ولم يكن لها رأي فيه، ظلّت مشغولة البال على ابنها يوسف الذي غاب ولم يعد. فطّومة زوجة عامر لم ترغب في الإساءة لنجمة لأنّها صديقتها. وضحاء زوجة المختار ظلّت مقتنعة بنصيحة أمّها التي حذّرتها من كيد النساء، فلم تتعرّض لنجمة بأيّ سوء، زوجتا المختار: مثيلة وصفيّة وأخته معزوزة ناصبنها العداء ورحن يكدن لها، ويشكّكن في سلوكها وينشرن الشائعات التي تطال سمعتها: هذي دايرة على حلّ شعرها. هذي فالتة وعينها زايغة. من يوم ما صارت تتشلّح في الحمّام، وهي يا لطيف الطف يا رب!

نجمة سمعت الاتّهامات (فطّومة نقلت لها كلّ شيء) واحتملتها رغم ما شعرت به من ألم نفسي. واصلت حياتها في المدينة ولم تثنها عن مقاصدها الشائعات. وظلّت صبحاء حتى آخر أيّامها غير راضية عن سلوك ابنها عبد الودود وزوجته نجمة. قالت كلامًا كثيرًا في هذا المقام. وكادت تلطم وجهها حينما جاءها خبر نوال. كان أدهم هو الذي جاء بالخبر، ولم يبد عليه أنّه مستاء.

صبحاء والمختار وآخرون من أبناء العشيرة استاءوا. قال أدهم إنّه كان يمشي في السوق حينما رأى ما يزيد عن ثلاثين بنتًا بقمصان قصيرة الأكمام وبمراييل لا تغطّي سيقانهن، وشعرهن ينسدل على أكتافهن، وكنّ يمشين في طابور منتظم، وينشدن الأناشيد، ومعهن

سيّدة يبدو أنّها المعلّمة التي تشرف على الرحلة داخل المدينة. أثار انتباهه الطابور ووقف يشاهده مثل أناس آخرين. وفجأة وقعت عيناه على فتاة اعتقد أنّه يعرفها، وحينما أمعن فيها النظر عرفها: إنّها نوال ابنة عمّه عبد الودود. رأته نوال وابتسمت له وابتسم لها.

ذهلت صبحاء لهذا الخبر، فالبنت تمشي مع البنات في السوق، وترتدي مريولاً ينحسر عن ساقيها وتلبس قميصًا يكشف ذراعيها. قالت وهي تضرب كفًّا بكف: الدنيا آخر وقت، ولازم القيامة تقوم.

وقال المختار: انفضحنا من تحت راس نجمة وعبد الودود.

ولم يسلم المختار من عواقب ما فعلته نجمة وزوجها وابنتهما. ظلّ كثيرون من أبناء العائلة والعشيرة ينظرون إليه نظرة متشكّكة، ويعتقدون أنّه غير حازم مع نساء العائلة، متهاون معهنّ ما يفسح في المجال لتصرّفات غير مقبولة، وهو راضٍ كما يبدو عمّا يفعلنه، وإلا لكانت له مواقف أكثر حزمًا.

ولم تكن اتّهاماتهم له بعيدة من الصواب. فالمختار لا يحبّ التزمّت والركون إلى المواقف الحادّة، يرقّ مزاجه حينما تأسره مباهج الحياة، ويطلق أمام أبناء العائلة حينًا، وبينه وبين نفسه حينًا آخر قوله المأثور: خلِّ الكون يعمر.

وحينما تشتدّ عليه وتيرة النقد والملامة، فإنّه يصاب بلوثة التعصّب والرغبة في الانتقام، فلا يتورّع عن اتخاذ قرارات قاسية. وقع له هذا بعد هزيمة الثورة ووصولها إلى نهايتها. آنذاك شعر بفراغ، ولم تعد تعنيه أخبار الحرب البعيدة التي يبثّها المذياع، حرب طاحنة بين دول كبرى، وقد يصل تأثيرها إلى هذه البلاد، ومع ذلك لم يعد معنيًّا بها. تزايد لديه الإحساس بأنّه متروك في زاوية مهجورة من زوايا هذا العالم يجترّ عذاباته الخاصّة التي خلّفها في نفسه عسكر الانكليز.

عبّاس كان أكثر تفاؤلاً. بعد أن عاد إلى حانوته يمارس تجارته، أكّد لمنّان أنّ فلسطين ستظفر بالحرّيّة.

– من وين لك هذا الكلام يا عبّاس؟

– فيه ناس حكماء في المدينة يحكون هذا الكلام.

– يعني الانكليز يطلعون من البلاد؟

– يطلعون يا مختار.

– والعصابات الصهيونية تحلّ عنا يا عبّاس؟

– بدها تحلّ وبدنا نخلص من الهمّ يا مختار.

– انت شو صاير لعقلك يا عبّاس؟

كان الحوار يتفاقم بينهما، فيضطرّ عبّاس إلى السكوت والانصراف إلى التفكير في تجارته التي ابتليت، أيّام الإضراب الكبير وفي سنوات الثورة المسلّحة، بأضرار. عليه الآن أن يعيد ترميم كلّ شيء، مع إحساسه بأنّ الأيّام القادمة قد تعيد خلخلة حساباته، وتجعله غير قادر على الثبات، رغم ما يسمعه من الحكماء ومن بعض التجّار الفهمانين من تطمينات.

ولم يكن المختار منّان مرتاحًا لولع أخيه بربحه الخاص.، فاتّهمه مرّة بأنّ شيطان التجارة أفسد روحه، فاستاء عبّاس من هذه التهمة، وراح يذكّر أخاه بالليالي الطويلة التي قضاها في الجبال وعلى الطرقات يترصّد عسكر الانكليز.

– نسيت يا منّان سهر الليالي وتعب البال؟

– ما نسيت. ما هو مثلك مثل غيرك، كلنا سهرنا وتعبنا.

– صحيح، لكن أنا تجارتي تعطّلت وخسرت.

– إلحق المفتي إلى المنفى عشان يدفع لك تعويضات.

– أنا ما أريد تعويضات. المهم إنّا نخلص من هذا البلاء.

– هذا بلاء مقيم يا عبّاس.

ويستمرّ بينهما الجدال. يخبو أحيانًا ويتجدّد أحيانًا أخرى، ويتذكّر عبّاس أنّه لم يرزق بولد حتى الآن. يقترح عليه أحد زملائه التجّار أن يزوّجه أخته التي أصبحت في الخامسة والثلاثين. قال إنّه يعرض عليه أن يتزوّجها لأنّه يعرف كم هو راغب في أن يكون له ولد.

حينما ذهب عبّاس معه لتناول طعام الغداء في بيته، قرّر أن ينفّذ ما اقترحه عليه التاجر حسّان. شاهد أخته زينات وهي تقدّم له القهوة بعد الغداء، فأعجب بحسنها وبجمالها، وبالبياض الذي يفيض من تحت الفستان. قال: أتشرّف بمصاهرتكم يا حسّان.

قال حسّان: إلنا شرط واحد: أختي ما تسكن في القرية.

استأجر لها عبّاس بيتًا في حارة السعديّة بالمدينة، قريبًا من بيت أهلها، وقال في ما بعد إنّ زواجه بها أدخل السعادة إلى قلبه وجعله يجدّد شبابه على نحو لم يتوقّعه. كان يروقه أن يجلس مساء الجمعة قرب شبّاك بيته في المدينة، يشرب القهوة ويدخّن سيجارة بعد أن حرمته زينات من استخدام غليونه الطويل، ويتأمّل رحلته في الحياة. كيف ابتدأت في البرّيّة بما فيها من مشقّة وشقاء! الآن لو يعود إلى العيش في البرّيّة لما استطاع. تغيّرت حياته وتغيّرت نظرته إلى الحياة. وحينما يقارن حياته في قرية راس النبع بحياته هنا في المدينة، فهو سيختار المدينة، حيث الهدوء رغم ما تعيشه المدينة من أخطار. وسيختار الابتعاد عن العشيرة لما في الانضواء تحت عباءتها من إكراهات. وهو لا يجد غضاضة في انتقال أخيه عبد الودود وزوجته نجمة للعيش في المدينة، لكنّه لا يستطيع المجاهرة برأيه خوفًا من غضب أخيه المختار. وهو مضطرٌّ إلى تقسيم وقته

وأمور معيشته وإقامته بين القرية والمدينة، وعليه أن يحتمل هذا التشتّت لأسباب شتّى لا تغيب عن البال. عبّاس ينظر من شبّاك بيته إلى البيوت المتراصّة ويفكّر في مستقبل المدينة ويشعر بالخشية عليها، إلا أنّه مرتاح لوجود زينات إلى جواره، وهو يتأمّل المدينة حينًا وزينات حينًا آخر، فيشعر بامتنان وهي تتأوّد من حوله مثل غصن البان، وتملأ البيت بهجة ورواء.

ولم تلبث أن حملت وولدت توأمين من البنات، فاكفهرّ وجه عبّاس، ثم جعلته زينات راضيًا بما قسمه له ربّ العباد. وحينما حملت للمرّة الثانية والثالثة والرابعة لم تلد سوى عدد آخر من البنات، فلم ييأس عبّاس ولم يقنط من رحمة الله.

في سنوات لاحقة، وهو على مشارف الشيخوخة، سوف يتزوّج بإحدى بنات العائلة. يتوكّل على الله ويتفاءل بقدوم الولد. تتجاوب معه العروس التي كانت تشعر بما يشعر به عريسها، وتتعاطف معه كما لو أنّها المسؤولة عن موت أطفاله الذين ولدتهم زوجات سابقات. حملت منذ ليلة الزفاف، وولدت ولدًا صار قرّة عين لعبّاس، فلم يعد يتذمّر من شيء، بل إنّه صار يحتمل مماطلة الناس في سداد الديون، ولم يعد يلحّ عليهم إلا حينما يلاحظ أنّ بمقدورهم سداد جزء منها. وإلى هذا، صار قادرًا على احتمال وجود إحدى عشرة بنتًا، ما دام لهنّ أخ سيكبر وسيحمل اسم أبيه، ويتزوّج ويخلّف بدوره صبيانًا وبنات.

ولم يعد محمّد الصغير يظهر في المجالس. اعتبره أبوه في عداد الأموات. وأصبح لا يكلّم صفيّة إلا بجمل مبتسرة تنمّ عن الضيق والاستياء، ما جعلها كثيرة التأسّي على حالها: يا حسرتي على حالي، لو أنّ الله يسعدني مثل باقي النسوان.

حاولت مرارًا أن تثني ابنها محمّد الصغير عن حياة العزلة التي انتهى إليها، فلم تزده محاولاتها إلا إصرارًا على موقفه، فتوقّفت عنها بعد أن أنهكها الحزن واليأس. تعيش أيّامها في قلق، ويتأكّد لديها الإحساس بأنّ محمّد الكبير كان سبب مأساتها وباعث الشرور إليها، فتكثر من التوسّل إلى الله كي يعاقبه على أفعاله المقيتة، وسوء نواياه.

عبد الجبّار هو الوحيد الذي استمرّ يحيا ببساطة كأنّه لم يغادر البرّيّة، يضع فروته على كتفيه صيف شتاء، ويُمضي الوقت في سرد الحكايات. يتذكّر مكابداته هو ونفر من أبناء العشيرة لدى ذهابهم ليلاً إلى البحر الميّت لإحضار الملح. يتذكّرها ويرويها لمن حوله في تلذّذ واستمتاع. كانت دوريّات عسكر الانكليز تترصّدهم لتصطادهم. يخفون دوابّهم ويكمنون وسط الملاّحات وقتًا قد يقصر وقد يطول إلى أن تبتعد الدوريّة وتختفي. يخرجون من مخابئهم بعد معاناة، ويحمّلون أكياس الملح على ظهور الدوابّ ثم يعودون عبر طريق محفوفة بالمخاطر إلى مضارب العشيرة، ليبيعوا الملح في القرى المحيطة بالقدس، وليجلبوا مقابله تينًا وقطّينًا وسلعًا أخرى.

كان يتباهى بأيّامه تلك ويتفاخر بشجاعته، ما أدخل الحنق إلى نفس ابن أخيه منّان، وجعله ذات يوم يعاتبه مع أنّه عمّه الذي عليه أن يوليه من الاحترام مثلما يولي أباه، إلا أنّ هذا العمّ أصغر من ابن أخيه بسنة واحدة. ولهذا، سمح لنفسه بأن يتجرّأ عليه ويذكّره بضرورة تكريس شجاعته للدفاع عن شرف العائلة.

في البداية، لم يفهم عبد الجبّار ما يعنيه ابن أخيه. فجأة، أدرك الأمر كلّه دفعة واحدة، وأيقن أنّ فلحة هي المقصودة بالكلام، فتأسّى على أيّام الثورة التي صرفت منّان مؤقّتًا عن التفكير بأمر ابنته. الآن وهو متروك وسط الفراغ، يشعر بأنّه لا بدّ من غسل العار الذي لحق

العائلة، وإلا بقيت موصومة بالخزي. وما جعله مصرًّا على موقفه هذا، تصاعدُ الغمز الذي يدور حول هروب فلحة، وكثرة التلميحات النابية التي تنال من سمعة العائلة.

أذعن عبد الجبّار لمشيئة ابن أخيه، فهو لا يستطيع أن يرفض له طلبًا لأنّه مختار العشيرة وكبير العائلة. ومنذ قتل عبد الجبّار الضبع بشبريّته، وصمد في المواجهة مع الغولة، والعشيرة تعتمد عليه (رغم بعض الأقاويل التي تحاول النيل منه) حينما يجدّ الجدّ وتقع المشاجرات، أو المآزق التي تحتاج إلى شجاعة الشجعان.

تخفّى في زيّ تاجر غريب ومضى يجوب القرى المجاورة وهو يسوق أمامه حمارًا محمّلاً بصنوف البضائع، يتوقّف في كلّ قرية، يطرح الأسئلة والاستفسارات بحذر واحتراس، فلا يعثر على ضالّته. ظلّ يبحث عنها إلى أنْ أدركه السأم، ففكّر في أن يعود من حيث أتى، معلنًا أمام ابن أخيه أنّه لم يعد أهلاً لهذه المهمّة، إلا أنّه اعتبر تصرّفًا مثل هذا نقيصة ستظلّ ملازمة له، فواصل التجوال في القرى نهارًا، والنوم في مضافاتها وبيوت أهلها ليلاً، حتى جاب تسعًا وعشرين قرية، وتفرّس في وجوه عدد غير قليل من نسائها.

في القرية الثلاثين رآها بعد الغروب، عرفها وهي لم تعرفه. قال في سرّه: هذي هي فلحة.

كتم انفعاله. اشترت منه خيطانًا للتطريز ووقيّتين من الحلقوم والكعكبان. تبعها إلى حيث مضت، فلمّا انتبهت إليه استأذنها بلهجة متوسّلة أن تسمح له بالمبيت ليلته هذه في بيتها، فأذنت له بالنوم في ساحة البيت. وزّع على أطفالها مزيدًا من الحلوى، وقدّمت له فراشًا. شكرها وهو يربط حماره إلى جذع شجرة، ومضى يأكل طعام العشاء.

عاد زوجها إلى بيته مرهقًا، يحمل صينيّة الحلاوة الفارغة. تصايح أطفاله من حوله، ثم أخلد الجميع إلى النوم في ركن الساحة الآخر تحت نجوم صيفيّة لا حصر لها. عبد الجبّار هو الوحيد الذي ظلّ يقظًا مثل ذئب، يتلمّس شبريّته بين الحين والآخر، تأهّبًا للانتقام.

حينما أيقن أنّها استغرقت في النوم، نهض لكي يذبحها. اقترب منها في حذر. لأوّل مرّة في حياته لم تستجب له مشاعر الحميَّة التي كان يألفها في نفسه من قبل. حدّق في وجه المرأة. كانت تنام مطمئنّة وعلى صدرها يغفو أحد أطفالها. اقترب أكثر، واستطاع أن يسمع أنفاسها وهي تتردَّد في صدرها. اضطربت نفسه ثم تراجع والعرق يتصبَّب من جبينه. أعاد الشبريّة إلى غمدها، فكّ قيد حماره، ومضى مسرعًا وهو يزداد قناعة بأنّه لم يعد عبد الجبّار القديم.

عاد إلى راس النبع. استقبله الأطفال ثم أشاعوا الخبر في كلّ بيت. انزوى المختار منّان في ركن بيته منتظرًا وصول عبد الجبّار. مثيلة ظلّت منذ مضى عبد الجبّار إلى مهمّته تهذي وتترحّم على ابنتها. توقّعت أنّه سيقتلها، فازداد عذابها. قال عبد الجبّار لابن أخيه منّان: قتلت الخاطئة، ومن اليوم وطالع، بتقدر تعيش هادي البال.

لاذ منّان بالصمت. زغردت نساء العائلة متظاهرات بالابتهاج للخبر، ثم دخلن إلى بيوتهنّ باكيات، متوجّسات من أن يلاحظ منّان انسياب الدموع على خدودهن.

مضى عبد الجبّار إلى بيته مداريًا سرّه. لاحظ أنّ بعض أبناء العائلة لم يعجبوا بقسوة قلبه كما في الأيّام الخوالي. ولم تغب عن باله حالة الأسى التي تلبّست منّان، رغم محاولته إخفاء هذه الحالة عن أعين الجميع. مضى عبد الجبّار إلى النوم وهو يشعر براحة لم يألفها من قبل.

ولم تعد مثيلة قادرة على النوم. تألّمت للمصير الذي انتهت إليه ابنتها، وافتقدت فرس العائلة وصار يؤرّقها الإحساس بأنّ غيابها كلّ هذا الوقت لا يمكن أن يكون من غير سبب.

ولم تسلم صبحاء من الكوابيس. صارت فلحة تظهر لها في المنام، منفوشة الشعر جاحظة العينين، تعتب عليها لأنّها سمحت لهم بأنْ يذبحوها، تنهض من نومها وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وتترحّم على فلحة وتعتقد في قرارة نفسها بأنّها ماتت مظلومة، وكان ينبغي الصفح عنها.

وافتقدت هي الأخرى فرس العائلة، فلم تعد تظهر لها ربّما بسبب ما جرى لفلحة، وبسبب سماحها لعبد الجبّار بالمضيّ لتنفيذ مهمّته غير المباركة. افتقدت صبحاء الفرس وافتقدت ابنها المختار. منذ ثلاثة أيّام لم يأت للسمر في بيتها. هذه الليلة جاء. وجدها مضطجعة في فراشها غير راغبة في الكلام على غير عادتها. قالت إنّها لم تأكل طعامًا منذ الصباح. نادى وضحاء ونساء العائلة الأخريات. قالت إنّها لا تريد طعامًا. وضعت وضحاء يدها على جبينها وقالت لمنّان همسًا: جبينها ساخن.

وضع منّان يده على جبينها وشعر بالقلق عليها. نساء العائلة غلين لها الجعدة والميرميّة والبابونج. شربت كثيرًا من السوائل وشعرت بتحسّن قليل. قدّمن لها قطعة من الجبن وكسرة خبز. مضغت لقمة واحدة ولم تجد لديها رغبة في ابتلاعها إلا بصعوبة.

حاول المختار تشجيعها على الكلام. طلب منها أن تحدّثه عن البرّيّة. نظرت في وجهه بعينين زائغتين وقالت: أبوك طلبني بدّي أروح عنده.

– سلامتك يا أمّي.

– أنا أوصيكم: ادفنوني في البرّيّة بجنبه.

استغرب إلحاح هذا الهاجس عليها. تأمّل وجهها المتعب واختلج بدنه وهو يلاحظ هذا التبدّل المفاجئ في مزاجها، وقال:

– عمرك طويل ان شاء الله.

تلفّتت حولها وقالت بصوت واهن: ما عدت أسمع فرس العيلة.

حاول طمأنتها: الله يمد في عمرك عشان تسمعيها.

أضاف: ما بدّك تحكي مثل عوايدك؟

– شو أحكي يا بنيي؟

– عن أيام البرّيّة، وعن نسوان العيلة.

– ما ظل عندي حكي.

بدا قلقًا عليها وحاول كتم مشاعره كي لا يستنفر بكاء النساء.

12

مرّت الطيور المهاجرة ولم تكن السماء صافية، والمختار منّان لا يصدّق أنّ أمّه تعيش أيّامها الأخيرة. قبل أيّام قليلة كانت لا تشكو من أيّ شيء، وكانت رغبتها في سرد الحكايات متوهّجة مثلما كانت طوال الوقت. فكّر في وصيّتها ووجد أنّ من الصعب تنفيذها، فأهالي راس النبع أصبحت لهم مقبرة في طرف القرية. ومنذ غادروا البرّيّة وهم يدفنون موتاهم هنا في هذه المقبرة، وليس من المعقول أن يأخذوا موتاهم إلى البرّيّة التي لم يعودوا يذهبون إليها إلا على فترات متباعدة.

كانت الطيور تمضي بثبات وفي ترتيب هندسي نحو الجنوب. ظلّ عدد من رجال العائلة ونسائها يتابعونها وهي قادمة من الشمال بحثًا عن الدفء. شعر المختار بأسى غامض وهو يتابع رحلتها، فانتقالها من موطنها إلى مكان آخر يرسّخ في نفسه الحزن والفقد والحاجة إلى استقرار ما. تأمّل رحلة حياته، ولا يدري كيف صارت فكرة الموت تظهر له بين الحين والآخر، يحاول طمأنة نفسه بالقول إنّ هاجس الموت بدأ يتراءى له منذ أن مرضت أمّه، ولولا ذلك لما تراءى له. ورغم تسليمه بالقضاء والقدر وبأنّ كلّ نفس ذائقة الموت، إلا أنّه

ما زال يشعر بمتانة جسده وبتطلّعه إلى مزيد من سنوات العمر ومن الرغبة في العيش.

تذكّر زوجاته الست: فاطمة التي ماتت بعد أن عانت من لوثة في عقلها. كانت فاتحة الحبّ وبهجة الدنيا، تذكّر طيشه وهو يعرّيها في الخلاء، واستغفر ربّه له ولها. مثيلة التي ظلّت نارها مشتعلة، ولم يخفّ أوارها إلا في السنوات التي أعقبت هروب ابنتها من البيت، أو قبلها بقليل، ولربّما تسبّب هجره لها في خفوت نارها. في بعض الأحيان، يعتقد منّان بأنّ نارها لم تخفت، وهي لا تحتاج إلا لمبادرة منه، ولعلّ نفخة قليلة على رمادها المتراكم على سطح مشاعرها تشعل نارها الكامنة من جديد. أنعشته خواطره هذه، وفكّر بالذهاب إلى فراشها في ليلة ما، لعلّه يعدّل مزاجها ويريح ضميره، فهي أعطته من جسدها الشيء الكثير. وطفاء. آه، كم كانت امرأة مدهشة! كم تلذّذ بالعيش معها! وكم افتقدها حينما ماتت وهي تضع طفلها الثالث! الرحمة على روحك يا وطفاء. سميحة أم يوسف المشغولة دومًا بالبكاء على ابنها الثائر الذي لم يعد حتى الآن. سميحة مثل حبّة العدس لا تعرف بطنها من ظهرها، ولا تعرف إنْ كانت شهوتها متوقّدة أو خامدة، وهو لا يغيب عنها كثيرًا في كلّ الأحوال، احترامًا لها ولتضحية ابنها في سبيل البلاد. صفيّة المرأة الهادئة التي تخفي نارًا حارقة تحت خجلها. صفيّة توحي بأنّ القطّة تأكل عشاءها، لكنّها حينما تشتعل فيها الرغبة تصبح امرأة أخرى، وهو ما زال على وفاق معها رغم كثرة البنات والأبناء الذين أنجبتهم في السنوات العشرين الماضية، ورغم الخلافات التي تنشب بينه وبينها، يهجرها زمنًا ثم يعود إليها ويتصالح معها. وضحاء الغالية التي لا يمكنه العيش من دونها، هي الدرّة والجوهرة والشمعة

والمصباح والنار التي تشيع الدفء في البيت شتاء، وتنشر العبق والروائح العطرة في الربيع، وترسل النسائم الرقيقة التي تنعش القلب صيفًا، وتخفّف من وطأة الكآبة التي يستشعرها المختار في الخريف. قال وهو ينفض رأسه من تزاحم الخواطر فيه: لَمّا الطيور تنوي الهجرة ما شي يردّها.

قال عبد الجبّار: إي والله، صحيح.

واصل عبد الجبّار النظر إلى الطيور وهي تكمل رحلتها، وبدا راغبًا في النهوض والانطلاق سريعًا إلى الحقول، لكي يتخفّف مما يشعر به من توق إلى الحركة التي تشي بقدر من العنفوان رغم كرّ السنين. تذكّر هو والمختار منّان الليلة التي قتل فيها الضبع بكلّ جسارة وإقدام. تذكّرا صبحاء التي تنام في فراش المرض الآن، كيف كانت تروي لابنها منّان ليلة عمّه مع الضبع، وكيف كان عبد الجبّار يرويها: كانت ليلة ما فيها ضَوْ قمر. أنا راجع من آخر البرّيّة والدنيا عتمة وليل. وأنا ماشي في الخلا وما حولي إنس ولا جان.

وتقول صبحاء: يا ويلي عليه، والله مليح إنّه ظل فيه حيل عشان يخلّف اولاد.

يسألها منّان: من هو يا أمي؟

– عمّك عبد الجبّار. لما هجم عليه الضبع، صار يتحفتل حواليه ويرشق بوله في وجهه، عشان يخطف عقله ويفصفص لحمه عن عظمه.

ويقول عبد الجبّار: صدّقوا وآمنوا يا ناس إني جفلت وأنا ماشي. وقف شعر راسي مثل المسامير وقلت: ليلتي هذي سودا. وما شفت إلا وهو واقف قدّامي، مكشّر عن انيابه. صرخت فيه بأعلى صوتي وما تراجع. صار يرشق بوله على وجهي، وأنا زافتْ نفسي من زنخة البول.

وتقول صبحاء: عمّك عبد الجبّار قلبه قوي. ومع هذا حلف وقال إنّه خاف، وقال: باطل! وين راحت المراجل؟ رفع الشبريّة فوق راسه، وضرب رقبة الضبع أول طعنة وثاني طعنة وثالت طعنة، والضبع انسعر وهاج وكشّر عن أنيابه بدّه يفغش راس عمّك. حلف وقال: كنت أزوغ عنه وأضربه بالشبريّة ودمه صار مثل الشلال.

ويقول عبد الجبّار: ضربته بالشبريّة على رقبته وعلى عينيه وأذنيه، ودمه صار يشرّ شُرّاره. صدقوا وآمنوا، إني شدّيته من ذيله وصرت أطوّح فيه ودمه نازل مثل السيل. وبعد ربع ساعة ارتمى على الأرض وظلّت روحه تفرفط حتى مات. سلخت جلده عن جسمه وحملت الجلد ومشيت.

في تلك اللحظة جاءت مهيرة وجلست قريبًا منه. سمعته وهو يتذكّر ليلته مع الضبع. ابتسمت وهمّت بأن تسأله كم مرّة روى هذه الواقعة على الناس، فلم تسأله. تابعته وهو منهمك في مراقبة الطيور، تأمّلت عينيه الحادّتين وسألته: ما لها الطيور الطايرة في السما؟ أجابها من دون أن ينظر نحوها: ما تحبّ البرد يا مهيرة.

– وانت يا عبد الجبّار تحبّ البرد؟

– أنا ما أحبّ البرد.

– وأنا ما أحبّه.

– أعرف.

ابتسمت وابتسم، وتذكّر كيف ظلّت مهيرة تضيّق عليه الخناق، وتمنعه من الذهاب إلى ضرّتها ولو لتحقيق أبسط الغايات، فانصاع لرغبتها وهجر زوجته الأولى وأصبح لا يفارق بيت مهيرة. صار وقته

وواصلت معزوزة النظر إلىَ الطيور وهي تسعى بحثًا عن دفء الجنوب. غبطتها وتمنّت لو أنّ لديها جناحين لكي تطير بهما بحثًا عن الدفء، ثم لامت نفسها لأنّها فكّرت على هذا النحو، واعتبرت ما تمنّته دليل ضعف وخضوع لأحاسيس تباغتها في بعض الأحيان وهي غير منتبهة لها، وعليها أن تترفّع عنها وتقصيها من داخلها. وكي لا يتسرّب إلى مشاعرها مزيد من الضعف، أقلعت عن متابعة الطيور، وعادت إلى غرفتها تجلس فيها غير آبهة بشيء.

أخرجت الصرّة المخبّأة في صندوق ثيابها، فكّت عقدتها وتشمّمت رائحة التراب وتذكّرت حبيبها حرّان. واطمأنّت إلى أنّها لن تهدل مثل حمامة. صارت تتحكّم في هديلها على النحو الذي تريد، إمعانًا منها في التكتّم على رغباتها، ونكاية بأبناء عشيرتها، وخوفًا من شماتة أختها هيفاء.

هيفاء صارت تلاحظ أنّ معزوزة تحسدها لأنّها تزوّجت عثمان وأنجبت ثلاثة أولاد وبنتًا واحدة. ولأنّها تعلّمت القراءة والكتابة، وصارت تذهب في رحلات عدّة هي وعثمان والأطفال. وفي إحدى المرّات سافرت هي وعثمان إلى لبنان. اتجهت بهما سيّارة أجرة من القدس إلى حيفا، ومن هناك ركبا باخرة نقلتهما إلى ميناء بيروت. كم أعجبت هيفاء ببيروت! وكم أعجبت بجبال لبنان! قضت هي وعثمان عشرة أيّام، وعادت إلى راس النبع وهي تحفظ بعض مفردات من اللهجة الدارجة اللبنانيّة، تردّدها على مسامع نساء العائلة: أيه، لكان! فتعجب بكلامها النساء. وكانت تقضي وقتًا غير قليل وهي تروي لهنّ ما شاهدته وما سمعته أثناء الرحلة. وفي رحلة أخرى ذهبت هي وعثمان إلى مصر لقضاء أسبوعين هناك، [illegible]

من عراقة وتاريخ. ركبا القطار من القدس إلى يافا، ومن هناك نقلتهما باخرة إلى الاسكندرية، ثم اتّجها في حافلة للركاب إلى القاهرة. شاهدا نهر النيل وهو ينساب برصانة وكبرياء. وزارا الأهرامات، وتعجّبت هيفاء من عظمتها ولم تصدّق إلا بصعوبة أنّها نتاج جهد بشري مثابر، اعتقدت أنّ الجنّ هم الذين نقلوا هذه الحجارة الضخمة وبنوها على هذا النحو الجبّار، ظلّ عثمان يسوق لها الأدلّة والشواهد حتى اقتنعت أنّها بنيت بسواعد المصريين.

وذات مساء، دخلا قاعة استمعا فيها مع حشد من الرجال والنساء إلى مطربة اسمها أمّ كلثوم وهي تغنّي (قال لها زوجها إنّ أحد التجار حدّثه عن زيارة لها للقدس غنّت فيها أجمل أغانيها)، ودخلا قاعة للمسرح وشاهدا مسرحيّة ظلّت هيفاء تتحدّث عنها زمنًا.

حينما استمعت معزوزة لأختها وهي تتحدّث عن رحلتها مع زوجها إلى مصر، أكلتها الغيرة واعتقدت أنّها تقصد إغاظتها، وكانت فعلت الشيء نفسه حينما تحدّثت عن رحلتها إلى لبنان، فبدت معزوزة معنيّة بألا يصدر عنها أيّ هديل، وخصوصًا حينما تكون هيفاء على مقربة منها أو في الجوار.

بعد أن ضجر المختار من متابعة الطيور، التفت إلى أوراق الشجر المتساقطة هنا وهناك، وتذكّر أمّه المريضة، وأدرك كم كانت علاقته حميمة بها! وهو لا يستطيع احتمال أن تغادر هذه الدنيا وتتركه وحده. كم يشتاق إلى حكاياتها وأخبارها وتعليقاتها التي انقطعت منذ أيّام! فكيف إذا انقطعت تمامًا وغابت من أفق حياته؟

تململ في جلسته ورأى من مسافة ما، شخصًا يتقدّم نحو راس النبع. تابعه المختار وعبد الجبّار بفضول. وحينما وصل سلّم عليهما،

واتّجه المختار نحو المضافة وهو يرّحب بالضيف القادم من مكان بعيد كما يبدو. قال الضيف إنّه كان مع يوسف في سجن عكّا، وهو قد أنهى مدّة سجنه وعاد إلى أهله. نظر المختار إليه بلهفة وسأله: خبّرني عن يوسف.

قال وهو يحدّق في عيني المختار: يوسف معتقل من سنة في السجن.

قال وهو يحاول إخفاء انفعاله: ألقوا القبض عليه وهو يمشي في شارع في يافا، وما كان معه سلاح، حاول يهرب من بين أيديهم، أطلقوا عليه النار وأصابوه في رجله. نقلوه إلى المستشفى، ولما تحسّنت حالته الصحّيّة نقلوه إلى السجن.

أضاف: صحته اليوم جيّدة.

وقال: ما تَمّت محاكمته لحدّ اليوم.

حينما عرفت سميحة أنّ ابنها في السجن، ظلّت تبكي إلى أن اقترب منها المختار وقال: احمدي ربّك لأنهم ما قتلوه، وإنها انكتبت له الحياة.

❖ ❖ ❖

أصبح أدهم شابًّا تتمنّاه البنات، وصار قادرًا على التحكّم في صوته، فلم يعد يصدر صهيلاً مثل حصان. أطلق شعر رأسه بحيث غطّى أذنيه، وأصبحت له هيبة يخشاها كلّ أقرانه، فلم يعد أحد يجرؤ على الاقتراب منه لكي يتحسّس أذنيه. وتعزّزت هيبته حينما صار أخوه وطّاف يخرج معه للبحث عن عمل في المدينة، أو لحراثة أرض العائلة، أو للمشاركة في سهرات الأعراس.

أدهم الآن يبحث عن عمل بعد أن ترك عمله بائعًا في أحد متاجر المدينة. لم يعجبه العمل في المتجر، فهو مضطرٌّ إلى القيام بالحركات نفسها عشرات المرّات في اليوم الواحد، فلم يعد راغبًا في هذا العمل الرتيب.

قبل الحانوت، عمل في مطعم. يغسل الصحون والملاعق ويحمل أطباق الطعام ويقدّمها للزبائن، يلمّ الأطباق من أمام الزبائن بعد أن ينتهوا من تناول الطعام، يعيدها إلى المطبخ ثم يعود إلى الطاولة التي تركها الزبائن، ينظّفها ويعدّها لاستقبال زبائن آخرين. لم ترقه هذه المهنة، عمل ثلاثة أشهر في المطعم ثم غادره بحثًا عن عمل آخر. استقرّ رأيه على أن يعمل في أحد فنادق المدينة. ذهب إلى فندق في باب الخليل، وقابل صاحب الفندق الجالس في بهو فندقه يدخّن النرجيلة، وينفث دخانها من أنفه ومن بين شفتيه. تأمّل أدهم من رأسه حتى قدميه، وقال له: تعال، بعد أسبوعين.

غادره أدهم وهو موقن بأنّه ظفر بفرصة عمل في الفندق، وراح يتسكّع في أسواق المدينة وشوارعها. قادته قدماه إلى حيّ المصرارة بالقرب من باب العامود. هناك وجد تجمّعًا لرجال ونساء أمام بناية قيل له إنّ فيها ناديًا يجتمع فيه أناس من المدينة ومن القرى المجاورة، للتداول في أمور البلاد، وهم يوزّعون منشورات سياسيّة ويصدرون مجلّة حافلة بالمقالات وبالأخبار.

ثار فضول أدهم، واقترب من الجمع. وقالوا إنّ خطيبًا سيظهر بعد قليل لكي يخطب في الناس. رغب أدهم في الاستماع إلى الخطيب. رأى شابًّا يرتدي بدلة ويضع ربطة عنق وإلى جواره امرأة ترتدي فستانًا فضفاضًا. اعتقد أدهم أنّه رأى هذا الشاب من قبل، وبعد لحظة عرفه:

إنّه أخوه محمّد الكبير. تأمّله وفوجئ بمنظره المهندم. انتبه إليه محمّد، ثم اقترب الاثنان من بعضهما بعضًا وتعانقا.

تعرّف أدهم إلى مريم، ثم عرّفته إلى أخيها إلياس وزوجته روز. دهش أدهم لهذه المفاجأة. نظر بتقدير واحترام إلى الأربعة الذين جاءوا لكي يستمعوا إلى الخطيب. قالت روز: هذا رجل واسع الاطلاع.

هزّ أدهم رأسه تقديرًا لما قالته روز. ظلّ يرمق أخاه بإعجاب، بعد غيابه عن القرية فترة طويلة. بدا مقتنعًا الآن أنّ لهذا الغياب ما يبرّره، وحينما يعود إلى راس النبع فسوف ينقل إلى أبيه أخبارًا سارّة عن أخيه.

❖ ❖ ❖

استقبل المختار منّان أخبار ابنه محمّد الكبير بارتياح، إلاّ أنّه لم يعد يهنأ بالنوم العميق، ينهض من نومه في الليل ثلاث مرّات أو أكثر. تصحو وضحاء عليه وهو يتقلّب في فراشه، تحاول أن تخفّف من قلقه، تقترب منه، تمسّد شعر رأسه وتبادله الكلام. تلاحظ أنّه غير راغب في الكلام، تواصل تمسيد شعر رأسه، ولا يلبث أن يغفو. تغفو إلى جواره وتنام.

ينهض في الصباح المبكّر، يصلّي صلاة الصبح وتصلّي وضحاء معه. تحضر طعام الفطور، يتناولان الطعام معًا. يرتدي ملابسه ويغادر البيت، تدعو وضحاء له بالسلامة في كلّ خطوة يخطوها. يمشي متّجهًا إلى القدس. يفكّر في أشياء كثيرة. في المصير الذي ينتظر البلاد. هل يبقى الانكليز فيها إلى ما شاء الله، أم يسلّمونها إلى اليهود؟ يفكّر في الأمّ التي لم تعد قادرة على النهوض من الفراش، ولم تعد تروي

الحكايات. يفكّر في تعدّد مشارب الأولاد. يوسف الذي التحق بالثوّار وهو الآن في سجن عكا، ولم تسمح له إدارة السجن بزيارته. محمّد الكبير الذي وقع في حبّ امرأة مسيحيّة قيل له إنّها تحظى بتقدير واحترام، وأكيد حبّ مريم ومحمّد بدّه يجرّ عليّ في راس النبع القيل والقال. وأنا مجبور أن أتحمل لأني جمل المحامل. وأدهم الذي له أذنا حصان، هو الآن شابٌّ بالغٌ قادرٌ على التصرّف وحده ولا يحتاج إلى من يراقب تصرّفاته لما يتّصف به من حكمة وذكاء. وأخوه وطّاف لا يستطيع أحد الثبات أمامه بسبب ما لديه من قوّة وجبروت. هذا الولد قد يأتي أفعالاً حسنة، وقد يتحوّل إلى وحش فتّاك، وهو متعلّق بمروادة التي يبدو أنّها عملت له سحرًا، وإلا ما معنى هذا الحبّ الذي لم تعرفه راس النبع ولم تعرفه البرّيّة من قبل؟

يمشي منّان على مهله ويفكّر في رحيل نجمة وزوجها إلى المدينة، وظهور ابنتهما نوال في طابور للبنات يجبن أسواق المدينة أمام الناس بملابس فاضحة، وشعرهن مكشوف. يفكّر في تذمّر أخيه عبّاس من تقاليد الآباء والأجداد، فكأنّه هو الآخر صار يضيق ذرعًا بالعشيرة من دون أن يفصح عن رأيه تمام الإفصاح. يفكّر في البنت التي ذبحها عمّه عبد الجبّار. ليته لم يذبحها. ليتها بقيت على قيد الحياة لتربّي أطفالها، وليقل عنّا الناس ما يقولون. ليقولوا إنّنا أنذال.

يقترب من بركة السلطان، يمشي صاعدًا نحو سوق الحلال، ويقترب من باب الخليل. هذا الباب كم دخله بشر وكم خرج منه بشر! وهذه المدينة كم جرّبت من أوضاع وكم عاشت من ظروف وأحوال! يروي العارفون بالعلم أشياء كثيرة عنها. منّان لا يعرف الشيء الكثير عنها، لأنّه لم يتعلّم في المدارس. لم يكن على زمنه مدارس في البرّيّة لكي يتعلّم فيها. كلّ الحقّ على الأتراك. لكنّه يحبّ

هذه المدينة حتّى وهو لا يعلم عنها إلا أشياء قليلة. مرّة قال له أحد شيوخ المسجد الأقصى: مدينتنا هذه عمرها خمسة آلاف عام. يومها ذهل منّان. الآن يكفيه كلّما ألَمّت به الهموم والأحزان أن يأتي إليها، يتمشّى في أسواقها، يتلذّذ بالرطوبة المنبعثة من الأسواق، فتنعش قلبه وتجعله قادرًا على المشي ولا يشعر بإرهاق.

يصعد درجات كثيرة ويهبط درجات. يمرّ من أمام المساجد والكنائس والمحالّ التجاريّة والمقاهي. يجلس في مقهى بباب العامود اعتاد الجلوس فيه. يشرب القهوة ويدخّن النرجيلة ويراقب حركة الناس. يستمع إلى بائع الجرائد وهو يصيح بصوت مرتفع، ملخّصًا بصياحه بعض أخبار البلاد. يشتري المتعلّمون الصحيفة، بعضهم يطويها بين يديه ويمضي قدمًا، وبعضهم الآخر، يقبض على الصحيفة متلهّفًا إلى قراءة ما فيها، ينعطف نحو المقهى، ويختار مكانًا وينهمك في قراءة الأخبار، ومنّان يتابعه من طرف خفي، ويتمنّى لو كان قادرًا على فكّ الحرف.

ينتهي من تدخين النرجيلة، يطوي خرطومها حول عنقها ويدفع حسابه للنادل ذي الشاربين الصغيرين، ويمضي نحو المسجد الأقصى، يصلّي صلاة الظهر وبعدها صلاة العصر، ثم يعود إلى راس النبع بعد يوم طويل من التأمّل والتعبّد واجترار الهموم والأحزان.

❖ ❖ ❖

في الصباح المبكّر، دخلت راس النبع ثلاث سيّارات. نزل منها عدد من الأشخاص وتوجّهوا إلى مضافة المختار. رحّب بهم وهم يحملون الحقائب في أيديهم، ويخفون المسدّسات تحت قمصانهم، ويتكلّمون العربيّة بإتقان.

قالوا إنّهم جاءوا لإحصاء السكّان، ولتثبيت أماكن عمل العاملين منهم، ولحصر طبيعة أعمالهم، ولتسجيل ما يملكونه من أرض وبيوت وأغنام ودواجن ومصادر رزق مختلفة.

ابتدأوا بالمختار وهو غير مرتاح لهذه المهمّة التي لا تروقه، خصوصًا وهو يخمّنُ من هم هؤلاء. ولم يكن من العسير التعرّف إليهم من بعض ملامح وجوههم، ومن المسدّسات التي بالإمكان رؤيتها تحت قمصانهم. ورغم كلّ هواجسه، استجاب لطلبهم تحت ضغط الخوف من مجابهة غير متكافئة معهم.

سألوه عن عمره وعن عمله، عن زوجاته وأسمائهنّ وأعمارهن، عن الأولاد والبنات، عن الأرض ومساحتها وعن أشجارها وثمار الأشجار، عن الخيل والجمال والبغال والحمير والأغنام، عن رأي المختار في حكم الانكليز. قال جوابًا عن هذا السؤال: أنا ما أحبّ احكي في السياسة. عن رأيه في الحركة الصهيونية. قال: ما أعرف عنها أيّ شيء. عن علاقته بالمفتي الحاج أمين الحسيني حينما كان في البلاد. قال: ما شفته ولا عرفته. عن علاقته بقادة الثورة الآخرين. قال: ما عرفت منهم ولا واحد. عن عبد القادر الحسيني. ما عرفته ولا سمعت فيه. طيّب سمّ لنا أسماء من شاركوا في الثورة من أبناء راس النبع. ما حدا شارك، ولا واحد من راس النبع شارك في الثورة. سألوه: هل شارك أحد من أولادك في الثورة؟ قال: لا. من آخوتك؟ لا. سألوه: هل يوجد في راس النبع سلاح؟ قال: لا.

لم يعدم الرجال الذين كان لهم دور بارز في الثورة، وسيلة للاختفاء. فيما قرّر آخرون ألا يعطوا معلومات وافية عن ملكيّاتهم وعن مصادر رزقهم. وبعضهم قرّر ألا يعطي معلومات حتّى ولو كانت ضئيلة. من بين هؤلاء: وطّاف.

اقترب رجال الإحصاء من بيته. فوجئوا وهم يرون شابًّا طويل القامة مثل عملاق، قويّ البنية مثل ثور، وهو ينظر نحوهم بغير اكتراث. طلبوا منه أن يستقبلهم في بيته لكي يخرجوا دفاترهم من حقائبهم ويسجّلوا المعلومات التي تخصّه. لم يستجب لطلبهم. حاول أبوه أن يقنعه بتغيير موقفه لأنّه متخوّف من نتائج هذا الرفض، فلم يستجب لطلب أبيه: أنا ما أعطي معلومات.

– إسمع من والدك يا وطّاف.

– ما أسمع.

قال أحد رجال الإحصاء، وبدا من مظهره ومن طريقته في الكلام أنّه قائد المجموعة: انته لازم تسمع.

– ما أسمع.

خاف منّان على ابنه، حاول حمايته من خطر مرتقب، قال: هذا ابني وانا أعطي معلومات عنه.

أصرّ وطّاف على موقفه: لا يا أبي، أرجوك ما تعطي معلومات عني.

بدا قائد المجموعة غير مرتاح لما يظهره وطّاف من تحدٍّ وإصرار، حاول تطويعه بالحسنى. سأله: ممكن أعرف اسمك؟

– لا مش ممكن.

كبت غضبه وسأله: أنت شاركت في الثورة؟

– ما عندي جواب.

– شارك فيها أحد أخوتك؟

– ما عندي جواب.

– عندك سلاح؟

– ما عندي جواب.

كانت مروادة ترمق زوجها بنظرات مشفقة من مسافة ما، وهي تقدّر صعوبة الموقف الذي وضع نفسه فيه. حاول القائد تخويف وطّاف وتحذيره من مغبّة عناده، فلم يرتبك. قال له: أنت تعطّل شغلنا، وهذا لا يجوز.

– انتو ما إلكم شغل عندنا.

– احنا لازم نفوت بيتك وانت لازم تعطينا معلومات.

أعطى القائد إشارة خاصّة لرجاله فاقترب عدد منهم من وطّاف وحاولوا إزاحته من طريقهم، اعترضهم بجسمه ولم يستطيعوا المرور. حاولوا دفعه بالقوّة، أزاحهم من أمامه بتوجيه لكمات إلى وجوههم أسقطتهم على الأرض.

أخرج القائد مسدسه وصوّبه نحو وطّاف، لكنّ حجرًا قادمًا من مكان ما شجّ رأسه وأسقطه على الأرض قبل أن يطلق النار (قيل في ما بعد إنّ أدهم هو الذي قذف الحجر، وقيل إنّها مروادة، رغم الجنين الذي يستقرّ في بطنها فيجعل حركتها ثقيلة نوعًا ما).

وقعت معركة شارك فيها رجال الإحصاء الذين أخرجوا مسدّساتهم من تحت قمصانهم فانكشفت حقيقتهم بجلاء، ولم يكن في يد وطّاف سلاح. أصابوه في جسده وظلّ يضربهم ويطرح عددًا منهم على الأرض. وخفّف من وطأة الهجوم عليه، مسارعة أهل القرية إلى نجدته واستخدامهم الحجارة للردّ على رصاص رجال الإحصاء. ولم يستطع المختار احتمال المشهد الذي يسيل فيه دم ابنه أمام عينيه. صاح بصوت مزمجر: اللعنة على عصابات صهيون.

خلع عباءته، وراح يقذف رجال الإحصاء بالحجارة. واستمرّ إطلاق النيران وقتًا آخر. سقط وطّاف مضرّجًا بدمه، وبعد لحظات أسلم الروح، وانسحب رجال الإحصاء من القرية، ومعهم القائد الجريح.

أقيمت لوطّاف جنازة مهيبة. جاء إلى راس النبع رجال من القدس ومن قرى عرب السواحرة، صورباهر، سلوان، أبو ديس والعيزريّة. مشوا خلف الجنازة وهم يكبّرون ويهتفون غاضبين.

أخذوا جثمانه إلى المقبرة في جمهرة حاشدة، وكان المختار منّان يبكي ابنه بلوْعة. تذكّر كيف كان في طفولته يغمر جسده في بطن التربة الحمراء، كما لو أنّه كان يُعدّ نفسه منذ الطفولة للعودة إليها. ظلّ يتذكّر طفولته ويبكيه. بكاه رجال العشيرة وتحسّروا عليه، وتفتّقت قريحة عبد الجبّار عن قصيدة بدويّة رثى فيها الشهيد. بكاه أيضًا عبد الهادي، والد وضحاء. والنساء بكينه وتحسّرن عليه. ومروادة شقّت ثوبها ولطمت خدّيها حزنًا عليه، وامتنعت أسابيع عدّة عن الكلام، ورفضت الزواج بأيّ أحد بعده سبعة أعوام.

بعد منتصف الليل بقليل، راحت الريح تضرب الأبواب والنوافذ. تكاثفت الغيوم في السماء، ثم هطل المطر، واستشعر الناس البرد، فتجمّع عبد الجبّار تحت الغطاء. رأى فلحة وهي تطرق أبواب البيوت، فحار في أمر مجيئها المباغت الذي سيكشف الحقيقة التي تستّرَ عليها. أنَّب نفسه لأنّه أنقذها من القتل. لو علم أنّها ستأتي بمثل هذا الصلف، لما أعطاها فرصة للحياة في تلك الليلة القائظة. وحينما تزايدت الطرقات على الأبواب، وجد عبد الجبّار أنّه لا بدّ من إنقاذ نفسه من الحرج. انتضى شبريّته ومضى يطاردها في الدروب. أدركت أنّه سيقتلها لا محالة، صرخت، فلم يسمع صراخها أحد، وحينما يئست من أمل في النجاة، ارتمت على الأرض، انتصب عبد الجبار فوقها بكلّ جبروته القديم، رفع شبريّته في الفضاء، وهو يعاين نقطة في صدرها، فجأة سقطت الشبريّة من يده، وتجمّع من حوله الناس واجمين. شعر بالذعر وتجمّد في مكانه.

استيقظ من نومه، واستيقظت مهيرة من نومها، نظرت إليه وقالت: ما لك يا عبد الجبّار؟

– ولا شي يا مهيرة، نامي وارتاحي.

نهض واتجه نحو النافذة التي تقرعها الريح ويضربها المطر، فأحكم إغلاقها. عاد إلى الفراش واستلقى إلى جوار مهيرة وهو يستعيد حلمه. تساءل بينه وبين نفسه: هل تعود فلحة؟ ولماذا يستبعد عودتها؟ قد تعود، وفي هذه الحالة سيكون محرجًا أمام المختار منّان. منّان نفسه لامه ذات مرّة لأنّه نفّذ أوامره وقتلها. ولم يبادر آنذاك إلى إخباره بالحقيقة. توقّع أنّه ينصب له فخًّا ليحصل منه على اعتراف. فهو يعرف ابن أخيه جيّدًا، ويعرف حيله ومناوراته. هذه المرّة، بعد هذا الحلم سيخبر المختار بأنّ فلحة ما زالت حيّة ترزق. وسيأخذه إلى بيتها إنْ كان راغبًا في زيارتها، وسيشجّعه على الصفح عنها. عبد الجبّار شعر براحة ضمير لأنّه أفشى السرّ إلى مثيلة. مثيلة ظلّت تبكي حزنًا على ابنتها، ما جعل عبد الجبّار يبوح لها بالسر، بعد أن استحلفها بالله العليّ العظيم ثلاث مرّات، بأن تُبقي الأمر مكتومًا حفاظًا على سلامة ابنتها، فقالت له: السر في بير.

جلس في الفراش غير قادر على النوم، ولا يدري كيف خطرت بباله البرّيّة في تلك اللحظة،

حينما أصيبت الأغنام بمرض تسبّب في موت أعداد منها، واضطرّ بعض أبناء العشيرة ومنهم عبد الجبّار إلى اللحاق بقوافل المهرّبين الذين يعودون من شرق الأردن ومعهم بضائع يبيعونها لبعض تجّار القدس، وقسم منها يبيعونه في البرّيّة وفي القرى المجاورة.

وذات ليلة، بقي عبد الجبّار وحده وهو عائد إلى مضارب العشيرة، يسوق حماره الذي يحمل بضائع مهرّبة. فقد توقّف الحمار

في الطريق وامتنع عن التقدّم خطوة واحدة، ما جعل عبد الجبّار يتأخّر عن القافلة. نادى رفاق دربه من أبناء العشائر الأخرى واستصرخهم أن ينتظروه.

غير أنّهم لم يفعلوا. راح يعزّي نفسه بأنّ حماره لم يتوقّف إلا لإحساسه بالخطر، وظنّ أنّ عسكر الانكليز يكمنون في مكان ما للمهرّبين، فاستسلم للفكرة، واقتعد الأرض منتظرًا انطلاق الأعيرة الناريّة على القافلة، متأسّيًا على مصير أبناء العشائر رغم خذلانهم له في تلك اللحظات الحرجة.

مرّ وقت طويل ولم يحدث ما يعكّر صفو الصمت، فاستغرب عبد الجبّار أمر الحمار. نهض ينتهره بكلّ الوسائل الممكنة، فلم يتقدّم خطوة واحدة. اعتقد أنّ ضبعًا يكمن على مسافة قريبة منه. تلفّت حوله، وظلّ يرقب الصخور الرابضة على مقربة من الدرب، فلم يشهد حركة ولم يسمع صوتًا يبعث على القلق، إلا أنّه آثر الانتظار.

بزغت نجمة الصبح وهبّت ريح باردة. توقّع أن تأتي دوريّة الانكليز وتكتشف أمره. فكّر في ترك الحمار والبضاعة، والعودة إلى مضارب العشيرة صفر اليدين، لكنه وجد أنّ من الصعب عليه التصرّف على هذا النحو. حاول زحزحة الحمار فلم يتزحزح من مكانه. اشتدّ غضبه وكاد ينتضي شبريّته ويهوي بها على جسد الحمار، بل إنّه انتضاها ورفع يده التي تقبض عليها عاليًا. فجأة، شعر بارتعاشة في بدنه، فكيف يقتل حماره الذي لطالما قدّم له الخدمة تلو الأخرى بلا تذمّر أو استنكاف؟ هذه المرّة يستنكف الحمار عن القيام بواجبه. ربّما كان مريضًا أو مرهقًا من ثقل البضائع. أخذته الرأفة به، واتّخذ قراره بالبقاء قريبًا منه وليكن ما يكون. أنزل البضائع عن ظهره لعلّه يرتاح.

تململ في فراشه وفكّر بالنهوض وبالخروج إلى الساحة لعلّه يتخفّف مما يبهظه. فتحت مهيرة عينيها. ساورتها وساوس طارئة. هل يفكّر عبد الجبّار بالذهاب إلى زوجته الثانية في هذه الساعة من الليل؟ هل اشتاق إليها ويريد أن ينسلّ إليها متستّرًا بالظلام؟ جذبته مهيرة من ذراعه فمال جسده نحوها وقالت: مالك مش عارف تنام؟

– ولا إشي، بس حلمت حلم ما هو زين.

– شو حلمت؟

– مَرَة شعرها منفوش وقاعدة بتدق على الشبابيك والابواب.

– مين هي هذي المرَة؟

– ما عرفتها، ومعها ولدين وبنت.

– إلك خاطر تروح عند مَرَتك الثانية؟

– لأ، انتِ وين سرح فكرك؟

جذبته نحوها مرّة أخرى حتى لامس وجهه ثدييها: طيب نام، نام. خلّيك جنبي لَمّا يطلع النهار.

– أنا جنبك يا مهيرة، نامي وما تقلقي.

مثيلة أيضًا عجزت عن النوم. حاولت الذهاب إلى زوجها والاستعانة به لعلّه يخرج معها بحثًا عن الفرس التي انطلق صهيلها على نحو لم تألفه نفسها في الليالي المنصرمات. لكنّها استبعدت أن يهبّ لمساعدتها للجفوة التي امتدّت بينها وبينه. اعتقدت جازمة أنّه ينام الآن في حضن وضحاء. وضحاء استأثرت به وأصبح لا يفارق بيتها إلا في أحايين قليلة يذهب فيها إلى زوجتيه صفيّة وسميحة. أنحت باللائمة على نفسها لأنّها لم تستطع الاستئثار به إلا لفترة محدودة. ما الذي كان ينقصها لكي تستأثر به؟ كان لديها الجمال والجاذبيّة

والإغراء، ورغم هذا تسرّب من بين يديها فبدت كمن تحاول القبض على الماء. وهي تعي أنّ وطفاء كانت أقدر منها على اجتذابه. وضحِاء أيضًا أقدر منها بما لا يقاس.

قبل فترة، جاءها على غير ميعاد بعد انقطاع، رحّبت به واستبشرت خيرًا بقدومه، وطلبت منه أن يمنحها مهلة للاستحمام. استحمّت بماء ساخن، وكانت له ولها ساعة ممتعة من زمن، إلا أنه لم يكمل الليل في فراشها، غادرها ولم يعد إليها. اعتقدت أنّ وضحاء عرفت أين كان، فأنّبته وحرّمت عليه الاقتراب من بيت مثيلة، وربّما لم تكن وضحاء هي السبب، ربّما كان مزاجه هو السبب، فهو لا يفصح عمّا في نفسه في كثير من الأحيان، وربّما لم يرقه جسد مثيلة بعد كلّ هذه السنوات. مثيلة أدركت أنّه لا داعي لأن تستمرّ في تقريع نفسها، فالأوان فات، وما عليها إلا أن تنساه غير آسفة على شيء، فهذه الحياة لا تستحقّ أن نشغل أنفسنا كثيرًا بتفاصيلها المدوّخة.

غالبت نزوعها إلى الخروج بحثًا عن الفرس، واستمرّت تهذي وتردّد مقاطع من حكايات قديمة مرّت في حياتها. ورد على لسانها ذكر ابنتها فلحة، فانتابتها لحظة صحو ممضّة، وحمدت ربّها لأنّ عبد الجبّار لم يقتلها، ثم أمعنت في شرودها لا تسمع سوى صهيل الفرس المحموم.

لم تسمع معزوزة أيّ صهيل، ولم يداعب النوم جفنيها حتى الآن. بدأ المطر في الهطول وهي ما زالت ساهرة. حينما يهطل المطر ينتعش مزاجها، وتظلّ تصغي لوقعه الحميم على الأرض، ثم لا يلبث أن يخفت حتى لا يعود مسموعًا. كانت مضطجعة في فراشها بقميصها الداخلي الذي مزعت قطعة منه حينما ذهبت لزيارة قبر حرّان.

نهضت وفتحت صندوق الثياب وأخرجت صرّة التراب، وعادت إلى الفراش. استلقت وهي تضمّ الصرّة قريبًا من قلبها.

نهضت مثيلة وهي تتحامل على نفسها. فتحت باب البيت، ولاحظت أنّ الريح توقّفت، وثمة مطر خفيف ينثّ من السماء. خَمّنت أنّ صهيل الفرس قادم من ناحية بئر العائلة. مضت نحو البئر. مشت خطوة أو خطوتين ثم توقّفت وأصغت بكلّ حواسّها. ولم تتوقّف الفرس عن الصهيل والنداء: اصحوا من نومكم يا العبد اللات. اصحوا.

وجدت نفسها تردّد من خلف الفرس: اصحوا يا العبد اللات. اصحوا.

سمعت معزوزة النداء. أعادت صرّة التراب إلى مكانها، ارتدت ثوبها وخرجت.

كان المختار جاثمًا عند رأس أمّه المريضة، وبالقرب منه وضحاء ومهيوبة وهيفاء وعدد آخر من نساء العائلة. كانت أمّه تنطفئ بالتدريج. سمع مثيلة تنادي. تدثّر بعباءته وخرج. رأته مثيلة وهو يقترب منها. تشجّعت على المضي قدمًا حتى وصلت البئر. لم تعثر على الفرس هناك. كان الصهيل يأتيها من مسافة أبعد. فكّرت في الرجوع إلى بيتها. كان نداء الفرس يحثّها على مواصلة السير. مشت خطوات، ثم توقّفت. التفتت حيث البئر التي خلّفتها وراءها. خُيّل إليها أنّ صهيل الفرس طالع من أعماق البئر. عادت خطوات إلى الوراء. توقّفت وزوجها يسندها بيده. يسندها ويشعر بشيء من تأنيب الضمير، لأنّه أهملها سنوات، وكان ينبغي عليه أن يكون متسامحًا معها، وهو يتذكّر الآن سنواتهما الأولى معًا، كيف كانت عامرة بالحبّ وبالمتعة، ثم كيف فترت العلاقة بينهما، وخصوصًا بعد هروب فلحة.

وفلحة لم تعد على قيد الحياة، وكان ينبغي على عبد الجبّار ألا يذبحها، كان عليه أن ينتحل أيّ عذر أو أيّ سبب، كأن يقول إنّه لم يعثر عليها، وسيكون هذا كافيًا، وستطوى صفحتها وينساها الناس، والزمن كفيل بحلّ أصعب المشكلات. إلا أنّ عبد الجبار ذبحها، وأورث أمّها همًّا مقيمًا ومعاناة، ومنّان مسؤول على نحو ما عن معاناتها، وعليه أن يكفّر عن ظلمه لها ولو متأخّرًا، فذلك أفضل من تركها مهجورة مهملة. صحيح أنّه زارها قبل فترة، وظفر منها بما كان يتطلّع إليه وأكثر قليلاً، لكنّ غيرة وضحاء هي التي منعته من تكرار هذه الزيارة، وهو ما زال غير مقتنع بالخضوع لأهواء وضحاء، لما في هذا الخضوع من تناقض مع مزاجه. ومن الآن فصاعدًا ستعود علاقته بمثيلة إلى ما كانت عليه في السنوات الأولى لزواجهما، لعلّه يخرجها مما هي فيه من بؤس وشقاء.

رأتهما معزوزة واقتربت منهما، ولم تبادرهما بأيّ كلام، وقفت مبهوتة لعلّها تفهم شيئًا مما يدور حولها، اعتقدت أنّ شيئًا ما يحدث هذه الليلة، وهي لا تعرف كنهه حتى الآن. أصاخت مثيلة السمع، فإذا بالصهيل يأتيها من كلّ الأنحاء. قال لها: أمّي تموت.

بدت كما لو أنّها لم تصدّق ما قاله لها. قالت: يا ليتني أنا أموت.

قال: تعالي معي.

مشت معه ودخلا بيت أمّه. تبعتهما معزوزة ودخلت خلفهما ولم يرقها وجود أختها هيفاء في البيت، لكنّها احتملت الموقف. هيفاء تأمّلت وجه أختها معزوزة في تعاطف وحنان، ففي ساعة الحزن هذه تصفو القلوب، وترقّ المشاعر، ودّت لو أنّها تحضن أختها لتؤكّد لها أنّها لا تحمل لها في قلبها حقدًا أو ضغينة، ولم يكن الموقف يسمح بكلام كثير أو بفرصة للعتاب. أجّلت هيفاء كلّ شيء إلى وقت آخر.

فالوقت كلّه الآن مكرّس لصبحاء التي تعيش آخر لحظات عمرها كما يبدو. كانت وضحاء ترفع رأسها المتعب بيدها وتقول لها: ما بدّك تحكي لنا حكاية؟

قال منّان محاولاً تخفيف الأسى: احكي لها يا أمّي حكاية الرجل اللي أطعم ظلّه بيضة ورغيف.

لم يُحدث كلامه أيّ أثر ملموس. ارتسمت ابتسامة خافتة على وجه مهيوبة، قالت وهي تتأمّل وجه صبحاء: آ والله احكي لها وإلنا.

قالت وضحاء وهي تشجّعها على الكلام: يالله، انت احكي واحنا بنسمع.

نظرت صبحاء نحو وضحاء وقالت بصوت واهن: هالحين أجا دورك انتِ في الحكي.

بكت وضحاء وبكت مثيلة وبقيّة النساء. وقالت صبحاء بصوت متقطّع خافت: هاتوا لي فرس العيلة. بدّي فر...س... العي...

ولم تستطع مواصلة الكلام، دخلت في غيبوبة، بلّلت وضحاء شفتيها وسكبت في حلقها قليلاً من الماء. وظلّ المختار يحدّق في وجه أمّه إلى أن انطفأت قبيل الفجر بقليل، تاركة خلفها حكايات ظلّ يتناقلها أبناء عشيرة العبد اللات وبناتها، جيلاً بعد جيل.

قراءات لها صلة

الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين، تأليف: د. توفيق كنعان، ترجمة: نمر سرحان، تحرير: د. حمدان طه، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية بالتعاون مع دار الناشر، رام الله، فلسطين 1998.

سواحرة الواد في بيت المقدس وأكنافه، تأليف: محمد عقل هلسة، بيت المقدس - فلسطين 2010.

يوميّات خليل السكاكيني، الكتاب السادس، تحرير: أكرم مسلم، مركز خليل السكاكيني الثقافي، مؤسسة الدراسات المقدسية، رام الله 2006.

القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية 1918 - 1948، تحرير وتقديم: عصام نصار وسليم تماري، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس 2005.

عام الجراد، الحرب العظمى ومحو الماضي العثماني من فلسطين، سليم تماري، يوميات جندي مقدسي عثماني 1915 - 1916، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات المقدسية 2008.

أدوار المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات/ 1930s، المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية، روايات النساء، د. فيحاء عبد الهادي، مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق، البيرة 2005 .

القدس الشريف في العهد العثماني، تأليف: بشير عبد الغني بركات، مكتبة دار الفكر، فلسطين - القدس 2002.

الحياة الاجتماعية في القدس في القرن العشرين، د. صبحي سعد الدين غوشة، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله 2010.

ديوان عبد الرحيم محمود، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دار العودة - بيروت، الطبعة الثانية 1980.

في خضم النضال العربي الفلسطيني، تأليف: بهجت أبو غربية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1993.

الحكاية الشعبية الفلسطينية، نمر سرحان، منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، 1974.

الحكايات والأساطير الشعبية في منطقة الخليل، د. رشدي الأشهب، جمعية الدراسات العربية - القدس 1983.

التطهير العرقي في فلسطين، إيلان بابيه، ترجمة: أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 2007.

صدر للمؤلف

الحاجز، مجموعة قصصية للأطفال، 1986، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان.

الجندي واللعبة، مجموعة قصصية للأطفال، 1986، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان.

أغنية الحمار، مجموعة قصصية للأطفال، 1988، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان.

مهنة الديك، مجموعة قصصية للأطفال، 1999، منشورات مركز أوغاريت للنشر والترجمة، رام الله.

قالت مريم.. قال الفتى، قصة طويلة للفتيات والفتيان، 1996، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس.

أنا وجمانة، رواية للفتيات والفتيان، منشورات أوغاريت، رام الله، 2000.

طيور على النافذة، قصة للأطفال، منشورات الأونروا، دائرة التربية والتعليم - القدس، 2001.

الولد الذي يكسر الزجاج، قصة للأطفال، منشورات الأونروا، دائرة التربية والتعليم - القدس، 2001.

تجربة قاسية، قصة للأطفال، منشورات الأونروا، دائرة التربية والتعليم - القدس، 2001.

الربّان، ثلاثة نصوص مسرحية للفتيات والفتيان، منشورات أوغاريت، 2003.

الحطّاب، حكاية شعبية، دار الشروق للنشر والتوزيع - رام الله، 2004.

الملك الصغير، قصة للأطفال، منشورات الأونروا، دائرة التربية والتعليم - القدس، 2004.

علاء في البيت الصغير، قصة للأطفال، منشورات الأونروا، 2004.

قالت لنا الشجرة، مجموعة قصصية للأطفال، منشورات أوغاريت، رام الله، 2004.

كوكب بعيد لأختي الملكة، رواية للفتيات والفتيان، منشورات تامر للتعليم المجتمعي، رام الله، 2007.

خبز الآخرين، مجموعة قصصية، منشورات صلاح الدين، القدس، 1975.

الولد الفلسطيني، مجموعة قصصية، منشورات صلاح الدين، القدس، 1977.

طقوس للمرأة الشقية، قصص قصيرة جداً، منشورات دار ابن رشد، عمان، 1986.

صمت النوافذ، قصص قصيرة جداً، منشورات الأهالي، دمشق، 1991.

ظل آخر للمدينة، سيرة للمكان، منشورات دار القدس، القدس، 1998، الطبعة الثانية، دار محمد علي للنشر، تونس 2009 .

مرور خاطف، قصص قصيرة جداً، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2002.

صورة شاكيرا، مجموعة قصصية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.

ابنة خالتي كوندوليزا، مجموعة قصصية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004.

باحة صغيرة لأحزان المساء، قصص قصيرة جداً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004.

مدن فاتنة وهواء طائش، رحلات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005.

احتمالات طفيفة، قصص قصيرة جداً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2006.

مرايا الغياب، نصوص نثرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، 2007.

كلب أبيض ذو بقعة بيضاء، قصة للأطفال، مركز أوغاريت للنشر والترجمة، رام الله، 2008.

القدس وحدها هناك، دار نوفل للنشر، بيروت، 2010.

قالت لنا القدس، نصوص، يوميات وشهادات، وزارة الثقافة الفلسطينية، 2010.

أحلام الفتى النحيل، رواية للفتيات والفتيان، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، رام الله 2010.

مدينة الخسارات والرغبة، دار نوفل للنشر، بيروت، 2011.

رحلة الحمار وقصص أخرى، مجموعة قصصية للأطفال، منشورات الزيزفونة، رام الله 2011.

مديح لمرايا البلاد، يوميات، منشورات دار الجندي، القدس 2012.

بنت وثلاثة أولاد في مدينة الأجداد، قصة للفتيات والفتيان، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، رام الله 2012.

قطّوطة في المدرسة وقصص أخرى، مجموعة قصصية للأطفال، منشورات الزيزفونة، رام الله 2012.

أولاد الحيّ العجيب، قصّة الأطفال، منشورات الزيزفونة، رام الله 2012.